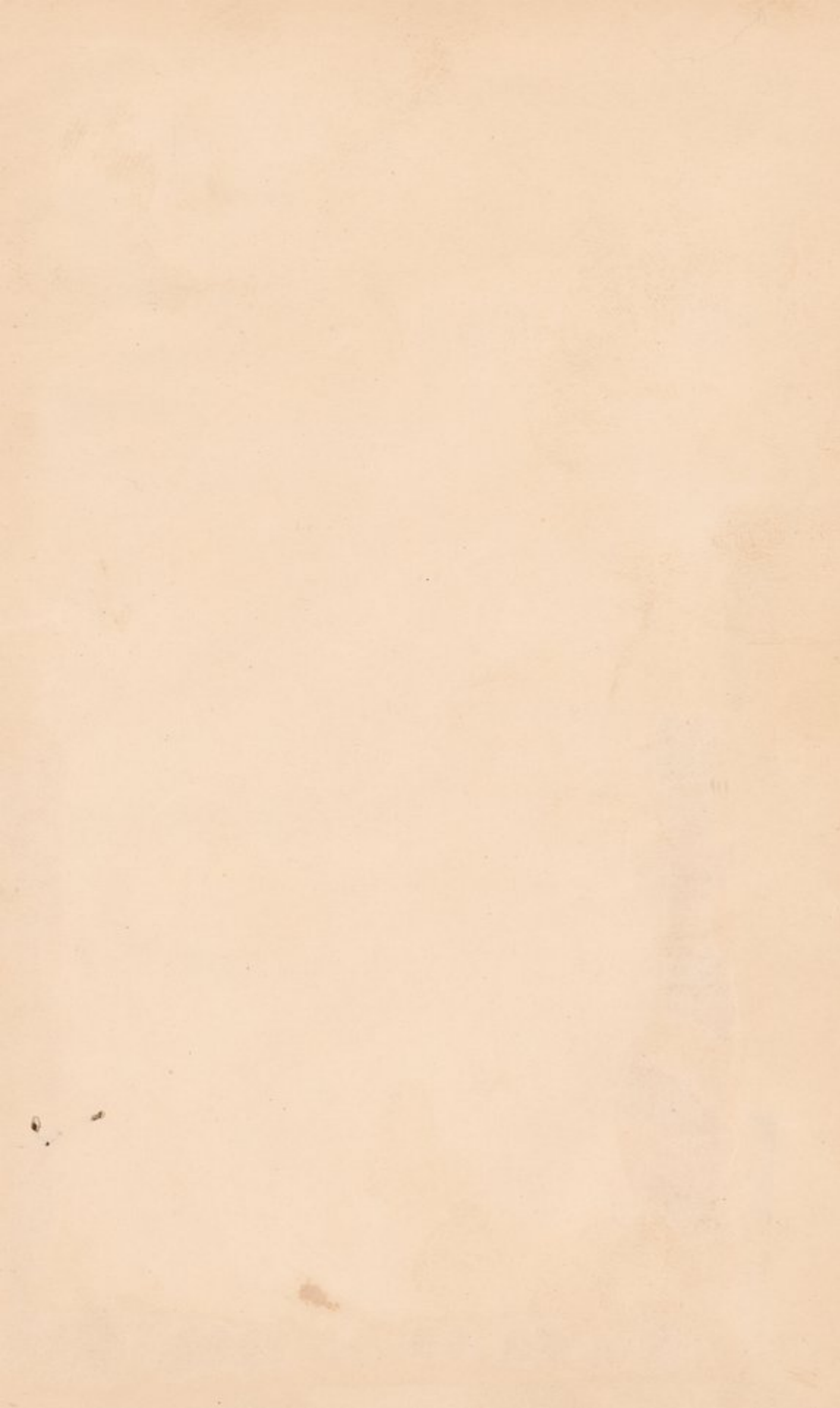


تجليد
صالح الدقر
بيروت - المزرعة

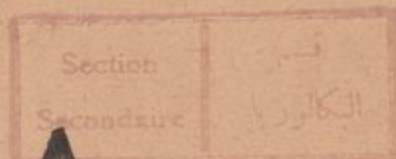




احمد الزيات

892.7409

Z391 w H
v. 2



وحى الكرام

المجلد الثاني



الطبعة الأولى

١٩٤٤

68853

مطبعة السبالة



صفحة

١٤٤		من وراء المنظار
١٤٨		أمل وذكري
١٥١		الحياة جميلة
١٥٦		الموظفون والناس
١٦٠		الربيع الأحمر
١٦٣		من بريد الرسالة
١٦٧		محمد الزعيم
١٧١		الظلام ! الظلام !
١٧٥		فقهاء بينظرة
١٧٩		العقيدة الساذجة
١٨٣		في سبيل الأزهر
١٨٧		الرجل المنتظر
١٩١		قلت لنفسى
١٩٢		إشعاع الايمان
١٩٦		مصطفى كامل بعد ثلث قرن
٢٠٠		الفكر والحرب
٢٠٤		الحرب بين أمس واليوم
٢٠٨		فرنسا تنهار
٢١٢		بين المهاجرين والأنصار

صفحة	
٢١٦	نهاية أديب
٢٢٠	الشتاء
٢٢٢	خواطر مهاجر
٢٣٨	في مخبأ الفيشاوى
٢٤٢	أمة التوحيد تتحد
٢٤٦	إنجلترا هي المثل
٢٥٠	الأخلاق وهذه الحرب
٢٥٤	خواطر مريض
٢٥٨	بين اللانزية والجرمانية
٢٦٢	يومان من أيام الرسول
٢٦٦	العصبية داؤنا الموروث
٢٧٠	هل انبعث الأزهر
٢٧٤	ما خلفته أثينا ورومة
٢٧٨	الأمـل
٢٨٠	إلى السيدة « ليلي »
٢٨٤	من البكاء إلى الضحك
٢٨٨	من أحاديث الفهوة
٣٠٤	لا تقولوا ابن الكتاب وقولوا أين القـادة
٣٠٨	بعض الكلام في « مى »

٣١٢	على ذكرى عيد الميلاد
٣١٦	مشكلة الرغبة
٣٢٠	صحة الفقير وثروة الغنى
٣٢٤	كيف عالج الاسلام الفقر
٣٣٠	على المصطبة
٣٣٤	بين اخب ونائب
٣٣٨	ربيع وربيع
٣٤١	لا بد للاسلام من مؤتمر
٣٤٥	أرواح وأشباح
٣٤٩	وهذا كتاب
٣٥٣	مثل المصرية الحديثة
٣٦١	غراب وطفل
٣٦٥	من عجائب الناس
٣٦٩	الرسالة في عامها الحادى عشر
٣٧٣	نهاية أستاذ
٣٧٨	الرسالة في عامها الثانى عشر
٣٨١	عبقريه الاسلام
٣٨٥	من مآسى هذه الحرب
٣٨٩	أبو العلاء المعرى بمناسبة عيد الألفى

بَيْنَ الْفَقِيرِ وَالْغَنِيِّ

[١٦ يناير سنة ١٩٣٩]

« يا صاحب السعادة ، لِمَ ترضي أن أكون صاحب الشقاء ؟ أنا وأنت نبعتان من أَيْكَة ^(١) آدَمَ نَمَتَا فِي ثَرَى النِّيلِ ؛ وَلَكِنْ مَغْرَسُكَ لِحَسَنِ حِظِّكَ كَانَ أَقْرَبَ إِلَى الْمَاءِ ، وَمَغْرَسِي لِسُوءِ حِظِّي كَانَ أَقْرَبَ إِلَى الصَّحْرَاءِ ، فَشَبِعْتَ أَنْتَ وَارْتَوَيْتَ ، عَلَى قَدَرِ مَا هَزَلْتُ أَنَا وَذَوَيْتَ ؛ لِأَنَّ الْمَاءَ وَالْغِذَاءَ يَطْلُبَانِكَ وَأَنْتَ ضَاجِعٌ ^(٢) وَادِعٌ ، وَأَنَا أَطْلُبُهُمَا بِالْكَدْحِ وَالْمَتَحِ ^(٣) فَمَا أَتَالُ غَيْرَ الْجَفَافِ أَوِ النَّطَافِ ! ^(٤) فَمَاذَا يَضِيرُ الْمَجْدُودَ ^(٥) أَنْ يَنْضَحَ الْمَسْكُودُ بَرَشٍّ مِمَّا يَسْبَحُ فِيهِ مِنْ فَيْضِ هَذَا الْوَادِي ، وَهُوَ لَهَا كَلْبُنِ الْأُمِّ لِلتَّوَامِينِ ، لِكُلِّ مِنْهُمَا شَطْرُهُ بِحَكْمِ الْحَيَاةِ وَالْأُمُومَةِ وَالطَّبِيعَةِ ؟ لَقَدْ ضَمِنَ اللَّهُ لَكَ حَقَّ الْمَلِكِ لِصَلَاحِ الدُّنْيَا ، وَلَسَكُنْهُ فَرَضٌ عَلَيْكَ بِإِزَاءِ ذَلِكَ الزَّكَاةَ تَحْقِيقًا لِهَذَا الصَّلَاحِ . فَإِذَا خَشِيتُ أَنْ تَمْتَدَّ عَيْنِي إِلَى مَالِكَ بِالْحَسَدِ وَالشَّهْوَةِ ، أَوْ يَدِي إِلَى نَفْسِكَ بِالْعَنْفِ وَالْقَسْوَةِ ، فَاسْكِرْ نَظْرَتِي وَحِدَّتِي عَنْكَ بِأَدَاءِ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِي عِنْدَكَ ؛ وَإِلَّا كَانَ مِنَ الْإِنْصَافِ فِي رَأْيِي عَلَى الْأَقْلِ أَنْ يَكُونَ اعْتِرَافِي بِالْحَقِّ لَكَ ، مُعَادِلًا لَاعْتِرَافِكَ بِالْوَاجِبِ عَلَيَّ »

ذلك ما يقوله في مصر كل فلاح لكل باشا : وَلَكِنْ أَغْنِيَاءُنَا غِلَظُ الْأَجْهَادِ وَالْأَكْبَادِ فَلَا يُصَيِّخُونَ لِمِثْلِ هَذَا الْعِتَابِ الْهَامِسِ ! وَهُمْ إِلَى ذَلِكَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي أَعَانَ الْفُقَرَاءَ بِالزَّكَاةِ عَلَى الْفَقْرِ ، أَعَانَهُمْ عَلَيْهِ أَيْضًا بِالْقَنَاعَةِ وَالصَّبْرِ .

(١) الأَيْكَة : وَاحِدَةُ الْأَيْكِ ، وَهُوَ الشَّجَرُ الْكَثِيرُ الْمَتْنَفِ (٢) رَجُلٌ ضَاجِعٌ : كَثِيرُ الْاضْطِجَاعِ كَسَلَانِ (٣) الْمَتَحُ : اسْتِخْرَاجُ الْمَاءِ مِنَ الْبُئْرِ بِالْدَلْوِ (٤) النَّطَافُ : سَجَمُ نَظْفَةٍ ، وَهِيَ قَلِيلُ مَاءٍ يَبْقَى فِي دَلْوٍ أَوْ قَرْبَةٍ (٥) الْمَجْدُودُ : الْمَحْظُوظُ . وَالْمَسْكُودُ : النَّعْبُ الْمَقْلُوبُ

فهم يشقون بالله ، ويؤمنون بالقدر ، ويعتقدون أن نصيبهم المقسوم في السماء سيهبط عليهم في الأرض ، أو يصعدون إليه في الجنة ، وفي ضمان هذه الأخلاق السمحة والنفوس المطمئنة ، مشى الغنى متابهاً متاهلاً يحاول أن يخرق الأرض ويطول الجبل ويملك على عباد الله حق الحياة والموت . ثم ينظر إليه الكادح المحروم وهو يخور من السمن ، ويختال من البطر ، ويغوص في الحرير ، ويخوض في الذهب ، فيقول بلهجة المؤمن الراضى :

« آمنت بالله ! لو لم يستحق ما هو فيه ، لما كان الله عز وجل يعطيه ! »

وأقسم ما أعطاه الله ولكنه هو الذى أخذ . وما كان ليستقيم في ميزان

العدل أن يُعطى الرئى إنسان حتى يطفح ، ويُمنعه إنسان حتى يلتهب !

أعرف في بعض مراكز (الغربية) عشرين بلدة يملكها من الشرق أمير ومن

الغرب باشا ؛ فليس لأحد من الأهلى فيها شبر أرض ولا جذع شجرة . إنما هم

أجراء أو مستأجرون سخرتهم الغفلة والاستكانة لرجلين كسائر الرجال ، ليس

لبطنيهما سعة البحر ، ولا لعزميهما قوة الدهر ، ولا لنفسيهما عظمة الله . إنما هما

فنان تملأهما المضغة ، ومعدتان تكظهما^(١) الأكلة ؛ ولكن لهما عينين كعين الجحيم

لا تمتلئ ، ونفسين كجوف الرمل لا يرتوى ؛ فهما يعصران من أجساد هذه

الألوف الجاهدة ذهباً يكتنز ، وقصوراً تُشاد ، وسلطاناً يُرهب ، وقطعاً تسعى ،

ومراكب تطير ، ورغائب تُبتغى ، ولذائذ تُنال ، وأوسمة تناط ، وألقاً تكتسب .

ثم لا تدر كهما بهؤلاء العبيد رحمة الخالق بالخلق ولا عناية الصانع بالآلة . فصاحب

الآلة يوفر لها الشحم والوقود ، ومالك البقرة يهيئ لها الحظيرة والعلف ، وهما

لا يتركان لفلاحيهما المساكين ما يمسك الروح ويستر البدن ، ثم يلزمانهم

أن يؤدوا أجرة الأرض ونفقة الإدارة قبل أن يأكلوا . فإذا أوف^(٢) الزرع

أورخص السعر وعجزوا عن الوفاء ، سلطا عليهم النظار والمحصرين فأخذوا الدور

(١) كظه الطعام : ملأه حتى لا يطيق النفس (٢) أوف الزرع : أصابته الآفة

التي يأوون إليها ، والبهايم التي يزرعون عليها ، وخلفوهم فرأس للمرض والفاقة ، لا يجدون وسيلة للطب ولا حيلة للجوع . فإذا فزعوا إلى فضل الأمير أو الباشا زَمَ بَأَنفَه (١) واستكبر أن يفتح عينيه على هذا الهوان والقذر ، ولعله ساعته كان يمسح خرطوم كلبه أو يرجلُ عُرف جواده ! (٢)

سكان هذه القرى العشرين يعيشون هم وماشيتهم في أكواخ من اللبن (٣) لا تدخلها بهجة الطبيعة ولا تعودها رحمة الله . تقوم على أقدار البرك وفوق سباح الأرض ، وعلى ظهورها المراحيض وفي بطونها المزابل . ولما كان المدللان يَغُطَّان بين الحرير والذهب ، في قصور تطاول السماء ، ورياض تنافس الجنة ، ثم لا يتفضل أحدهما فيحمل الحكومة بجاهه ونفوذه على أن تجفف لهؤلاء البائسين بركة ، أو تنشي لأطفالهم الضاوين مدرسة . وعلة حب الباشا للمستنقعات أن نفقة ردمها على حسابه ، وحجة بغضه للمدارس أنها تصرف الأطفال عن العمل في أرضه ارجعوا يا قوم إلى الله فقد طبَّ لهذه الأدواء واحتاط لهذه الفواجع . إن هذا الأمير وذلك الباشا يملك كل منهما مليوناً من المال الذي تحول عليه الأحوال فيزيد ولا ينقص . فلو أنهما يؤديان زكاته كما فرض الله لكان ما يدفعانه خمسين ألف جنيه في كل سنة . ولو حبسنا هذا المال الوفّر على هذه القرى العشرين لما بقي فيها فقير ولا مريض ولا جاهل . وإذن تشفى الصدور من الغل ، وتبرأ النفوس من الوهن ، فتكثر الأيدي ، وتشتد السواعد ، ويزيد الإنتاج ، ويزكو الربيع ، ويردّ عليهما ما أقرضا الله أضعافاً مضاعفة . ولكن أغنياءنا أبطرتهم نعمة الله فاستغنوا بجبروتهم عن رحمته ، وبملكوتهم عن جنته ، وبعبادهم عن عبادته ؛ وكأنهم أصبحوا يرون سعادتهم في شقاء الوطن ، وعزتهم في مذلة الناس !

(١) زم بَأَنفَه : شمش وتكبر (٢) يرجل الشعر : يسرحه ، والعرف شجر عنق الفرس (٣) اللبن : المضروب من الطين مربعاً للبناء (الطوب الأخضر)

صَحِيَّةٌ مِنْ هَذَا؟

الآباء يا كلون الحصرم ، والأبناء يضرسون

[٢٣ يناير سنة ١٩٣٩]

كنت في مكنتي مساء الأمس أتحدث إلى قصصية شاعرة جاءت تهدي إلى قصة للتقريظ ، وقصصى كاتب جاء يقدم إلى أقصوصة للنشر . وكان من مطارحات الحديث أن تكلمنا في نصيب الخيال والواقع من قصة الأدبية وأقصوصة الأديب وجرى على الألسنة الثلاثة كلام فى روعة الواقع المحض ، وزخرفة الفن البارع ، وجاذبية الخيال الممكن . وكأما كان يدافع عن الحقيقة مدافع من وراء الغيب فأدخل علينا فتى ذاوى الفتوة ضارع الجسم ، ألف القدر من شقائه مأساة لا يحتاج الكاتب فى سردها إلى تلفيق خياله أو تزويق فنه

قرأ هذا الشاب ما كتبه عن بعض من عرفنا من فرائس البؤس ، فظن لبراءة فكره وسلامة صدره أن ما نكتبه عن هذه المآسى الأليمة يصادف من أولى الأمر استماعاً واقتناعاً ورحمة ؛ فأراد آخر الراى أن يسميهم أنينه الموضع من هذا المكان القريب . ولو علم فتانا أن القدرة صفة من لا يرحم ، وأن الرأفة خلق من لا يستطيع ، لأدرك أن كبراءنا وأغنياءنا يقرأون ما سينا للتلهى والفن ، كما نقرأ نحن ملاهيهم للتسلى والعجب . فإذا كانت لهم عيون فعيونهم من غير دموع ، وإذا كانت لهم قلوب فقلوبهم من غير شفقة . ولكنه

أخذ يستريح إلينا بذِكرٍ ما كابد من باطن الهم ومكنون الأسى ، فأخذت الكاتبة تنهه عبرة سالت على الخد ، وأخذ السكاتب يعجب أن يبلغ البؤس بالناس إلى هذا الحد ، وتركا لي أن أقص عليك فصلاً من هذه الرواية :

في المنصورة أيضاً بلد المال والجمال والشعر ، سطر الدهر المصرف في سجل الألم الإنساني هذه المأساة . كان أبوه من كبار التجار في هذه المدينة ؛ وكانت يده كيدى الخازن الماهر في المصرف العظيم تسيلان في الأخذ والعطاء ورقاً وفضة . وكان معدوداً في سرّاة القوم ، يعيش عيش المترفين المرففين ، يطلق نفسه في العز ، ويقلب أهله في النعيم ، وينشئ أطفاله السبعة على كبر النفس ورفعة الهوى وبعْد الأمل . واتسق له الحال وواتاه الحظ الناهض فظن أمره قد عظم على الأيام واعتصم من الطوارق ، فأغفل المواظبة والمراقبة ، وأهمل المراجعة والمحاسبة ، فصار الداخل لا يسجل ، والخارج لا يحصّل . واجتمع عليه العدوان السخيان : التاجر المصدّر الذي يعطى ولا يأخذ ، اعتماداً على الضمان ، والشارى المستهلك الذي يأخذ ولا يعطى ، اتكلاً على الأمانة . وظلت الأمور تجري في مجاريها اليومية ، تُقرغ صناديق البضاعة ليلاً في الخازن ، ثم توزع على الناس نهاراً في الحوانيت ؛ ولا يعلم إلا الله والتاجر ما في هذا الرواج العظيم من البوار ، وما يبطنه هذا الربح الموهوم من الخسارة

وكان هذا الفتى وهو بكر أبيه قد نجح في امتحان البكالوريا بقسمها العلمي حين نزلت بهذا التاجر المغرور علة فادحة . وأعان المريض العلة على نفسه بما انكشف له من سوء الحال وظلام المستقبل فقضت عليه

جلس الفتى في المتجر مكان أبيه الراحل وهو يكفكف عبرات العين بالصبر ، ويخفف حشرات القلب بالرجاء ، وفي اعتقاده أنه سيبني على أساس مكين ،

ويصعد على رأس مال ضخم . فلما خطا الخطوة الأولى تفتحت أمامه الهوى ^(١) ،
وتفجرت حواليه النوازل ، فعاد ينظر في الخازن ويبحث في الدفاتر فوجد الخطر
الذى لا يُدفع ، والقضاء الذى لا يُرد . وحاول أن يتفق مع الغرماء والحرفاء ^(٢) ،
فلم تساعده فداحة دينه وطراءة سنه على هذا الاتفاق ، فاستغرق بعض الدين كل
التركة ، وأعلنت المحكمة إفلاس المتجر ...

وفى عشية وضحاها فقدت الأسرة المدللة وسيلتها للعيش ومكائنها في المجتمع
فلم يُعد لها بعد الله عائل ولا وائل غير هذا الشاب وشهادة يحملها عليها طابع
الحكومة وخاتم وزير المعارف بأنه تربي وتعلم ، فمن حقه أن يمارس شئون الناس
ويلى أمور الدولة . فانتقل الفتى بأسرته إلى القاهرة ، ثم أخذ يقطع السبل المؤدية
إلى الوزارات كل صباح وهو نخور بشهادته ، مدل بكفايته ، فلم يدع باباً من
أبواب الدواوين إلا طرقه . ثم ألح في الطرُق رجاء أن يصيخ إليه سمع فلم يشعر
بوجوده غير السعاة والحجّاب ، فاتسعوا له حيناً ثم برموا به فنهروه وطردهوه .
وأدرك المسكين بعد لآئى أن الشهادة من غير مدد ورقة عليها مداد . فأخذ
يلتمس الشفاعة عند أرباب السراوة والجاه . ولكن الشفاعة فى أيامنا أصبحت
حرفة لا يبذلها الشفيع إلا لمن يبذل فيها المال أو العِرض . فكان الفتى كلما سمع
برجل من رجال النفوذ قصده وقص عليه قصصه ، فلا يكاد الرجل العظيم يعلم
أن له أخوات فى غِسان ^(٣) الشباب ، وأماً لا تزال فى ربيع العمر ، حتى تحوم
نفسه على الحذر الذليل ، فتثور الحمية بالفتى فلا يجد لها متنفساً إلا البكاء
والاختفاء

والتمس البائس السبيل إلى العمل بالفكر وباليد فلم يوفق ؛ وأوشك أن يفقد

(١) الهوى جمع هوة (٢) الغرماء : الدائنون . والحرفاء المعاملون (الزباين)

(٣) غيسان الشباب أوله وحدته ونعمته

ثمن الحلية الأخيرة من حلى أمه ؛ وخشى أن يختم الموت على الأفواه الثمانية الذابلة
فتقدم إلى العمل (فاعلاً) فى عمارة تبنى ، فردّه (المقاتل) لركة جسمه
ودقة عظمه !

فانـكفأ الطريد بالفشل والخبجل إلى أسرته اليائسة الوهلى ؛ وباتوا جميعاً
على الطوى والجوى يخلطون البكاء بالبكاء ، ويصلون الدعاء بالدعاء ، حتى سمعوا
أن كلية من كليات الجامعة تطلب فـراشين ، فتقدم صاحب الشهادة مع صاحب
المكنسة ، وأمله كله ألا يُذاد عن هذا الملجأ الأخير !

وها هو ذا الآن فى قسم الكيمياء ينظف لرفقائه فى الدراسة المقاعد والمناضد
بأجرة فى الشهر مقدارها مائة وأربعون قرشاً يحفظ بها أربعة أعراض وثمانية
أرواح ! ولعله بفضل ما تعلّم من المعادلات واللوغارتمات لا يتعب كثيراً فى
حساب هذا الدخل !



عيد الفقير

[٣٠ يناير سنة ١٩٣٩]

عيد الفقير ! وهل للفقير عيد ؟

نعم للفقير عيد إذا أردنا به الشعائر الدينية والقومية ؛ فهو يصلي العيد ،
ويزور المقبرة ، ويعيد على آله وصحبه ، ويكره السرور النافر على الإمام ببيته
وقلبه ، ويجعل من المساجد والحدائق والميادين مظاهر إخلاص وشكر لوطنه وربه
فإذا أردنا بالعيد التقلب في وثير الفراش من غير صلاة ، والتنافس في ذبح
الكباش من غير تضحية ، والتأنق في الزينة والثياب ، والتفنن في الطعام
والشراب ، والتبسط في اللذة واللهو ، والتهادى بين التيه والزهو ، فذلك عيد
الباشا والأمير ، لا عيد المسكين والفقير

وارحمنا للفقير قبيل العيد ! يرى متاجر الملابس واللعب والحلوى قد أزيّنت
واجهاتها البلورية بالعروض الجذابة والنماذج المغرية ، فينظر إليها نظر الراغب
المحروم ، ويذكر أطفاله الغارين^(١) في حنانه وهم يحملون بالثوب الجديد واللعبة المسلية
والأكلة الشهية والنزهة الممتعة ، ويعتقدون أن أباهم قادر على أن يجعل عيدهم
سعيداً وحامهم يقظة ، فيكرهه الأسى وتصبح الحسرة في نفسه بهذه الشكوى :
— حنانيك يا رباة ! هذه نعمة واسعة سابغة ، ولكن القدر لحكمة
لا يدركها البصر المحدود جعلها لغيري لذة بالقدرة ، ولنفسى ألماً بالعجز ، ولأولادى
شقاء بالحرمان . فليت القدرة تعرف الرحمة ، وليت العجز يدرك المعونة ، وليت

الحرمان يخطئ* الطفولة ، وليت الأيام تمضى إلى غايتها من غير عيد ولا موسم !!
 إن الأعياد مذلة للوالد الفقير وفضيحة للبيت البائس ! ففي الأيام الأخر
 يستطيع العائل المسكين أن يغلق بابه على بؤسه ، ويروض أهله على مكروهه ؛
 ولكنه في العيد لا يستطيع أن يضرب على الآذان ، ولا أن يختم على العيون ،
 فإن المدافع تقصف في القلاع ، والمزامير تعزف في الشوارع ، والناس يزيطون
 في الملاهي ، والأطفال في المراكب والمواكب يرفلون في الوشى ويلهون باللعب ؛
 فأولاده لا بد سائلون :

يا أبانا ، أين الثوب الذى نلبس ، واللحم الذى نأكل ، والقرش الذى ننفق ؟
 أهذا العيد لناس دون ناس ، أم هو ذو وجوه شتى منها العابس والباسم ، ومنها
 الدميم والحسن ؟ ولم آثرنا نحن يا أبانا بهذا الوجه الشميم الكالح ؟
 لو كان هذا الرجل فى أمة مؤمنة محسنة لأجاب بنيه بقوله : صبراً يا بنى ،
 فعماً قليل يدخل عليكم باباكم (بيرم) أو عمكم (نويل) بالأطاف والحلوى
 والحلل من وقفية الباشا فلان ، أو من جمعية كذا للاحسان ؛ ولكنه يجيبهم
 بالدمعة البادرة ، والزفرة المحرقة ، والنظرة الحزينة ، فلا يفهمون إلا أنهم أحقر
 من هؤلاء الأطفال ، وأن أباهم أفقر من هؤلاء الرجال . أما علة هذا التفاوت
 وإلھنا واحد ، وأبونا واحد ، وملكننا واحد ، ووطننا واحد ، فعلمها سيئاتهم
 مع الأيام إذا ما خرجوا بأنفسهم إلى الحياة فرأوا المكظوظ الذى غصب رغيف
 الجائع ، والملفّف الذى نهب كساء العارى ، والممولّ الذى سرق نصيب المحروم

حدثني رجل من ذوى هذه الحال أنه كان يشتغل مياومة فى مصلحة من
 مصالح الحكومة ؛ فلما قل عليه العمل استغنوا عنه ؛ ولكنه أسوء حظه لم

يستطع أن يستغنى عن الأكل ، ولا أن يقنع أولاده بالصوم ، فراح يطلب العمل في كل مكان ، والمعونة من كل إنسان ، فلم يجد . ودخل عليه عيد الفطر من هذا العام وليس في يده ما يشتري به الكسئ لبنيه والسمك لزوجته . وكان قبل نكبته بأسبوع قد وعد الكبار بالبذل والصغار بالهدايا ، فسبحت أخيلة الأطفال في جو من الأحلام عجيب الألوان عبقرى الصور ؛ وأسرعت ألسنتهم للثرارة إلى إشاعة ذلك في الرفاق والجيرة . فَنَمَّ على الرجل الحال ، واعتلج في صدره الهم ، وأصبح حيران لا يدري ما يقول ولا ما يفعل . تمنى الخروج من هذا المآزق بالمرض أو الموت ؛ ولكن المرض أو الموت إذا أصبح أمنيَّة الفقير امتنع كالخير وعزَّ كالسعادة . فاحتال على العلة بالجوع ، فصام النهار والليل حتى هجمت عيناه وانسرفت قواه وبانت عليه نهكة المرض

ودخل العيد بضوضائه وخيلانه على هذه الأسرة البائسة فوجدوها عاكفة على سرير مريضها الموحَّج ، مضرَّمة الأنفاس ، لهيفة القلب ، لا أمل لها إلا أن يعافى عميدها ويحيا . فانكفأ العيد النشوان المرح خجلان عن هذا المنظر الأليم إلى مجالى البهجة والنعيم في قصور الكبراء والأغنياء والسادة . ولولا هذه الحيلة التى أنقذت هذا التعس بالمرض من غير موت ، لأشفى به الخجل والهم على الموت من غير مرض !

تباركت يا الله ! لقد جعلت في عيد الفطر زكاة ، وفي عيد النحر تضحية . فهل فهم ذوو القلوب الغلف والبصائر العُمى من شرعك العادل أن الفقير يزكى بقوة حتى يعجز ، والمسكين يضحي بصحته حتى يموت ؟!

كَيْفَ نَعَالِجُ الْفَقْرَ

[٦ فبراير سنة ١٩٣٩]

سؤال طالما وقع في رَوْعِ النبيين والمصلحين والفلاسفة ممن يملكون القول والدعوة ، ولكنه لم يدرْ أبداً بخلد الأمير فلان والباشا علان والبيك ترتان ، ممن يملكون الفعل والتنفيذ . ومن بدائه العقل أن يفكر الأنبياء والحكماء في معضلة الفقر ، فإنهم نشأوا في مهده الخشن ، ودرجوا في فنائه الضيق ، وعاشوا في مرعاه الجديب ، ورأوا بأعينهم العبرى أثقال العيش تنوء بالظهور الضعيفة فتسقط في طريق الحياة عرضة لزواحف الرذيلة وجرائم المرض . ومن بدائه العقل كذلك أن تبقى معضلة الفقر من غير حل يطهر الأرض من سمومه ، وينقذ الناس من همومه ؛ فإن أرباب الحكم والتشريع والتنفيذ هم من سلائل النعمة وكناز المال ، فلا يخطرون ببالهم الفقر ، ولا يحطبون في حبالهم الفقير ؛ وهم يظنون إذا محا الإحسان الفاقة ، ونفى التعليم الجهالة ، أنهم لا يجدون الخدم ولا يملكون العبيد ؛ والجاء من غير أدلاء يرمقونه زفة من غير نظارة ، والمال من غير فقراء يعبدونه مُلك بلا رعية .

من أجل ذلك كان فزع الناس إلى الأقوياء والأغنياء من عوادي الفاقة تزييفاً على الطبع وتكليفاً بالحال . ومن أجل ذلك كان تنظيم العلاقة بين القوة والضعف ، وبين الغنى والفقر ، عملاً من أعمال الله وحده ، يرفه عليه النفوس ، ويرفع به الإنسانية ، ويجمّل به الحياة . فإذا حاربنا الفاقة بسلاح الاقتصاد المحض كسب النظم وتوسيع الموارد وتوزيع العمل ، وأغفلنا أثر الحظوظ

والممول والأحوال والأمراض في حياة المرء ، قتلنا الفقر بقتل الفقير ، كما يقتل الطبيب المرض بقتل المريض . إنما يحارب الفقر بسلاح الدين ليس غير . وسلاح الدين في مجاهدة البؤس أنه يجعل للفقير في مال الغني حقاً معلوماً لا يصح إسلامه إلا باعتراده وأدائه ؛ وأنه يقوى الإنسانية في الإنسان حتى يشعر بالأخوة لكل مسكين ، وبالرحمة لكل بائس . وبقوة الإنسانية وحدها في الدول المتدينة كإنجلترا وأمريكا أوشك البؤس أن يزول ، فوجد كل مريض مستشفى ، وكل هريم مباحاً ، وكل يقيم مدرسة . وقد بلغ ما أنفقته الحكومة الإنجليزية على أعمال البر في سنة من السنين ثلثمائة مليون جنيه ، ولا يقل ما يتبرع به الشعب البريطاني للمستشفيات وحدها عن خمسين مليون جنيه في العام !

الدين هو الطب الوحيد لأدواء المجتمع ؛ فإذا غرستموه في قلوب النشء ، وقويتموه في نفوس الشباب ، جعل من الأمة أسرة متماسكة البناء ، متضامنة الأعضاء ، يعين سعيدها الشقي ، ويحمل قادرها العاجز ، حتى يقطعوا مراحل الحياة رافهين لا يمسه نصب ، ولا تجافي بينهم عداوة

مَنْ غير الله يستطيع أن يرقق هذه الكبد الغليظة في هذا الغنى المبطان الذي غلا في الكبر ، ولج في الهوى ، ودلَّ نفسه على ذل الناس ، وأمسك رزق الله في خزائنه فلا يطلقه إلا لشهوة أو نزوة ؟

مَنْ غير الله يستطيع أن يقلِّب العبر على عيني هذا المغرور فيريه بالثقل والمرض والهم أن الراحة في النفس أذل منها في الجسم ، وأن الجمال في الرحمة أسمى منه في الجبروت ، وأن السعادة في الإعطاء أعظم منها في الأخذ ، وأن خير ما في الدنيا هو ما انتقل معه إلى الآخرة ؟

هيهات أن يكون في الأرض إيمان ما دام في الأرض فقر ! فإن أسباب

الفقر ممدودة من الطمع والشح والأثرة ؛ وهذه الخلال السوء لا تطمئن عليها نفس مؤمنة . وإن من ضلال الأفهام أو الأقلام أن تعالج الفقر على أنه ناجم من ندرة العمل في البلد أو قلة الخير في الدنيا ، فإن العمل ميسور للقادر ، ورزق الله موفور للحى . وإذا شكت الأمم اكتظاظ المعامل ونضوب الموارد وضيق الرقعة ، فإن مصر الجديدة البكر بينها وبين هذه الشكوى أن تمصر المصانع والمعامل والمتاجر والمصارف والشركات ، وما بالقليل ذلك

لا تطلبوا من الفقير العمل قبل أن توفرأ له القدرة عليه . إنه جاهل فاشرعأ له منهل العلم ؛ وإنه عليل فانهجأ له سبيل الصحة ؛ وإنه معدم فدبرأ له رأس المال . ومن بلادة الحس أن الغنى يسمعك وأنت تقرأ هذا الكلام ، فلا يظن المخاطب به أحداً غير الحكومة ، فشارك في النقد ، ويسرف في الإنكار ، ويلح في الطلب ، لأن الحكومة في رأيه يجب أن تلبى كل نداء ، وأن تؤدى كل واجب . والحكومة لو دى هذا المتواكل القدم لا تتسع مواردأ لكل رغبة ؛ فإنها لم تجب منه ومن أمثاله إلا حق العارة والأمن ؛ أما حق الله عنده فقد وكلت أدأه إلى ضميره ، يعطيه من يشأ متى يشأ وكيف يشأ ؛ ولكن الضمائر نامت على هههدة الشهوات ، والعواطف قست على جفاف المادة ؛ وبين غفوة الضمير ، وقسوة العاطفة ، ذهب وازع الدين فلم يبق إلا وازع السلطان

فهل يفكر أولو الأمر أن يعالجوا الفقر بما عأله الله به فيجبوا الزكاة وينظموا الإحسان ؟ إنهم إن يفعلوا ذلك لا يجدوا في البيوت عائلاً ، ولا في الطريق سائلاً ، ولا في السجون قاتلاً ، ولا في المواخير ساقطة !

يَا أذنَ الْحَيِّ اسْمِعِي !

[١٣ فبراير سنة ١٩٣٩]

أوشكت صفحات الرسالة أن تحترق لطول ما أنَّ عليها الفقر وزفر فيها الشقاء ،
وأغنياؤنا — أحياءهم الله — لا يسمعون لأن آذانهم مبطنة بالذهب الأصم ،
ولا يشعرون لأن قلوبهم مغلفة بالورق المالى الصفيق . وبال الخلى أطول من
ليل الشجى ، وسمع الناعم أثقل من هم الشقى ، ودنيا اللذة أشغل بمباهجها
وملاهيها عن دنيا الألم !

لعل من القارئین من يختلج في رأسه هذا السؤال :

لماذا يمتد نفسى بهذا الأنين الموجه ، ويستمد قلمى من هذا الدمع القانى ؟
وجوابى أنى نشأت فى قرية من أولئك القرى العشرين التى سلط القدر عليها
الباشا والأمير^(١) ؛ فانشق بصرى على مناظر البؤس ، وتنبّه شعورى على ما سى
الجور ؛ وعلمت حين تعلمت أن وطننا يفيض بالخير ، وديننا يأمر بالإحسان ،
فأيقنت أن فقر الناس ، ناشئ من فقر الإحساس ؛ فإذا طلب الفقير حقه ،
وأدى الغنى واجبه ، تلاقت الأنفس على حدود الإنسانية الكريمة . فأنأحاول
بمواصلة هذا الأنين أن أعالج وقر المسامع وسدر العيون وخدر المشاعر ، عسى أن
يتذكر المترفون أن لهم إخوة من خلق الله يأكلون ما تعاف الكلاب من
المآكل ، وينامون مع الحيوان فى المزابيل ، ويقاسون من الأدوية ما لا يقاسيه

حتى في غير مصر . ولكنى علمت واحسرتاه بعد شهرين مضيا في الشكوى
والاسترحام ، أن بين أبناء الذهب وأبناء التراب أطباقاً من اللحم والشحم
والحديد والأسمت



ترتد عنها أصوات
الضارعين أصداء
خافتة ؛ ثم تتجاوب
هذه الأصداء في
أكواخ المساكين ؛
ثم تهافت على بريد
الرسالة تهافت
الأرواح الهائمة على
الشعاع الهادي
تتلمس في ضوءه
الطريق إلى الله
وائلٍ الضعيف ،
وعائل المعدم !

من لنا بمن

يفتح عيون

السادرين على

نمثال السائنة ، وكم نمثال لها في مصر من لحم ودم !!
هؤلاء الأيامى اللاتي يقضين ليل الشتاء البارد الطويل على بلاط الأفارين
وقد تطرح أطفالهن على جنوبهن طاوين ضاوين لا يفهمون عطف الأب ،

ولا يعرفون دفء البيت ، ولا يدركون إلا أنهم أجساد تعرى ولا تجد الكساء ،
وبطون تحوى ولا تصيب الغذاء ، وأكف تمتد ولا تنال الصدقة ؟

من لنا بمن يفتح قلوب المالكين لأولئك الفلاحين الذين اصطلحت عليهم
محن الدنيا وبلايا العيش ، وجهلتهم الحكومة فلا يعرفهم إلا جباة الضرائب
في المالية ، وفرازو القرعة في الحربية ، وحراس السجون في الداخلية !
أما المعارف والصحة ولأوقاف والأشغال فشانها شأن المترفين والمتقنين لا تعرف
غير المدينة ولا تعامل غير المتمدن ؟

من لنا بمن يقول لهؤلاء المثرين المستكبرين : إن ركفلر ورتشلد لم يرفعهما
إلا حب الإنسان ، وإن الدمرداش والمنشاوى لم يخلدهما إلا بذل الإحسان ،
وإن لديهم من فضلات الثروة ، كرج الأموال في المصارف ، ومكافأة النيابة
في البرلمان ، وحثالة الزروع في العزب من القبن والقش والحطب ، ما يوفر الغذاء
والدواء والعلم لألوف الألوف من بنى الوطن ؟

بالأمس كانت ذكرى وفاة المرحوم السيد عبد الرحيم الدمرداش ، وهو
والمنشاوى وبдраوى سمنود من ملائكة الأرض يرفرفون بأجنحتهم النورانية
على شقاء كثير من الناس . فلماذا لا يقام لهؤلاء الخيِّرين البررة وأمثالهم تماثيل
في الميادين العامة ، ليتشبه بهم الغنى ، ويترحم عليهم الفقير ، وليكون في رفع
ذكرهم على هذا النحو إعلاء لمعنى الإحسان ، وإطراء لأريحية الحسن ، وتهريق
بين من دله الوطن فعقاً ، وبين من رباه الوطن فبراً ، فلا تستوى الحسنة
ولا السيئة ، ولا ينبغي « أن يكون الحسن والمسيء بمنزلة سواء ، فإن في ذلك
تزهيداً للمحسن في إحسانه ، وتدريباً للمسيء على إساءته »

الطفولة المعلّنة.

[٢٠ فبراير سنة ١٩٣٩]

في الأقوال السائرة أن الفقير كلما طلب من الله قرشاً أعطاه قرشاً . وفي ذلك حكمة للعلم الحكيم تستسرّ دلائلها على الفطن المحدودة . فإن قوام العيش ونظام الدنيا منوطان بالسعي المرهق والعمل المّهين ، وهذان لا يقوم بهما إلا الكثرة ، ولا يحفز عليهما غير الحاجة . والغنى المترف يحسب أن يديه لم تخلقا إلا لصرف النقود وقطف الحدود ورفع القدح ؛ فثله كمثل السبع من الوحش والطير : يهلك ولا ينتج ، ويدمر ولا يعمر ؛ فكان من صلاح الأرض أن يقل نسله كما يقل نسل الأسود والنمور ، ويكثر نسل الفقير كما يكثر نسل الضأن والبقر . ولكن حكمة الله ضاعت في غفلة الناس ، فبغى الغنى على الفقير حتى أصبح — وهو مصدر الإنتاج في النسل والحراث — مفدوحاً بحمله فلا ينهض ، ومكدوداً بعمله فلا يستطيع . ثم نبا كوخه الجديب الضيق عن بنيه فدرجوا في أفاريز الشوارع وزوايا الطرق وعليهم هلاهل من أخلاق الثياب تهتكت على الصدور والجوانب . يستندون الأكف بالسؤال ، أو يستدرّون الجيوب بالسرقة ، أو يأكلون ما طرح الناس من فضلات الطعام في المزابل . هؤلاء الأطفال المشردون هم الذين تراه يطفون طول النهار وثلثي الليل على القهوات والحانات ، كما تطوف الكلاب والهررة على دكاكين الجزارة ومطاعم العامة ، وهمهم أن يصيبوا ما يسد الرمق ويمسك الحياة . فإذا أغلقت المقاهي وجمعت المدينة تساقطوا من السغوب واللغوب على العتبات وفي الحنايا

وتحت الجدر ، فيقضون آخر الليل يتداخل بعضهم في بعض كما تتداخل خراف
القطيع إذا عصفت الريح أو قرس البرد

هؤلاء الأطفال المهملون هم الذين يستغل ذكاءهم تجار الرذيلة وسماسرة
الجريمة ، يسلطونهم على القلوب البريئة والجيوب الآمنة ، فيسلبونها العفة والمال ،
ثم لا يكون نصيبهم من هذه الثمار المحرمة إلا الخوف والجوع والأذى والمطاردة .



يفرون الصبيان بالشر ، ويوزعون الخدر في السر ، ويسرقون السابلة بالحيلة ،
ويستجذون الجاوس بالرحمة ، ويجمعون الأعقاب من الطارق ، وكل أولئك
لطغمة من المتعطلين يتعقبونهم بعين النسر من بعيد ؛ حتى إذا أخذوا
ما معهم تركوهم لأهوال الليل ؛ فإذا خشوا منهم نفاراً أو فراراً كدسوهم في
أقباء المنازل المهجورة ، فلا تدركهم عين الشرطة ، ولا تنالهم رعاية البر .
ولا أدري كيف سالت على قلبي كلمة البر هنا ، وهي لو كانت في لغة

الناس لما كان كل هذا !

إن سادتنا المترفين ليأنفون أن تقع أعينهم على هذا القبح ، وتدنو أثوابهم من هذا القذر ، فهم ينهرونهم كما ينهرون الكلاب ، ويذبونهم كما يذبون الذباب ، ويفورون غضباً على الحكومة أن تسمح لهذه الحشرات أن تدب على الطرق المغسولة ، أو تحوم حول الموائد المزدانة !

شق الله هذه الأشداق المنفوخة يا سادة ! إن هؤلاء الأطفال الذين يحملون العلب بالأصباغ ، أذكى من أطفالكم الذين يحملون القماطر بالكتب ؛ وإن عباقرة العالم في الأدب والفن والعلم والحكم ، قد ولدوا كهؤلاء في مهاد اليتيم والعُدم ، ونشأوا في حجور الألم والفاقة ، فاضطرهم الشقاء الباكر أن يعرفوا أن لهم أذهاناً للتفكير ، وعقولا للتدبير ، وأيدياً للعمل ؛ ففكروا ثم قدرُوا ثم عملوا ، فكان من أثرهم هذه الدنيا ، ومن سيرهم هذا التقدم . أما أبناءكم أبناء الدعة والسعة والرفاهة فانتفى عنهم العمل لقلة الحاجة ، وضعفت فيهم أداته لكثرة البطالة ، فأصبح المخ مستوياً أملس كالصحيفة ، والجسم صقيلاً أملط كالديباجة ، واليد رقيقة رفاقة كالزنبقة . فهم تماثيل ناطقة للغباء الأنيق ، تطعم وتنعم وتلهو على حساب الفقير الذي يعمل ولا يأكل ، والأجير الذي يشقى ولا ينال !

بالله ما ذنب هذا الطفل الشريد الذي تتحامون منه وتتفادون مرآه ، إذا كان القدر قد اختار له ذلك الأب البانس الذي يتزوج ولا يعاشر ، ثم يلد ولا يعول ؟ هل من طبيعة الحي أن يلقى أفلاذ كبده مخناراً في مدارج الطرق تطأها الأقدام وتتخيفها المسكاره ؟ هل تستطيعون أن تجدوا لذلك إذا وقع علة غير الفقر الذي يحمل الأب في أزمات القحط والحرب على بيع بنيه

وأكل بناته ؟ فإذا كنتم تشفقون على نعيم عيشكم من رؤية البؤس ،
وتخشون على جمال حياتكم دمامة الفقر ، وتضمنون بسلام وطنكم
على أدواء التشرّد ، فاقتموا على الفقر مكانه في أكوام الأيامي وأعشاش
العجزة ، ثم قيدوه بالإحسان المنظم في المدارس ، والصدقة الجارية في
الملاجئ ، تجدوا بعدئذ أن الدنيا جميلة في كل عين ، والحياة بهيجة في
كل قلب ، وتشعروا أن روحاً عامة قد وصلت بين جميع الأرواح فأصبح
الشعب كله جسماً حياً متآلفاً متكاتفاً تتغذى خليّاته بدم واحد ، وتتسائر
نياته إلى غاية واحدة !



غنى فقير...!

[٢٧ فبراير سنة ١٩٣٩]

قد يكون مع بعض الفقر عزاء ورجاء وسكينة ؛ ولكن فقر هذا الغنى البائس الذى سأقص عليك نبأه ألم لا يهاون ، وهم لا يهادن ، وحى لا تُقْلِع^(١) سأسوق إليك خبر هذا المسكين بقلمى لا بقلمه ، فإن الرسالة التى كتبها إلى كلمات كحسرات النادم لا تتصل ، ومقاطع كأنات المحتضر لا تبين . على أننى سأحاول ترجمتها لك ترجمة الشعور للشعور ، لا ترجمة اللفظ للفظ ، لترى كيف يشقى المرء بخطأ نفسه أكثر مما يشقى بخطأ غيره

قال بعد أن سلم وعظم وشكر :

« قرأت وأنا فى وحدتى السامة وعلتى القاتلة ما كتبت من مآسى الحياة فى الرسالة ، فراغنى أن يبلغ البؤس ببعض النفوس إلى هذا الحد ، وفى أرض الله رزق لا ينضب ، وفى يد الناس مال لا ينفد !

ولا أ كذبُ الله لم أظن إلى معنى الحرمان والإحسان إلا بعد أن نيفت على الستين وأقعدنى الكساح ، وسلبنى حريقى وثروتى وغبطتى من جعلت حياتى له ، ووضعت أملى فيه

أنا أملك ربع مليون من حر المال وخالص الذهب . وكان يخيّل إلى قبل أن ينكشف الغطاء عن العين أنى أسبح فى بحر أحمر لا أدرى أ كانت حمرة من الذهب أم من الدم أم من الدموع ، فإنى كنت مصمت القلب لا يختلج

(١) أقلعت الحمى عن فلان : تركته

فيه شعور ولا ترف عليه عاطفة . فلما بلغت الشاطئ^١ لأستجم وجدتنى على ساحل الحياة ، هنا الموت الراصد ، وهنا المرض المٌثبِت^(١) ، وهنا الضمير المعذب ، وهنا الوارث الحاقد الذى دفننى وأنا أشعر ، وورثنى وأنا أنظر ، وحرمنى وأنا أريد . فإذا كان فى بؤس الفقراء ما يستدرُّ ماء العيون ، فإن فى ذل الأغنياء ما يذيب شِغاف الأفتدة !

أتدرى كيف جمعت هذا المال يا سيدى ؟ جمعته بالسعى الدائب ، والتدبير المعجز ، والربا الفاحش ، والشح الدنيء ، والتقتير المهلك ؛ ثم أمات الله فى نفسى نوازع الأبوة والقربة والإنسانية فلم تبضَّ يدي فى سبيل شىء من ذلك ، فَمَا المال واتسع وامتد حتى صرفنى عن الناس وشغلني عن العالم . ثم حسبتنى بهذا الثراء الضخم أستطيع أن أشتري السعادة والسيادة والإيمان والجنة ، فإذا بي واحسرتاه أملك مفاتيح قارون ولا أملك عصا موسى !

كان رأس مالى جنهيات معدودات ادخرتها من نفقاتى وأنا طالب بالأزهر ، فلما عدت إلى بلدى استثمرتها فى الربا والتجارة ، فكنت أقرض الزراع المأزومين والعمال المعوزين والتواجر الأرامل بربا خمسة قروش فى الشهر للجنهيه الواحد . ثم اتخذتُ من فناء بيتي قُنًا للدواجن ، ومن سطحه مزرعة للبقول ؛ فكنت أبيع الدجاج والأرانب من تحته ، والفجل والكراث من فوقه ؛ وألححت على نفسى بكبت الشهوة وقتل الرغبة إذا اعتدنا على المال ، حتى كنت أرى الفاكهة عند الفاكهانى فأقترز ، وأبصر اللحم عند القصاب فأهْوَع^(٢) ، ولكنى إذا لمحتهما فى يد إنسان تبعتهما نفسى وتحلَّب عليهما فى . ثم اقتنيت العقار والضياع ؛ أكثرها بَغْلَق^(٣) الرهان وأقلها بالشراء ؛ ووقت عليها أحسن القيام بالرعاية

(١) المرض المٌثبِت هو الذى يمنع من الحركة (٢) أهْوَع : أقى

(٣) غلق الرهن إذا لم يتدر الرهن على اقتكاهه فى الوقت المشروط

والجباية والتوفير حتى غدت غلتها سيلاً لا ينقطع عن الأهرام^(١) والخزائن .
ثم فرضت نفقة أسرتى من الطعام والإدام على مستأجرى المزارع والدكاكين
يؤدونها فوق الأجرة يوماً بيوم ؛ واقتصرت فى غذائى على الأبيضين : الماء
والثريد ، وفى كسوتى على جلابيب من القطن للبيت والغيط ، وبذلة من الصوف
للاحتفال والسفر . ثم وقع فى نفسى أن حماية هذه الثروة العريضة لا بد لها
من لقب (بك) فاشتريته أيام كانوا يبيعون الألقاب ، بقبضة من الذهب ؛
ثم شيدت قصرأ وبنيت دوأراً وجعلت فى رأسه دائرة ، فاتسع النفوذ وامتد
السلطان ، وصرت آمر ولا أرجو ، وأغتصب ولا أختلس . ورأيت الناس
يلقونى بالإجلال والهيبة لفخامة اللقب وضخامة الثروة ، فازدادت نفسى شراهة
ويدى كزازة . وأفرط على الغنى فغطى على بصيرتى وبصرى ، فلم أعرف
أن لى ديناً له حرمة ، وزوجة لها حق ، وأولاداً لهم رعاية . وعشت لنفسى
بل لمالى ، أقضى النهار له ، وأمهر الليل عليه ، حتى كرهتنى أسرتى ، وحقرتنى
عشيرتى ، وسئمتنى حياتى . وأصبت بمرض عظام برى عظام ساقى ونخذي فلم
أستطع المشى ولا النهوض ؛ فاستولى ولدى البكر على مفاتيح السكنوز وأضفى على
نفسه وزوجه وأمه وأخواته الذهب والحرير والنعيم والأبهة ، وتركونى سطيحة
فى حجرة منعزلة لا يدخلها على إلا الخادم بالماء والثريد والقهوة . ولا أدرى
لماذا استعرت فى نفسى اليوم شهوة الأكل ورغبة المتاع ؛ فأنا أشتهى كل
شئ ، وأبتغى كل معنى ؛ ثم أنظر فى يدى الجماعة الكسوب فإذا هى معروقة
كيد المسلول ، فارغة كراحة السائل ؛ وأدور بعينى فى الحجرة الموحشة فأرى
أطيان الذين فجعتهم فى أموالهم وآمالهم تحفق على الجدران ساهمة حزينة ،

فأتذكر كم مدين أغرقت ، وكم بيت أغلقت ، وكم قلب سحقته ، فتنهل مدامعى
انهلال القطر على خدى الغائر الشاحب ؛ وأتمنى لو تعود قدرتى على ثروتى فأحص
خطاياى بإنفاقها كلها فى سبيل الله . ولكن هيهات هيهات لما أرجو ! لم يبق لى
منها إلا حريق القلب فى الدنيا ، وحريق الجسم فى الآخرة ! حتى الدواء
لا أناله ، وحتى الكفن لا أرجوه ! وكأنا ألمات الله نصفى الساعى وأبقى على
نصفى الشاعر لأدرك بعينى وفكرى وخيالى مضى الألم الذى يحسه المظلوم
يغتصب ولا يستطيع أن يدفع ، والمحروم يتشهى ولا يستطيع أن يجد ، والمهموم
يتلظى ولا يملك أن يموت . »

ثم يلى ذلك شكوى ضارعة من زوجة الفارك^(١) وابنه القاسى وصهره
المتعجرف لا تتسع لها الصفحة !

سيدى البك ! إن حالك لا تغنى فيها دمة تذرف ولا كلمة تقال .
أدع الله معى أن يتغمد خطاياك بالعفو ، ويقطع بلاياك بالموت . وإن كنت
فى حياتك للضعيف شقاء وللأهل حسرة ، فإنك فى موتك للفقير عزاء
وللغنى عبرة !

(١) امرأة فارك : تبغض زوجها



مَنْطِقُ الْغَنَى

[٦ مارس ١٩٣٩]

لقيت أول أمس على مقهى « أتينيوس » بالأسكندرية رجلاً من نابهى النواب أعرفه معرفة لا تقرب ولا تبعد . هذا الرجل ينزع بطبعه منزع الارستقراطيين فى نمط العيش وأسلوب التفكير ورونق المظهر ؛ فهو يتجمل بالزينة ، ويتنبل فى الكلام ، ولا ينفك يعلك ألفاظ المثرين المترفين كالبنك والبرصة والسيارة والخيول والسباق والسهرة والحفلات والملاهى حتى لتظنه المرجع الحجة فى أولئك جميعاً . ونباهة هذا النائب لم تأت عن طريق الفطنة أو الخبرة أو الكياسة ، وإنما أتته عن طريق التهويش والتهريج والسياسة ، فهو فى مجلس النواب جزء من كرسيه لا يتحرك ولا ينبس ؛ ولكنه فى الأمور الحزبية والانتخابية ولأج خراج يجذب الزعماء بالمآدب الصاخبة ، ويخلب الناخبين بالوعود الكاذبة ، ويدرج بالدعوى والدعاية من قهوة إلى قهوة قال لى بمد أن تبجح طويلاً بقوة أثره فى توجيه المجلس وتسفيه المعارضة وتنظيم النادى وتقويم الحكومة :

— مالك وللا غنياء توغر عليهم صدور الصناع والزراع والخدم ؟

— عجيب ! وهل تقرأ الرسالة ؟

— إنما يقرأها ابني وابنتي ؛ وهما متأثران بها ومشايعان لها ، ولا يزالان

يجادلاننى فيما تكتب وتطلب حتى أترك لهما الدار . فهل تريد أن يكون الناس

كلهم سواء فى الثروة ، وليسوا كما تعلم سواء فى الذكاء والقوة ؟

— يا سيدي ما اعتقدنا ذلك ولا كتبناه . فإننا نؤمن بالغنى والفقر كما نؤمن بالقضاء والقدر . والتفاوت في الطبع والكفاية والحيلة والوسيلة مبدأ مقرر في الطبيعة ، ونظام مسلم في الدين ؛ ولكننا نحاول أن نذكر الأغنياء أن الله الذى خلقهم وخلق الفقراء قد جعل مُجْمَعَةً ما بينهم وبينهم قائمة على أساس من المودة والرحمة يكفل المحالصة ويضمن السلامة . فإذا تعهدوا هذه الصلة الإلهية بالبر فمنح القادر العاجز روحاً^(١) من قواه ، ونفخ الواجد الفاقد قليلاً من جدواه ، سارت القافلة الإنسانية في طريقها إلى السكال الممكن غير ظلماء ولا وانية . وإذا أردنا المساواة فإنما نريدها في الحق والواجب ، وإذا ذكرنا المشاركة فإنما نذكرها في حدود الإحسان والزكاة .

— الإحسان يغرى بالكسل ويعين على بقاء الفاسد . والفقر في أكثر أمره عليل الجسم أو العقل ؛ فلم لا يكون من الخير أن يُترك للحرمان حتى يذبل ويسقط ؟

— إذا استطعت أن تنفذ هذا الرأي في أسرتك الخاصة ، استطعنا أن ننفذه في أسرتنا العامة . فهل في مقدورك أن تترك ابنك المملول الذى لا يبرأ ، وأخاك الخجول الذى لا يعى ، حتى تعصف بهما المنون كما تعصف ريح الخريف بالورق الجفيف ؟

— ما أظن القلب يطيع العقل في ذلك — ومن قال لك أن العقل ينحولك حق الله على خلقه ؟ إن للفقر حق الحياة ، وليس لك عليه حق الموت . والله الذى خلق الكون خلق الفساد ، وجعل لكل منهما قوانين يجرى عليها في الطبيعة . وستنال أنت على الرغم من قوتك

وغناك عوامل الذوى والبلى ، فهل تقبل من ذوى رحمك ووارثى مالك أن يدعوك فريسة الهرم والمرض ، كما يدع القطيع الحمار المحموم فى القفر الجديب ؟

رأى صاحبي أن هناك مدارك من فهم الحياة استعجمت على ذهنه الشارد فغمغم بعض الجواب وبين بعضه الآخر حين قال :

— ... ولكننى أعلم أن الزكاة فى أوربا ليست مشروعة ولا مجموعة ، ومع ذلك تجد الفقر محمولاً والحياة آمنة . فكل إنسان يعمل ، وكل حى يعيش — لا يفرنك يا سيدى ما تعلم من ظواهر الحياة الأوربية ، فإن مدنيتهما طلاء على صدوع ، وكبرياء على خضوع . ولولا قيام الأديرة بجمع الصدقة وتنظيم الإحسان ، ونهوض الحكومات لحماية العجز وتوفير العمل ، لرأيت البؤس كرمز الموت هيكلاً بآدى العظام لا تستره أثواب ولا تحجبه أبواب — وما قولك فى أمريكا ؟ أليست المسافة فيها بين الفقراء والأغنياء ، كالمسافة بين الأرض والسماء ؟ ومع ذلك لا تجد بين هؤلاء وهؤلاء حسداً ولا ضغينة

— عفواً يا صاحب العزة ! لقد عرفت القياس وأنكرت الفارق . إن أكثر المنافع فى أمريكا من فضل الغنى ؛ فكيف يبطن الفقير له الغل وهو يتعلم فى مدرسته طفلاً ، ويعمل فى مصنعه رجلاً ، ويتداوى فى مستشفى مريضاً ، ويأوى إلى ملجأه شيخاً ؟ إن صاحب الملايين فى الدنيا الجديدة هو مثل الإنسان الأعلى : أثرى بالكد والإيمان والكفاية ، ودبر ثراه على قواعد الوطنية والإنسانية والدين ، فكان حرباً على الجهل والبؤس والشر ، وعاملاً للسلام والوئام والمحبة . أما أغنيائنا فمثال الطمع الجرىء والشح الدنيء والصلف العاتى :

أثروا بالإرث أو بالحرص أو بالحظ أو بالحيلة ؛ ثم كدروا صفو الحياة على
 الفقير ، فهم يزاحمونه على المجانية في المدارس ، ويغلبونه على الوظائف في
 الدواوين ، ويدوسونه بسيارتهم في الشوارع ، ويسلبونه بطاعتهم في المزارع ،
 ويصدونه عن البرلمان حتى لا يكون لغير أقوالهم سميع ، ولا يصدر بغير إرادتهم
 تشريع

ونظر صاحبي في ساعته ذات السوار ، ونظرت أنا إلى البحر الأبيض فإذا
 هو يemor ويفور ، والصيادون المساكين يكافحون العاصفة ليصيدوا لهذا الغنى
 المبطلان لونا من الطعام تكمل به مائدته الموقرة الحافلة !
 ثم افترقنا وكل منا على رأيه !



رسالة الأزهري

[٢٧ مارس سنة ١٩٣٩]

دار الرسالة — والفضل لله — ملتي مفكرى الإسلام العرب وغير العرب ،
من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، يزورونها أول ما يزورون من معاهد الثقافة
بالقاهرة ، فنتناقل الحديث ونتذاكر الرأى فى موقف المسلمين اليوم من قراع
المذاهب ، وصراع القوى ، واهتلاك الدول فى التسليح بالعلم والدعاية والعدة ،
واحتفاز الأمم فى التقوى بالتعلم والعمل والإنتاج ، فنتبين من وراء الحديث أن
الإسلام فى غير بلاد العرب خِلَطَ عجيب من العقيدة السالفة ، والصوفية الزائفة ،
والأساطير الموروثة ، والتفاسير الخاطئة ؛ ثم استحال هذا الخلط على تراخى الزمن
واقطاع الصلة واستعجام اللسان إلى مُرْقد يعوق عن السعى ، ويمنع من النظر ،
ويصد عن الفكر ، ويذهل شاربیه عن حركة الوجود وسير الفلك . فالمسلمون
فى ألبانيا ويوغوسلافيا من بلاد المغرب ، وفى الصين وجزائر الهند من بلاد
المشرق ، يتميزون عن مواطنهم بزهادة كالبلادة ، وجهالة كال موت ، وتوكل
كالتواكل ؛ ويتوهمون أن الإسلام ليس من شأنه الدنيا ، وأن المسلم ليس من
همه المادة ، وأن ما هم فيه من رَنَقِ العقيدة وظلام الفكر وخدر الشعور إنما هو
روح الدين ورضا الله وطريق الجنة . ثم لا يعومون أن يجدوا مصداقاً لما يزعمون
فما يقرأون من الأحاديث الموضوعة والأخبار المصنوعة والأقوال الملفقة . فإن من
محن الإسلام حين ضعف أهله وزال سلطانه ، أن امتزجت به كل نحلة ، وسرت
إليه كل علة ، وتراعت فيه كل حالة ؛ فكل امرئٌ واجد فيه ما يلائم استعداداه

ويناسب فهمه . وإذا كان ذلك حاصلًا بين العرب وهم أصحاب الدين وأهل اللغة ، فما ظنك بغيرهم ممن بلغتهم الدعوة مترجمة عن طريق الفرس أو عن طريق الترك بالتجارة أو بالفتح ؟

لقد عصفت بالعالم كله عواصف هوجٌ من السياسة والاقتصاد فلم تدع فيه ساكنًا إلا حركته ، ولا باليًا إلا جرفته ؛ وكان لا بد للعالم الإسلامي أن يهبط على دوى هذه الزعازع ، فهض شبابُه يستعدون بعدة الناس ، ويتجهزون بجهاز العصر ؛ ولكن شيوخه الوانين أخذوا يعوّقونهم عن الأهمية والسعي بكلام ينسبونَه إلى الله والله منه برىء . ثم كان من أثر تلك الهبة العامة ، وهذه الحالة الخاصة ، أن نفر من كل قطر من أقطار الأرض طائفةً من شباب الإسلام إلى مصر ليتفقهوا في الدين ويتضلّعوا من اللغة ، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ، فيكونوا شهادة صادقة لحقيقة الإسلام ، وقدوة صالحة لنهضة أهله

ومصر اليوم وقبل اليوم هي بفضل الأزهر موئل اللغة ومعقل الدين ومشرق الهداية . والأزهر على الرغم مما يؤخذ عليه هو بفضل ما مكن الله له في التاريخ ، وهياً له من الموضع ، وأتاح له من المال ، أقدر على تبليغ الرسالة العظمى ، وتوجيه الأمة الكبرى ، وتصحيح العقيدة العليا ، إذا صدّق رجاله الجهاد ، وأخلصوا النية ، وأحسنوا العمل ، وذكروا أنهم جنود الله يرمى بهم العدو في كل وقت وفي كل أرض وفي أى صورة ، فيعيشون للموت كالجند ، ويعملون للحياة كالقادة ، ويعزفون عن الدنيا كالرسل . والإمام المراغى هو في رأينا خير من يضطلع بما يفهم المتفقون من رسالة الأزهر إذا لم ينله ما نال الأستاذ محمد عبده من اضطراب الريح حول مصباحه ، وانبثاث العوائق الخازلة أمام إصلاحه ؛

فإنه من أفهم الناس لمعنى الدين وروح العصر ومقتضى الحال .

ورسالة الأزهر التى يريد بها الله ويرجوها الناس هى :

١ — تنقية الإسلام من العقائد الواغلة والمذاهب الباطلة والعادات الدخيلة . وسبيل ذلك أن يفسَّر القرآن على هدى الرواية الصحيحة وفى ضوء العلم الحديث ، تفسيراً يجمع بين ما صح من أقوال السلف ، وما صلح من آراء الخلف ؛ ثم يؤلَّف فى الحديث كتاب جامع لما لا ريب فيه من الكتب الصحاح ، ويستعان على شرحه وتبويبه بعلوم التاريخ والاجتماع والأخلاق والفلسفة ؛ ثم يصنَّف فى الفقه كتاب شامل على المذاهب الصحيحة يوضع متنه مواد كالقانون ، ثم يشرح شرحاً فنياً يستوعب أصوله ، ويستقصى فروعه ، فى غير حشو ولا استطراد ولا تعمية . ثم تكون هذه الكتب الثلاثة المطولة مادة الدراسة ومرجع القضاء ومصدر الفتوى ؛ فتقرر فى الأزهر ، وتنشر فى الجمهور ، وتترجم إلى أكثر لغات الشرق وأشهر لغات الغرب ؛ ثم ترسل إلى كل بلد يعرف الإسلام أو يريد أن يعرفه . أما ما عدا ذلك من الكتب ، فما كان صحيحاً بقى فى المكاتب بقاء الآثار فى المتاحف ، يرجع إليه الإخصائى والمؤرخ ؛ وما كان زائفاً صنع به ما صنع عثمان بكل مصحف غير مصحفه .

٢ — إعداد الوعاظ والدعاة من أهل اللسن والخلق والورع ، وإمدادهم بالثقافة الحديثة واللغات الحية ، وإيفادهم إلى الأمم الإسلامية البعيدة عن مهبط الوحي وموطن العروبة . ويدخل فى ذلك العناية اليقظة بالبعثات الإسلامية فى الأزهر ، فإنهم أقدر من غيرهم على إرشاد قومهم باللغة والقذوة والنموذ

٣ — جعل اللغة العربية لغة المسلمين كافة ، فيكون لكل مسلم فى الأرض

لغتان : لغة لوطنه الأصغر ، ولغة لوطنه الأكبر . والوسيلة أن تحمل المشيخة

أقطاب الرأي في البلاد الإسلامية ، بالمفاوضة أو بالائتمار ، على أن يجعلوا
تعلم اللغة العربية والتكلم بها إجبارياً في مراحل التعليم المختلفة ، وأن تتكفل
بإرسال المعلمين من المتخصصين في الأزهر ؛ فإن في شيوع العربية بين المسلمين
تمكيناً لفهم الدين وتثبيتاً لمعنى الأخوة .

ذلك ما يجب أن يقوم به الأزهر ؛ وذلك ما يضمن للإسلام الجِدَّة ،
ويكفل للمسلمين الوحدة ، ويجعل للرأي الحمدي سلطاناً يُخشى في الحرب
و يُرجى في السلام



الملك غازى

[١٠ ابريل سنة ١٩٣٩]



فى ذمة الله زهرة فواحة من
روضة الحسين ، ذوت فى ازدهار
الربيع وغيدان الصبي وفوران
الأملى ، ثم أسقطها الجفاف والرّى
موفور والخصب شامل !

كان الملك غازى - تغمد الله
برضوانه - مهوى قلوب العرب
ومعقد رجاء العراق ؛ لأن شبابه
يرافق شباب النهضة ، وطموحه
يجارى طموح العروبة ؛ ولأنه من
بعدُ وريث فيصل باني العروش

وقائد الثورة . وكانت تبشير الصباح المسفر تنبئ عن الضحى الجميل والنهار
الصحو ، لولا أن للقدر أحكاماً لا تجرى على أقيسة العقول ولا تسير على
زغائب الأنفس

عرفت خليفة فيصل وهو ولى عهد ، ولم أنل شرف لقائه رهو ملك ؛ لأننى
تركى العراق وأبوه لا يزال على عرش الرشيد يدبر الأمر بذكاء على ودهاء

معاوية . وكانت جلساتها الليلية في حديقة البلاط المزهرة المقمرة ، حيناً في حضرة الملك وحيناً في حضرة خاله ، تكشف لى قليلاً قليلاً عن مصاير هذه النفس الرغبية الطيِّعة التي نبتت في هجير مكة وأزهرت في ظلال بغداد ، فكنت لا أنفك منها أمام طبيعتين مختلفتين : طبيعة تتأثر بحاشيته فتسامح وتساير وتمرح ، وطبيعة تتأثر بأبيه فتصعب وتسمو وتطمح . ولكن المقرر في الأذهان كان أن الشبل سينتهي بالضرورة إلى طبيعة الأسد مهما أثر فيه طبع الناس ونال منه قفص الحديقة

* * *

قل في الشباب الملوكي كان كغازي في سماحة نفسه ، سجاحة خلقه . ونبل شعوره وسمو تواضعه وظرف شمائله . وتلك هي الصفات الهاشمية التي تنتقل في بني الحسين بالإرث ، وتقوى إذا ساعدتها القدوة وساعفتها البيئة . ولكن ما ورثه هو عن أبيه صقر قریش من الجناح الزفَّاف^(١) ، والبصر النفاذ ، واللُب الخفيف ، كان يتيقظ رويداً رويداً مع الزمن والخبرة ؛ فلم يكن يعدُّ قد توثقت آراؤه^(٢) للاضطلاع بالعبء الفادح الذي أُلقي على ظهره فجأة . والعبء الذي كان يحمله فيحصل من أمور العراق هو العبء الذي قسَّمه الدستور على سلطات الدولة الثلاث فجُمعه هو على عاتقه . من أجل ذلك لم يضع غازي يده من سياسة العراق العليا موضع يد أبيه للتعديل والموازنة ، وإنما تركها في أيدي الزعماء تجري سفيتها على مشيئة الريح ، تضطرب حين تشور ، وتستقر حين تسكن . ومن أجل ذلك امتحن الله الفراتين بالقوة الغشوم ، فحكم الجيش ، واستبد الطيش ، واضطرب

(١) الزفَّاف : السريع (٢) الآراب : جمع إرب وهو العضو

العيش، وسطت الأيدي المجرمة على عباقر الأمة^(١). ومن أجل ذلك لا نتوقع لسياسة العراق بعد غازي ما توقعه لها الناس بمد فيصل. والغالب في الظن أنها ستجري في عهد فيصل الثاني كما كانت تجري في عهد فيصل الأول. فإن نوري السعيد الذي يقبض على سكانها اليوم هو تلميذ أبي غازي: وضعا معاً سياسة العراق الحديث على أساس من المرونة اللبقة، ثم ساساه بنوع من الدكتاتورية المعتدلة التي تسير مع النزاهة وتقف عند حدود العدل. ولعل هذه السياسة الفيصلية هي التي تقتضيها الحال اليوم بعد ما فتت في أعضاء الشعب توزع الرأي وتقلب الهوى وتوقع الخصومة

إن مصرع الملك الشاب على هذه الصورة الأليمة فاجعة تدمي العيون وترمض الجوانح. وإن العالم العربي كله ليشاطر العراق الحزين أساه على سيد شبابه ومناط أمله. ولكن للدواهي النكر صدمات تهز الشعور وتوقظ الفطنة، فتنبه على قدر ما تذهل، وتوجه على أثر ما تضل. والشعب العراقي من الشعوب الكريمة الحرة التي تصقلها الخطوب وتلمها الأحداث فتقف بفطرتها السليمة أمام الخطر هوي واحداً ورأياً جميعاً وعزيمة صادقة. وسيرى الذين يتخيّلون ويتقولون أن إرادته الصارمة الحازمة ستثبت لدواعي الشقاق ونواجم البغى، وتثبت أن عصر فيصل الثاني سيكون عصره الذهبي الثاني، فيشتد بنيانه ويمتد سلطانه ويتسع عمرانه، وتهب من جوف الهلال الخصب^(٢) عبقریات غفت في أحضان الخلود ولكنها لم تمت!

في ذمة الله زهرة فواحة من أرومة الحسين ومن شجرة فيصل ، سقاها النيل
 الخالص ، وغذاها الكرم المحض ، وتعهدا الحفاظ الحر ؛ حتى إذا أوشكت
 الزهرة أن تخرج الثمرة المرجوة قصفها الموت المفاجئ ، فكان ذُوِيهَا حسرة
 في نفس شعب ، وقرحة في قلب وطن !

رد الله ثرى غازى بالصيب الهتون من رحمته ، وشعب قلب العراق بالصبر
 الجميل عن مصيبته ، وجعل عهد المليك الطفل على العروبة والإسلام عهد سلام
 ووثام وبركة !



نفخة الصّول

[١٧ إبريل ١٩٣٩]



بعد ثلاثة وثلاثين قرناً من
تاريخ مصر الخالدة نفخ جندي
في بوق^(١) فرعونها الشاب توت
عنخ آمون ، فدوى صوته الندى^(٢)
في أرجاء العالم والعالم يمور موران

البحر ، ويفور فوران البركان ، وتتدافع شعوبه المكلوبة المكروبة عمياناً وصماً
إلى مهاوى الموت ! فليت شعري ما الذي أخطر ببال المتحف والإذاعة هذا
الخطار الغريب في هذا الحين وفي هذه الحالة ؟ أهو القدر الإلهي الراصد الذي
يقول كلمته في كل حادث ، ويعلن مشيئته في كل مشكل ؟ أم هو الروح
المصري الخالد الذي بدأ حضارة العالم ، وأنشأ معرفة الناس ، ولا يزال يوحى
بكل فكر ويشارك في كل أمر ؟

من كان يقع في حساباته من فراعين النيل ودهاقين الوادي أن بوقهم الذي

(١) من مخلفات الملك توت عنخ آمون التي كشفت في سنة ١٩٢٢ بوقان أحدهما
للحرب وهو من الفضة ، والآخر للسلم وهو من النحاس . وقد عن لادارتي المتحف المصري
ومحطة الاذاعة اللاسلكية المصرية أن ينفخ فيهما أحد الجنود النداء الحربي لبذاع على العالم .
وقد تم ذلك في الساعة السابعة والثلاث من مساء يوم الجمعة الماضي فكان حادثاً فذاً في التاريخ
الانساني كله (٢) الصوت الندي : البعيد

كان يدعو إلى الطعن والضرب ، ويقضى في السلم والحرب ، يحتفظ به
 الدهر الطحون ثلاثة آلاف وثلثمائة عام ليُبلغ به اليوم أذن الدنيا جمعاء صوت
 مصر الذي لا يخفت ، ومجد مصر الذي لا يبيد ؟

ما كان أروع هذا الصوت الفضى القوى وهو ينبعث من جوف الماضى
 العميق السحيق ، وينتشر جهيراً جباراً على أمواج الأثير ، فينصت الفلك ،
 ويدهش العالم ، ويتذكر التاريخ ، ويغوص الخيال الشاعر فى خضم القرون
 ويطفو !

أيها النافخ فى صور إسرافيل ! أهى الراجفة^(١) وانصعاق الأحياء ،
 وانشقاق السماء ، وزلزلة الأرضين ، واندكاك الجبال ، وفناء العالم ؟ أم هى الرادفة
 وانبعاث الأموات ، وميزان الحسنات والسيئات ، ثم استئناف الحياة الباقية
 الصافية التى تموت فيها المطامع ، وتفى الأحقاد ، ويعيش بنو آدم فى ظلال الله
 إخواناً على سرر الحب ، وضيافاً على موائد الجنة ؟

لتكن نفختك يا إسرافيل ما شاء الله أن تكون ، فإنها لمصر القاعدة
 المتخلفة صيحة نشور ونذير أهبة ! فقد درجت على هامها القرون وهى مطمئنة
 إلى الخمول ، راضية بالعجز ، يستغل خيرها الواغل ، ويستقل بحمايتها المغير ، حتى
 خشن على أيدينا السيف ، وثقل على ظهورنا العتاد ، وجثم على رجولتنا الجبن ،
 وأصبحنا إذا طلبتنا القرعة نهرب ، وإذا انتخبتنا الجندية نبكى ، وإذا سمعنا

(١) الراجفة هى النفخة الأولى فى الصور وهى للعدم ، والرادفة هى النفخة الثانية فيه

وهى للوجود . قاله الله تعالى : « يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة »

بالحرب من بعيد يضطرب البال من الهم ويطير الفؤاد من الفزع . ثم كان من أثر هذه الحياة السلمية الوادعة ، وهذه التربية المدرسية البليدة ، أن فشا بيننا داء العجائز وهو الكلام ، وداء الضرائر وهو الحسد ، فأفواها الثرثرة لا تفر عن قرض الأعراض والعلائق ، وعيوننا الطاححة لا تغمض عن حسد الأرزاق والمواهب ، حتى اتسعت الأحداق وطالت الألسن ، بمقدار ما ضاقت الأخلاق وقصرت الأذرع . فلو كنا نشأنا على الجندية ، وتمرسنا بالحروب ، وارتضنا في الشدائد ، لكثرت فينا رجال القيادة والنظام ، وقل بيننا أهل السياسة والكلام ، وكان عندنا من الشركات والجمعيات والمصانع والجامع أضعاف ما عندنا من المؤتمرات والأحزاب والمقاهي والصحف ...

هذه هي القارعة التي تهتك حجب الأسماع وأغشية الأبصار وغلف الأئدة . فاليوم لا كسل ولا جدل ولا اتكال ولا استكانة . لقد سلكتنا متن الحياة بعد أن كنا نسير على الهامش ، وخضنا عباب الأمر بعد أن كنا نعيش على الشاطئ ، وحملنا تكاليف مصر العزيزة بعد أن كنا نلقيها من الخور والهون على الأكتاف الغريبة كتفًا بعد كتف

لشد ما يشرق في تاريخ النيل ذلك اليوم الذي يزحم فيه البحر والبر والجو أسطوله الماخِر وأسطوله الطائر وجيشه الجرار ، ثم يستقتل في سبيله بنوه البواسل الميامين في الحصون والخطوط والخنادق ، ليكون لثراه الحبيب من دمائهم رى ، ومن أشلاء عدوهم سماء ، فيخصب فيه جذب العقول ويزكوبه غمراس البطولة !

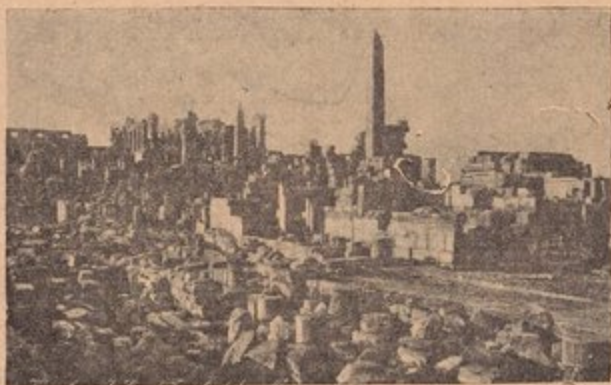
مرحباً بالنار إذا كانت تذيب غش الأخلاق وزيف العزائم ! وأهلاً بالحديد إذا كان يشذب ميت الأصول وذوى الأفرع ! ونِعْمًا يبتلينا به الله

إذا كان من ورائه جمعة من هذه الفرقة وحياة من هذا الموت !

لقد استنفرنا الماضي ببوق فرعون ، واستنفرنا الحاضر بوعيد نيرون^(١) ، فلم
يبق إلا أن نميط اللثام عن الوجه الحر ، وننفض الغبار عن المعدن الكريم ،
ثم نولى وجوهنا شطر الحدود المقدسة ، ونقوم للوطن كما نقوم لله ، صفاءً
صفاءً ، طائعين خاشعين ، متحدين مستعدين ، ننتظر نداء العلم الموموق
وأمر القائد الأعظم !

(١) نريد به موسوليني دكتاتور إيطاليا يومئذ ، وقد كان ريقه يتحلب طمعاً

في فتح مصر



اقتلوا الجوع نقتلوا الحرب

[٢٤ أبريل سنة ١٩٣٩]

عاجت « الرسالة » في بضع عشرة مقالة آلام الجوع وآثام الفقر وما ينجم
عنهما من مآسى الحياة ؛ وكان فى ظننا يومئذ أن الناس متى هذبته المعرفة
وصقلتهم المدنية يصبحون أعلم بحكمة الله ، وأفهم لسياسة الدين ، وأجدر أن
يحكموا العقل والعدل فيما شجر بينهم على قسمة الدنيا وغلة الأرض ؛ ولكننا
تركنا الموضوع قانطين من رحمة القلوب ، لأننا وجدنا غاية الأمر فيه لا تبعد
عن البكاء والاستبكاء ، ما دام الحكم لأيدي الأقوياء ، والتشريع لألسنة
الأغنياء ، والغلب والسبق للناب العضوض والجناح الحلق . وقلنا ونحن نمنح
عن القلم سواد الحظوظ : لا يزال فى قدر الله أن يكابد بنو آدم عقابيل البهيمية
الأولى ، فيوطأ الوانى ، ويُسترق العانى ، ويؤكل الضعيف ، ويكون هنا الطمع
والكراسة والأثرة ، وهناك الحسد والحزاة والثورة ، ثم لا يفصل بين الواجد
والفاقد غير الحرب . فالحرب لا تنفك مشتعلة بين الفرد والفرد ، وبين الأسرة
والأسرة ، وبين الأمة والأمة ، بالقول أو بالفعل ، وفى السر أو فى الجهر ،
حتى يمدارك الله عباده فيهيئ نفوسهم لفض هذه الخصومة ، بغير هذه الحكومة

والخصومة الأبدية بين الناس هى المادة ؛ والنكبة الأزلية على النظام
والخلق هى الفقر . وكل ثورة فى تاريخ الأمم ، أو جريمة فى حياة الأفراد ،
إنما تمت بسبب قريب أو بعيد إلى الجوع . حتى الشهوة : شهوة الغرام

أو الانتقام لا تقع في تاريخ الجناية إلا في الحل الثاني بعد الجوع ، لأنها لا تكون إلا عرضاً من أعراض الشَّبَع . من أجل ذلك جاء دين الله يخفف عن الفقير بالإحسان والعدل . ويدفع عن الضعيف بالمودة والرحمة ؛ ولكن عُمرام النفوس كان أقوى من أن يردّه الثواب المغيَّب والعقاب المؤجل ، فنبت على أمر الله ، وعلت نفسها بالنجاة من باب التوبة المفتوح ، ومن طريق المغفرة الواسع . ثم حاولت فلسفة الناس أن تجد سلام المجتمع في أنظمة متناقضة يدفع بعضها في صدر بعض ؛ فوقع العالم من جراء النزاع بين الفردية والاشتراكية ، والصراع بين الدكتاتورية والديمقراطية ، في حرب عنيفة رعناء لا تأصرها آصرة ولا تدركها شفقة ، حتى أكلت من أمة الأسباب وحدها مليوناً وربعاً من شبابها الآمل العامل ؛ ثم أخذت تخمد في هذا الميدان الضيق المحدود لتستعمر في ميدان لا حد لعرضه ولا نهاية لطوله : هو العالم !

أينما يكن الغنى يكن السلام ما في ذلك ريب ولا جدل . ففي أمريكا وإنجلترا ، وفي فرنسا وسويسرا ، تجد الناس في ظلال الأمن مقبلين على الإنتاج المعمر والاستهلاك المرفّه ، لا نكد نرى بينهم عينا تحسد ولا قلباً يحقد ولا يداً تجترح

وفي ألمانيا وإيطاليا أصيب الناس بسُعار من الجوع زاده طمع الطاغيتين^(١) التهاباً واستكلاباً ، فانقلب إلى نوع من عبث نيرون أو انتقام شمشون أو مقاومة اليأس الذي يضرب الضربة الحمقاء ليربح الكل أو يخسر الكل !
فلو أن الله أتاح لأبناء برلين ورومة من سعة الدنيا ونفاق التجارة ووفرة

المال ما أتاح للأبناء لندن وباريس ؛ ولو أن الله لم يبتل أبناء رومة وبرلين بمن طحنهم بالعمل ، وعصرهم بالضرائب ، وقهرهم بالحرمان ، واتخذ من أجسادهم وأرواحهم وأقواتهم مدافع تقذف بالنار ، وطوائر ترمى بالسّم ، لما رأيتهم يكفرون بالإنسانية ، ويتنكرون للمدنية ، ويفعلون فعل القوى المحتاج : تضطره الحاجة إلى السرقة ، وتدفعه القوة إلى القتل . فهم يخرجون اليهود من ديارهم ليأخذوا المال ، ويحتلون الأمم بجيوشهم ليلكوا الأرض ، ويلقون الدول القوية في بُحْرانٍ من القلق والفزع والذهول ، ليضعوا أيديهم الجارفة على أرزاق الدول الضعيفة

رأى خليفة ولسون^(١) وهو في دنياه الجديدة السعيدة أن الجوع الذي ولدته الحرب الكبرى في قصر « فرساي » قد اشتد أسره ، وصلب عضله ، وفش طوله ، وضخم بدنه ، حتى انشق إلى تِنينين^(٢) فظيعين لكل منهما مليون رأس ، ومليون يد ، وفي كل رأس ناب يقطر السم الزعاف ، وفي كل يد مخلب يرسل الموت الوحى . فبعث إليهما برسالة من بقايا النبوة الأولى ، فيها الدعوة إلى الحق بالقول اللين كدعوة موسى التي لم تُصَبْ أذنا في العالم .

يطلب الرئيس روزفلت من الجُوع المتجسد المتمرد أن يحبس لعابه المتحلب ، ويكفكف سعاره المضطرم ، ويقبض لسانه اللاهث ، ويتخذ هيئة الإنسان ليلتقى بخصومه في مؤتمر عام يجمع الغرب والشرق على المبادئ التي شرعها الله فكفروا بها ، وانلخطط التي نهجها المصلحون فخادوا عنها ؛ ثم يضعون لهذه

(١) المستر روزفلت رئيس الولايات المتحدة الأمريكية (٢) ألمانيا وإيطاليا ، أو

يتيحها القدر المدبل لإحداث ثورة وإنشاء دولة وإقامة عرش . وكان هو وصحبه
البهاليل من أبطال الثورة العربية رموز الحيوية الثائرة والخبرة القادرة والإرادة
الحكيمة . جاهدوا حتى تحرر الوطن ، ونادوا حتى استيقظ المجد ، وأسسوا
حتى بني الشباب . ثم قضى وقضوا شهداء في سبيل العراق الخالد ، ولا تزال
أرواحهم الطاهرة تشرق في جوه ، ودمائهم الزكية تعبق في صعيده

وكان الملك غازي الأول سقى الله بالرضوان ضريحه ، قائد الجيل الذي نشأ
معه على قوادم الصقر القرشي الجبار ؛ فكان من طبعه الموروث — مهما أبطأ
نمو الريش أو أرعد عليه الأفق — أن يرتفع بشعبه الطموح الناهض . وكان
بشبابه الفينان الواعد عنوان الأمل المعقود على فتوة العروبة في توثيق العقدة
وتحقيق الوحدة . ثم كان بأريحيته العربية وسماحته الهاشمية نموذج الحكم
الرضي الرفيق الذي تسود في عهده الشورى ، ويخصب في ظله الفكر ، وتعرّ
في كنفه الديمقراطية . فلما صرعه القدر هذه الصرعة القاسية ارفضّ لهولها صبر
الشباب والكهول من العرب ، لأنه كان في رأى هؤلاء سر الماضي وذكري
يقظته ، وكان في نظر أولئك رجاء المستقبل وروح نهضته

نعم كان فيصل الرجل ، وكان غازي الشاب ! وما آلم الإخبار بالكون
الناقص عن الكون التام ! ولقد كان الظن بالأيام أن تبقى على فرع الحسين
النابت على دجلة حتى يستغيل ويتشعب ؛ ولكن أعاصير الخطوب كانت أقوى
من منى القلوب وأصدق من أحاديث الأنفس ؛ فلم يبق من أرومة فيصل الحرة
إلا غصنة غضة النبات تميل حزينة على الجذع المحطم ، كما تهوّم الزهرة
الوحيدة على القبر الموحش !

وارحمنا للوليد المليك ! كان له بالأمس صديق لا يخلق الله من نوعه غير واحد لكل واحد . وكان هذا الصديق يقبس نور عينه من نوره ، وسرور قلبه من سروره ، وغبطة حياته من غبطته ؛ ثم لا يرى وجوده كاملاً إلا به ، ولا عيشه سعيداً إلا معه . فهما متلازمان كطيفي الجمال والحب ، يتجولان يداً في يد بين رياض القصر ، أو يتنزهان جنباً إلى جنب في أرباض المدينة ، ويوزعان هنا وهناك البسات الحلوّة والتحيات الطيبة على حواشي الطريق أو في مماشي الحديقة ، ثم يعودان إلى الأسرة الملكية بالرخاء الطلق والأنس الشامل ، فتشرق غرفات القصر السعيد بسناً باهر من جلال الملك ، وجمال الطفولة ، وعطف الأبوة ، وحنان الأمومة ، وأمان القدرة ، وضمان الغد بالسطوة والثروة والولد !

وارحمنا للمليك الطفل ! أصبح اليوم وحيداً في القصر المظلم والعراق الحزين كأنه حصّة الأمل في القلب اليأس ، أو ومضة المنارة في البحر المضطرب ! ينظر فلا يرى الوجه المتهلل الذي كان يهش له ، ويصغى فلا يسمع الصوت الحنون الذي كان يهتف به ، ويمشي فلا يجد اليد الرفيعة التي كانت تمسكه ، ويسأل فلا يجد اللسان الحلو الذي كان يجيبه ، ويجلس على المائدة فلا يرى الفم الباسم الذي كان يناديه ؟

أين أبي يا أماء ؟ لقد خرج في الصباح من غير أن يسلم على وليده ، ولم يعد في المساء ليقبّل وجنة وحيدة

أين ملكي يا خاله ؟ لقد اختفت السيارة والموكب ، وذهب الأمناء والحرس ، وغاب الوزراء والقادة ! ما لي لا أرى الناس إلا من وراء السواد ؟ وما لهم لا ينظرون إليّ إلا من خلال الدموع ؟ فهل غيبة أبي هذه الفترة

القصيرة تجعل الناس غير الناس ، والدنيا غير الدنيا ؟

ثم وقف المليك الطفل ساهم الوجه حالم النظر ، يسأل فلا يجاب ،
ويفكر فلا يدرك ، ويبحث فلا يجد ، وينتظر فلا يلقي ، حتى أعياء الأمر
فاستسلم لشواغل الطفولة ، واستنم لوعود الحاشية ، وراح ينشد أنسه الوقتي
في صحبة خاله ، ريثما يعود إليه أنسه الدائم بعودة أبيه !

ولكن أربعين صباحاً وأربعين مساء مضت ثقيلة الأطراف موحشة العشايا
مظلمة البكر ، والصديق لما يعد إلى الصديق ، والوالد لما يسأل عن الولد !
واستيقظ فيصل الصغير الكبير من نومه القلق وحلمه المزعج ، فوجد ظهره
يهظه عبء فادح ، وجبينه يعلوه تاج ثقيل ؛ وأبصر حواليه فوجد مهده الذي
كان ينام فيه قد عظم حتى عاد عرشاً ، وقصره الذي كان يلعب به قد اتسع
حتى أصبح وطناً ، وأباه الذي كان ينتظره قد تعدد حتى صار أمة !



في يومٍ وليلة

[٢٢ مايو سنة ١٩٣٩]

في يوم وليلة رأينا مصر المبعوثة من مرقد الخلد تدخل في عهد لها الجديد
الجدى فتنهض بما توجبه الحياة الحرة من تكاليف الاستقلال وتبعات السيادة !
كان ذلك اليوم يوم الخميس الماضي ، وكانت تلك الليلة ليلة الثلاثاء قبله !
ففي هذا اليوم كان عرض القاهرة لجيشها الفتى في آلتها الحديثة وعدته الكاملة ؛
فخرج من عرائنه الشَّم والصباح الضاحي يتنفس بأريج مايو الجميل ، وسار
في الشوارع الحاشدة يعرض على الأنظار الدهشة قوى الدفاع وأسلحة الأمن
وما لا بد منه لمن يعيش في زمن استذاب وضرى حتى أنكر حق الحياة
على نوع الحمل

لم تكن المدافع القصيرة والطويلة ، ولا الدبابات الخفيفة والثقيلة ، هي التي
ملكّت الألباب وأثارت الإعجاب وفجرت الحماسة ؛ فإن منظر آلات الدمار
والموت أصبح لطول ما ألفه الحس لا غرابة فيه ولا عجب منه ؛ وإنما الذي
ملكّ الألباب حتى أذهل ، وأثار الإعجاب حتى أدهش ، وفجّر الحماسة حتى
أطغى ، هو منظر جنود مصر بشبابهم الفاره ، وخلقهم السوي ، وملاحمهم
الدالة ، ومظهرهم الأخاذ ، ونظامهم الرائع ؛ فكأنما هم جنود إبراهيم لم يلقوا
السلاح منذ ارتد قائدهم عن الآستانة . فأين كان ممكن هذه الروح الحربية
القوية مدى حقبة من الرخاوة والكسل لو مرت على الضواري لطمست
في وجوهها معارف الجرأة ، وأماتت في نفوسها معاني الافتراس ؟ لقد كان لنا

قبل سبتمبر الماضى جيش من الأرقام متواضع العدد والعدة ، يعيش فى أكناف الشعب عيش الأمان والغفلة ، لا يعرف الحدود إلا على الورق ، ولا يشهد الحروب إلا فى السينما ، ولا يدرك معنى الدفاع عن النفس فى وجود انجلترا إلا كما تدركه الزوجة المرفهة فى وجود زوجها ، والولد المدلل فى حضرة أبيه . فكيف انقلب هذا الجيش الصغير الغرير فى سبعة أشهر جيشاً من المردة العتاة يقيم المعادل على البحر ، وينحت الخنادق فى الصخر ، ويروض أوعار الأرض لأقدامه ، ويدلل أخطار السماء لقوادمه^(١) ، ويضع الخطة فلا تخطئ ، ويسدد الرمية فلا تطيش ، ويقف جنباً إلى جنب مع الجيش الذى قهر نابليون وهزم غليوم وغنم الدنيا ، فلا يفوقه فى نظام ، ولا يفوته فى سبق ، ولا يبذه فى مناورة ؟ ألسر فى معدن هذه الأرض التى جعلت للزمان تاريخاً وللانسان مدنية . والسحر فى طبيعة هذا الفلاح الذى طبع آثاره على جباه القرون وسلطانته على قلوب الأمم . وفرخ النسر لا يعلم كيف يصيد ، وشبل الأسد لا يدرب كيف يفترس !

وفى تلك الليلة كانت تجربة الدفاع الجوى عن القاهرة . ففى عتمة الليل والناس لاهون صاحت الأبواق المنذرة بالغارة فى كل حى ، فأطفئت الأنوار وأسدلت الأستار وخشعت الأصوات وسكنت الحركات ، وأقفر الشوارع إلا من رجال الشرطة والمطافئ والإسعاف ، وجثم على صدر العاصمة كابوس من الرهبة والقلق ، فامتدت العيون خلسة من وراء السجوف ومن خلال النوافذ فلم تر إلا الظلام يموج ، والدجوم تضطرب ، والرقابة تحت الحنايا الآمنة تنهاس ، والمدافع فوق العماثر العالية ترتقب . ثم أقبلت من الحدود الغربية النصور المغيرة .

(١) القوادم : كبار الريش فى مقدم الجناح ، والمراد بها طائرات القتال

فرنقت في جو المحروسة على علو لا يرى ولا يسمع ؛ ولكن آلات الرصد نهبت
الكشافة فأرسلت على أطباق الجو الحالك أفواجاً من الأشعة الخاطفة ، تتناول
وتتعارض ، وتتعانق وتتشابك ، حتى لم تدع طائراً يطير إلا صورته في عدسة
مدفع . وفي آخر الهزبع الأول من الليل أعلنت الأبواق بأصواتها المتصلة انقطاع
الغارة ، فأشرقت المدينة ، واستأنف الناس حياة اللهو والأنس وهم يشعرون أنهم
أصبحوا خلقاً كسائر الخلق لهم قوة لا تُدرى ، وكرامة لا تتمن ، وحى
لا يستباح

في هذه الليلة وفي ذلك اليوم أدركنا أن مصر الناهضة قد بلغت سن
التكليف وجاوزت حد العبث ؛ فهي تستعد للحرب والسلام ، وتبني بالفعل
لا بالكلام ، وتقدم إلى ساحة الدفاع المقدس شيوخ دينها وشباب دنيها ، وهي
راضية بهذا البذل نفوة بهذه التضحية . والفضل كله للأحداث التي تذيب
العش وتفضح الزيف وتمحص الكفاية

لا جرم أنا كسبنا مغنم الحرب وإن لم تسكن حرب . لأننا بما عملنا
أوجدنا شيئاً لا بد من إيجاده ، وبما بذلنا سددنا عوزاً لا مناص من سداده .
أما الدول الأخرى فدفاعها مكين الأساس مرفوع القواعد منيف الذرى ، فكل
ما تنفقه عليه يضطرها الخوف إليه لتأمين الفشل وتضمن العقبة
ماذا كنا قبل أن ينتشر الجراد الرومي^(١) المساح على حدودنا المهمة ؟ كنا
قوماً من سادة الماشية وعبيد الأرض تركوا أزمته للقدر وثورتهم للغريب وحمايتهم
للحليف ، ثم قبل بعضهم على بعض يتنافسون في الهزل من غير غرض ،

ويتراشقون بالتهم من غير بينة ، ويتسابقون إلى الحكم من غير غاية . فلما أئنع
الحصاد وأزّ في الأفق الجراد وزأر بالوعيد الطغاة ، تيقظت مصر الصادقة الحرة
على ضفاف النهر وأحقاف الرمل ورياض الريف ، ثم وقفت في شكّتها^(١) الكاملة
موقف الائق الحذر وهي تنظر إلى الشفق الدامي في وجه الغرب ، وتقول للطامع
الساعي لإثارة الحرب : حذار ! فإن على عرشيّ الفاروق خليفة الله ،
لا كليو بطرة صديقة قيصر !

(١) الشكة : السلاح



فلاحون وأمراء!

[٥ يونية سنة ١٩٣٩]

جلست كعادتي في عصر كل سبت أفكر في موضوعي الأسبوعي للرسالة ،
فتردد على خاطري المكثود معانٍ شتى من وحي الساعة وحديث الناس وحواز^(١)
القلوب ، كمأساة حلحول في فلسطين ، وصلة الجديد بالقديم في الأدب ، فكنت
أذودها بالفتور والإهمال ، لأن معنى من المعاني القوية كان قد استبد بذهني
منذ الصباح ، فهو يراوده ويعاوده ويلح عليه حتى لم يكن من الكتابة فيه بُد .
ذلك بيان النبيل عمرو إبراهيم رئيس نادى الفروسية الذي بعث به إلى الأهرام
وطلب إليها أن تنشره (كاملاً) في عدد اليوم . والذي استفزني من هذا البيان
لهجته الأميرية المنتفخة في الرد على رئيس الوزراء ، والطعن في بعض الكبراء ،
والدفاع الظنين عن نظام الطبقات ، والتفسير المجازف لكلمتي الفلاح
والديمقراطية ، والتلميح المختزل إلى السامية والطورانية ؛ فإن هذه مسائل دقيقة
ما كان للنبيل أن يعرض لها بهذا الاستكبار ، في بيان دفاعي لا يجوز أن
يخرج فيه عن التنصل أو الاعتذار !

لست والحمد لله من طبقة أولئك النادين إلى هذه (الكُلبات)
التي تتضائل فيها الديمقراطية بين أرستقراطية الدم أو المال أو المنصب ؛
فلا أزعم أنني سمعت الأشداق الملوية تأمر ، ورأيت الأنوف الوارمة
تمتعض ؛ ولكني قرأت كما قرأ الناس ثورة رئيس الشـيوخ

(١) حواز القلوب : جمع حازة ، وهي الأمور التي تقطع القلوب وتؤثر فيها

وزارة^(١) رئيس الحكومة ، فعلمت والأسى يحز في الصدر أن بعض الذين جعلناهم أمراء ونبلأ لا يزالون على عقلية ذلك التركي الفقير الذي كان يقرع الأبواب مستجدياً فإذا أجابه الجيب الفزع قال له في عنف و صلف وأنفة : « هات صدقة لسيدك محمد أغا » . ولا أدري ما الذي سوغ لهم أن يعتقدوا أن الله خلقهم من المسك للملك ، وخلقنا من الطين للطين ، وجعلهم للثروة والسيادة ، وجعلنا للخدمة والعبادة ؟ إن كانوا مسلمين فالإسلام قد محا الفروق بين الطبقات إلا البر والتقوى ؛ فالعرب والعجم سواء ، وقریش وباهلة^(٢) أكفاء . وإن كانوا وطنيين فالوطن لا يعرف التفاضل بين أبنائه إلا بأثرهم في تقويته وترقيته وخدمته ؛ فالفلاحون على درجته العليا ، لأنهم عماد ثروته وعدة دفاعه وقوة سلطانه ؛ والأمراء على درجته السفلى ، لأنهم فيه معنى السرف الذي يفقر ، والترف الذي يوهن ، والبطالة التي تميمت ! وبين هاتين الدرجتين تتفاوت مواقف الوزراء والزعماء والكبراء على حسب ما لكل منهم عليه من فضل

لا يا سيدي النبيل ! ليس نظام الطبقات هو القائم في مصر وأوربا كما تقول ؛ فإن جعلك نفسك ونظراءك طبقة متميزة لها حدودها الأربعة وجهاتها الست لا يجعل نظام الطبقات حقيقة واقعة . إن مصر كلها من أعلى شلالها إلى

(١) قال الرئيس النبيل بالحق محمد محمود باشا وقد علم أن « نادى الفروسية » يتعاضم على سراة المصريين ويتصاون من عضويتهم فيه لأنهم (فلاحون) : « إن حكومة جلالة الملك لا يمكن أن تسمح باعادة نظام الطبقات . نحن هنا في بلد ديمقراطى ، وكل المصريين سواء ، وجلالة الملك بضرب كل يوم أعظم الأمثال في ديمقراطيته ومصريته . أما فلاح وابن فلاح ، وأخر بأن أكون كذلك . والفلاح هو عماد هذه البلاد وفخرها . وإذا كان بين أعضاء (نادى الفروسية) من لا يعجبه هذا الكلام فليرحل عن بلاد الفلاحين ! »

(٢) باهلة : قبيلة عربية توصف باللؤم والحفارة

أسفل دالها^(١) طبقة واحدة فيها الغنى والفقير ، والمالك والأجير ، والصحيح
 والمريض ، والعالم والجاهل ؛ فهل تجعل كل حال من هذه الحالات طبقة ؟
 وهل تستطيع أن تعين لى الفرق بين طبقتك المرفوعة وطبقتنا الموضوعة إذا
 كان الدستور الذى تخضع له الطبقتان يستطيع أن يجعل ابن الخادم الذى
 ينظف لك الحذاء جليسك ورئيسك ؟ لقد كان امتياز طبقتك على طبقتنا أنك
 تمسك (الكر باج) ونحن نمسك الفأس ، وتأكل الذهب ونحن نأكل التراب ،
 وتعبد الشيطان ونحن نعبد الله ، وتتكلم التركية ونحن نتكلم العربية . فلما
 قيض الله لمصر العظيمة فؤاداً العظيم فتزوج منا وحكم بنا وسعى لنا ونشأ على
 خلائقه المصرية المحض شبلة الموموق « فاروق » ، شعرنا بأن العرش يستقر على
 كواهلنا ، والعلم يخفق على معاقلنا ، والسلام يتردد فى شعورنا ، والحكومة تقوم
 بأمرنا ، والنيل يجرى بخيرنا ؛ ورأيناكم حين أخذكم — رضوان الله عليه —
 بأدب الإسلام والشرق لذتم بأطراف الغربية ، وقبعتم فى زوايا العزلة ، وكنتم
 من مصر وثروتها مكان البالوعة تطفح بعرق الفلاح ودمه لتصب فى منافع
 البلدان الغربية !

لا يا سيدى النبيل ! ليس المصريون فى الجنسية والوطنية بمنزلة سواء ؛
 فإن منهم من تمصر بالقانون لا بالأصالة ، وتوطن للمنفعة لا للعاطفة . وكيف
 يستوى فى ميزان الوطنية من يقف على مصر يده وقلبه وكسبه ودمه ، ومن
 لا يعرفها إلا معرفة الغرماء ، ولا يعيش فيها إلا شهور الشتاء ، ولا يعنيه من
 أمورها إلا أجرة العامل وسعر القطن !

كذلك ليس من خالص الحق قولك : « إن حق الشخص في الانتساب إلى أمة إنما يناله بما يؤديه إلى وطنه من الخدمات ، سواء أكان ذلك بنفسه أو بأفراد أسرته من آباءه وأعمامه وأبناء أعمامه وأجداده وأجداد أجداده » .
فإن أموال أبيك لك ، ولكن أمجاده له . والوطني الصميم هو الذي يرفع ما بنى أبوه ، ويتمم ما بدأ جده . ولا ينفع المرء عند الوطن أن أباه وطني وهو خائن ، ولا عند الله أن أباه مسلم وهو ملحد !

أيها الأمراء والنبلأ ! إن لكم في سيدكم الفاروق أسوة حسنة . فخذوا
إخذه الجميل في سيرته ومصريته وشعبيته ودينه ؛ فإن ذلك يكفل لكم رضا
الشعب في الدنيا ورضا الله في الآخرة !



هل لأغنيائنا وطن؟

[١٢ يونية سنة ١٩٣٩]

من أنباء البرق الأخيرة أن اللورد (نفيلد) صاحب مصانع سيارات (موريس) الإنجليزية قد تبرع للدفاع الوطنى البريطانى بمليون ونصف مليون من الجنيهات ، ووضع مصانعه الكبرى تحت تصرف وزارة الدفاع ، فبلغت بذلك جملة هباته للوطن فى مدى عشر سنوات خمسة عشر مليوناً ونصف مليون من الجنيهات على رواية الصنداي إكسبرس ! فإذا قرأت هذا وتذكرت ما تبرع به زخاروف وأفيروف وكوتسكا وأنطنيادس للجيش اليونانى وهم من رجال الأموال والأعمال فى مصر لا يسعك إلا أن تسأل كما أسأل : هل لأغنيائنا وطن ؟

الواقع الذى لا مرء فيه أن ليس لأغنيائنا وطن ؟ إنما لهم قصور لإتلاف النعمة ، ومزارع لعصر الفلاح ، وبرك لصيد البط ، وميادين لسباق الخيل ، وأندية لقتل الوقت ، ومنازه لإظهار الأبهة . وما عدا ذلك من أرض الوطن ومعنى الوطن فهم لا يعرفونه ولا يفقهونه !

هل سمعت أن غنياً من الأغنياء أو أميراً من الأمراء قال إن له وطناً فتبرع له بطائرة فى الجيش ، أو بجائزة فى المعارف ، أو بكرسى فى الجامعة ، أو بمستشفى فى الصحة ، أو بملجأ فى الأوقاف ؟

لا تقل فى تحليل هذه الفردية الشحيحة : إن أغنياءنا جهلاء العقل ، وأمراءنا غرباء العاطفة ، فإن الوطنية عصبية طبيعية تقتضيها سنة الحياة فتكون فى رجل الفطرة تعصباً للأسرة ، وفى رجل البداوة تعصباً للقبيلة ، وفى رجل

الحضارة تعصباً للأمة ، وفي رجل الإنسانية تعصباً للعالم

ولئن سألتني عن تعليل ضعف الوطنية في هؤلاء الناس لأقولن لك إني عنه عاجز ؛ فإنهم لا يزالون يشعرون بها شعور الفطرة الضيقة المحدودة . ومن الصعب على العقل أن يتصور أن أصحاب السمو وأصحاب الجدد وأصحاب السعادة لا يجدون في أنفسهم من الحب لمصر الحبيبة الخصبية ، ما يجده الإنسان الفطري للغاية السليمة والبادية الجديبة !

يكاد النيل يعتقد أن أكثر الأجانب الذين يعيشون فيه ، هم خير له من أكثر الأغنياء الذين يعيشون عليه ! لأن أولئك يعاملونه معاملة الراعي الذي يحلب ويرعى ، وهؤلاء يعاملونه معاملة العلق الذي يمتص ويهمل ، فأينما رأى التجارة والعمارة والإنتاج رأى ضيوفه ، وحيثما رأى الإسراف والإتلاف والتبطل رأى أهله !

ليتني أدري ماذا يقول الغنى الأصيل إذا نافرته الأجنبي الدخيل أمام قدس الوطن ؟ أيقول له : هذه رؤوس أموال تنشيء الشركات وتقيم المصانع وتنمي الثروة ؟ أم يقول له هذه (مشروعات) أعمال تقرر الأمن وتحيي البلاد وتقتل البطالة ؟ أم يقول له : هذه ثمار إفضالى تعزز الدفاع وتشجع الإبداع وتنشر الثقافة ؟ الله أعلم يومئذ أيهما يقول ذلك وغير ذلك ؛ وأيهما يقف ناكس الرأس خاشع الطرف عني اللسان ، لا يجرى على باله إلا أنماط الثياب وسلائل الكلاب وفصائل الخيل وطرز السيارات وأندية القمار وحسان هوليوود !

يظهر أن التقدية والتضحية والخدمة العامة إنما تكون أثراً لقوة الروح وصحة الخلق ، فإن أول من تطوع للجهاد شباب الأمة ، وأول من تبرع للدفاع

رجال الدين . فالحيلة في أغنيائنا إذن هي حيلة الله . هو وحده الذى يملك أن يحيل في النفوس عبادة المال عبادةً للوطن ، ويجعل في القلوب محبة النفس محبةً للناس ...

يا أغنياءنا إنما نريد أن نحبكم فساعدونا على خلق هذا الحب . إن ديننا ينهانا أن نفيس عليكم نعمة الله ؛ وإن وطننا يمنعنا أن نضنّ عليكم بأخوة الوطن ؛ ولكن العقيدة والوطنية اللتين تحببانكم إلينا ، هما كذلك اللتان تغضباننا عليكم ! لأن الأمة تريد أن تقوى وفي نفوسكم قوتها ، وتبغى أن تعزّز وفي رؤوسكم نخوتها ، وتحاول أن تدافع وفي أيديكم ثروتها ، فخرمتموها كل ذلك ووضعتموه في غير موضعه ، وأضعتموه في غير سبيله ؛ ثم مكفتم للجهل والفقر والمرض أن تدهمها من كل جانب ، ففقد القوى لجهله عن السعى ، وفتر العالم لفقره عن البحث ، وعجز الضعيف لمرضه عن الإنتاج

يا أغنياءنا — والناس أجمعون يعرفون من أعنى — لقد جرّ بتم بذل المال في اللهو ، وقتل العمر في العبث ، وفقد الصحة في المجون ، فهل كسبتم من وراء ذلك مجداً أو وجدتم في عواقبه سعادة ؟ جربوا ولو مرة واحدة على سبيل التسلية أن تمسحوا دمة على خد حزين ، أو تنفسوا كربة عن قلب بائس ، أو تسهلوا طلب العلم لفقر ، أو تمهدوا سبيل العمل لمتعطل ، أو تشاركوا أبناء الشعب في منفعة عامة ؛ ثم انظروا بعد ذلك كيف يشيع في صدوركم الرخاء ، ويرتفع بقلوبكم الإخاء ، وتنعم نفوسكم في الحياتين بين عاجل المجد وآجل الخلود . ثم وازنوا بين متعة الجسم ولذة الروح ، تجدوا أن الأولى تنقضى بالملل والعلل

والجريمة ، والأخرى تدرم بدوام الروح في الأرض وتخلد بخلودها في السماء

يا أغنياءنا — والله هو الغنى الحميد — لقد بح الصوت وحنى القلم وأنتم
في نشوة البطر وغفوة النعيم لا تسمعون ولا تقرأون ! فهل تظنون أننا بما نقول
ونكتب نريد أن نخرجكم من متاعكم ، أو نحولكم عن طباعكم ؟ لا يا ساداتنا !
إن ذلك عمل الله وحده ؛ أما عملنا فإن نذكركم كلما نسيتم أن لكم مواهب
تهملونها وللوطن في استغلالها نصيب ، وأن لديكم أموالاً تبذرونها والله في ريعها
حق ؛ وأن ننهبكم كلما غفلتم إلى أن هزل الحياة لا ينفع في جد الموت ، وأن
ملك الدنيا لا يغنى عن ملك الآخرة !



مِنْ صُورِ الْمَاضِي

[١٩ يُونِية سنة ١٩٣٩]

كان الفلاح في القرن الماضي يكابد صِنْفاً من الخلق صورهم الله على مثال عجيب من خفة الصقور وفتكة النمر وهيئة الناس ليكونوا مذكرين بجبروته ومنذرين بعذابه ! كانوا من الأرناء ودأو الجركس ؛ وكان عملهم جباية الضرائب على كل شيء ، ومن كل شخص ، وفي كل وقت ، وبكل صورة ؛ أو اقتحام الدور للبحث عن المحظور أو المحكور من الملح والصابون إذا اقتنأها أحد من غير طريق الحكومة . وكان سبيلهم إلى ذلك سبيل الإرهاب والعنف ؛ فمتى دخل أحدهم قرية من القرى دخلها الفزع والروع فلا يملك السائر أن يتقدم ، ولا الواقف أن يتكلم ، ولا الداخل أن يخرج . ثم تخشع في القرية الحياة فلا تسمع حساً ولا حركة إلا هدير الكلاب وقوقأة الدجاج وصراخ الصبية ! فإذا خرج منها (الجندى) كما كانوا يسمونه انطلقت من وراءه ضجة شديدة في البلد من بكاء المصروب وصراخ المنهوب ودعاء المضطرب !

فلما انتظمت أداة الحكومة بعد الثورة العرابية انكش هذا النوع حتى انحصر رهبوتة في ضياع الأمراء و « جفالك » السادة . وكانت قرينتنا وسبع قرى أخرى متجاوزة قطائع لعلى باشا شريف في أواخر القرن الماضي ؛ وكانت الإمارة والإدارة فيها لهؤلاء الأرناء ودأو (الأرنة) كما كنا نقول ، ففرضوا عليها نظاماً في العيش أخذوه عن حياة الحيوان وعيشة العبد . فكان الناس ، كما يحدثنا الباقون منهم ، لا يملكون مالاً ولا حرية ولا حياة ؛ وإنما كانوا

يعملون بالتعذيب ويغنون بالسكره ، كما تعمل الماشية بلسعات السوط وهى صابرة ،
وتفيل الأرض بضربات الفأس وهى صامتة . وكان لفظ (المأمور) معناه الموت
الذى لا عاصم منه ولا مهرب . ذلك أنه كان يخرج كل يوم على جواده
إلى الحقول ، شاكى السلاح ، كاشر الوجه ، منفوخ اللغaid ، مفتول الشارب ،
متوقد النظر ، كأنه تمثال الرعب أو صورة الهولة ! ثم يسير متلفتاً ذات اليمين
وذاات الشمال لا ليتفقد العمال ويتعهد الزروع ، ولكن ليبحث عن إنسان
يعذبه ، أو حيوان يضربه . والناس قد تعودوا منه ذلك فهم لا ينفكون طول
النهار يرقبون ناحيته ويرصدون طريقه ؛ حتى إذا أبصروه من بعيد ، غابوا
فى مخابى الأرض كأنهم لم يكونوا ! فإذا عاد من طوافه خائب السوط جلس
أمام الدوار وأمر أن ترش الأرض وأن يلقى فى وحلها من جاءه فى طلب حاجة
أو رفع مظلمة ! ثم يصيح بالجلاد أن ينهال عليه بالكرباح ، وهو فى خلال
ذلك يمد من الغضب ويبربر من الغيظ حتى تهدأ ثورته وترضى كبرياؤه بعد
لاى ! وكان العمدة والمشايخ منوطين به ، فلا يسمعون الأمر والنهى إلا منه ،
ولا يرفعون مشكلات القرى وقضاياها إلا إليه . لذلك ظل أهلها يجهلون أن لهم
خدبياً غير على شريف ، و (نظاراً) غير نظار الزراعة ، و (مأموراً) غير
مأمور التفتيش . وكان هذا (الحاكم) كسائر بنى جنسه مغلق الذهن مطبق
الجهالة ؛ يجهل الزراعة ولكمه يأمر ، ولا يعلم القضية ولكنه يحكم ، والجانى
المحكوم عليه هو الذى يجرو على أن يعقّب أو يعارض . وكان سادته لا يفوقونه
فى الذكاء ولا فى الرحمة ؛ فكانوا إذا زاروا هذه القرى — وقليلاً ما كانوا
يزورون — تنكبوا بنادقهم وخرجوا يقتلون الوز فى البرك ، والحمام فى الأجران ،
والكلاب على التلول ، والغربان على الشجر . ويراهم الناس فينون إليهم

دهشين من طرايشهم الحمر على وجوههم البيض ، ويظنون أن وراء هذا الرواء جمال القلب وكرم النفس ؛ فإذا دنوا منهم يسألونهم الإحسان والعدل زموا بأنوفهم ومضوا مستكبرين لا ينظرون ولا يجيبون !

أذكر وأنا صبي دون السابعة أن الناس كانوا يتحدثون عن جبار من هذا الطراز اسمه (زينل) . كانوا يتحدثون عنه كما يتحدثون عن البلاء ، ويؤرخون بعده كما يؤرخون بالوباء ، لأنه أذلّ الفلاحين بالخوف والجوع ، وأضاع شبابهم بين التربة والغربة . ولا تزال الألسنة هنا وهناك تتناقل هذه المأساة من مآسيه : يقولون إنه كان في قرية من هذه القرى شاب لم تلد نساؤها أجمل منه وجهاً ولا أشجع قلباً ولا أرق عاطفة . وكان هذا الشاب بحكم شبابه وجماله وكرمه حبيباً لكل فتاة وصديقاً لكل فتى ، ولكنه كان كلفاً بينت عمه ، فهي وحدها حافز عمله وغاية أمله وروح حياته

وفي ذات عشية من عشايا الصيف كان على وليلى عاندين من الحقل وهما ينسمان بالحب الخالص ، ويبسمان للغد المرجو ، فغلبت على العاشق نشوة الطرب من جلال الطبيعة وجمال الفتاة ، فقال وهو يقدم إليها آخر قطعة بقيت في يده من الخلاوة :

— ألا تشتهين شيئاً في الدنيا غير هذه الخلاوة يا ليلى ؟

فقالت له ليلى بعد لحظة من الصمت الحالم :

— لا أشتهى بعد قربك يا على إلا عنقوداً من العنب !

عنقود من العنب ؟ إن الثريا أقرب إلى يديه من هذا العنقود ! وهل رأى في دنياه العنب إلا في حديقة (التفتيش) ؟ وماذا يصنع والدنو من سياجها هلاك محقق ؟ ولكن الحب لا يدرك البعيد ولا يعرف المستحيل . فكمن على

بعد رجوعه من الغيظ في كومة من دريس (الوسية) حتى جنه الليل فقام
يتسلق السور من جانبه المظلم ، فلما بلغ أعلاه سقط في الحديقة فكانت سقطته
في يد الحارس !

وبات في سجن الدوار . وأصبح الصباح فجلس المأمور والمعاونون والنظار ،
ورشت الأرض ، وطُرح الجاني ، وتعاقبت على جسده المعرّى عذبات الكراييج ،
والناس من حوله يضجون بالبكاء ، ويضرعون بالرجاء ؛ و (الأغوات) يتلذذون
برؤية الدماء المنزوفة والدموع المذروقة ، ويطربون لسماع الأنات الضارعة
والصرخات المتصلة ، حتى كلت يد الضارب وخفت صوت المضروب فحملوه
إلى السجن . وشفع العمدة لأهله أن يأخذوه ، فلما دخلوا عليه لم يجدوا فيه
وأسفاه إلا حُشاشة نفس لفظها على صدر حبيبته أثناء الطريق !



تكاليف الاستقلال

[٢٦ يونيه ١٩٣٩]

وهل تكاليف الاستقلال ، إلا ضرائب الدماء والأموال ؟
لقد كنا قبل أن نبلغ رشدنا الدولي نعيش في كنف الحكومة وحمى
الاحتلال ، كما يعيش النشأ الأغرار في ظلال الأبوين ورعاية الأسرة ! تنفق
علينا الحكومة ولا نعلم من أين تكسب ، وتدفع عنا الحليفة ولا ندرى بماذا
تضرب . وكنا نسمع بما تجود به الأمم لأوطانها من الأموال والأعمار والأنفس ،
ونرى ما نحن فيه من البال الفارغ والعيش الأبله ، فنحسب أن حياتنا هي الحياة
وغبطتنا هي الغبطة . ولـكـنـنـا كـنـا نرى من الجهات الأخرى أن عزتنا وقوتنا
لا تقاس على عزات هذه الأمم وقواها ؛ فهي في أوطانها حرة الإرادة مطلقة
السيادة ، وفي العالم مرفوعة الرأس مسموعة الكلمة ؛ ونحن في وطننا قطيع
يسام ويسمن ، وفي العالم سلعة تُساوَم وتؤمَّن ، فلا نشعر هنا كما يشعر الناس
هناك أننا نحن الوطن والثروة ، والحكومة والسطوة ، والدولة والسلطان . فلما
بلغنا التكليف وأدركنا الاستقلال وملـكـنـا زمام الأمر ، أصبحنا فإذا أخطار
المجد تحوم على كل نفس ، وأثقال الدفاع تنحط على كل كاهل : فالضرائب
تجبي من المال ، والكتائب تجمع من الدم ، والتضامن الدولي العام يقتضينا
المساهمة في حفظ السلام وإقرار العدل بالمعاهدات الدفاعية والمواثيق الاقتصادية ؛
وفي سبيل ذلك تستعد كل نفس للموت وتهيأ كل شيء للبذل . ومن أجل
ذلك يجب أن يكون صوتنا هو الأرفع في السياسة ، ورأينا هو الأعلى في الحكم .

نحن الذين ننفق فلا بد أن يكون لنا الحساب ؛ ونحن الذين نموت فيجب
أن يكون في أيدينا الأمر !

ما كنا قبل اليوم نشعر هذا الشعور ونفهم هذا الفهم . والفضل في هذا
الوعي وفي هذه اليقظة يكاد يرجع إلى ضريبة الدمغة من دون الضرائب . فإن
ضرائب العقار والدخل والإنتاج إنما هي ضرائب خاصة ، تُجبي من قوم دون
قوم ، وفي وقت بعد وقت ؛ فالشعور بوجودها محدود ، والتفكير في أمرها
مؤقت . أما ضريبة الدمغة فهي ضريبة عامة ، تُجبي من أى إنسان في أى زمان
ما دام له عمل أو حاجة . فهي لذلك لا تنفك تشعرك وتشعركم أننا ننفق على
الحكومة ؛ فروساؤها وكلاؤنا ، وموظفوها أجراؤنا ، وأموالها أموالنا ؛ فنحن
حقيقون أن نراقب الوكيل ، ونحاسب الموظف ، ونرعى الخزانة . ونحن خليقون
أن نقول للوزير : إن جهدك للدولة فلا تبذله على هواك الفرد ؛ وللموظف : إن
وقتك للأمة فلا تشغله بعملك الخاص ؛ وللنائب : إن رأيك للناس فلا تصرفه
إلى متاعك الباطل

لقد كنا ندرك معنى الوطن إدراك الشيوع والإيهام والغفلة ، فلا نكاد
ندري ما يقدم إلينا وما نقدم إليه . فلتزع تشق ، والطرق تهيج ، والجسور
تنصب ، والعمارة تمتد ، والثقافة تنتشر ، والأمن يستقر ، والحضارة تزدهر ، ونحن
نستمتع بذلك كله استمتاع الغريب لا نجد فيه ريح الفخر ولا روح المجد ، كأن
غيرنا هو الذى قام به وأنفق عليه ! ولو أن عابثاً عبث به ، أو عائثاً عاث فيه ،
لما ألقينا بالناس إلا لخبر السرقة أو الخيانة ؛ أو المحاباة ، نرويه كما نروى أخبار

البرق للتفريج والتفككة في حديث القهوة أو في سمر البيت . وتلك حال كانت أشبه بحال الأمير أو الغنى الذى أوتى الملك عفواً من غير حيلة ؛ واستولى على ريعه صفواً من غير كلفة ؛ فشعوره به شعور بأثره لا بعينه ، وحرصه عليه حرص على ثمره لا على شجره . أما لذة الملك فى ذاته فلا يستشعرها إلا للمالك الذى اشتراه بجهد ، والفلاح الذى استغله بعرقه

كذلك كنا نفهم معنى الوطن قبل أن نفهم معنى الاستقلال والسيادة والعزة . فلما فهمناها وفهمنا لوازمها من الإخلاص والإيثار والتضحية ، أصبحنا نعتقد أن كل قوة هى من قوات الوطن العامة ، وكل ثروة هى من ثرواته المشتركة . فالتقدير لا ينبغى أن يمتل قوته لأنه حر ، والغنى لا يجوز أن يبدد ثروته لأنه مالك

إن للوطن حقاً معلوماً فى أملاك المواطن وممتلكاته ؛ وإن للمواطن حقاً مشاعاً فى أجماد الوطن وخيراته . فأنا من حق أن أقول للأمير الذى يهلك ثروتنا وسمعتنا على الفتون والمجون ، وللغنى الذى يُخمد نهضتنا وحيويتنا بالكرازة واللؤم ، وللأديب الذى يزيف أدبنا وتاريخنا باللغو والباطل ، وللوزير الذى يوزع المناصب بالهوى ويقسم الأرزاق بالمحاباة ، ولموظف الذى يتصرف فى أشياء الدولة تصرف المالك ، فسيارتها فى (جراجها) وسعاتها على بابه ، وأموالها فى جيبه ، وللعضو البرلمانى الذى لا يدخل أحد المجلسين إلا ليقبض مكافأته أو يلقى أصحابه أو يتلقى بريده ؛ من حقى وحقك أن نقول لهؤلاء جميعاً على التوالى : إنكم تَلْقَوُ تعيشون على دماء الناس ، وأنكاد تتلذذون بكفران النعم ، وأقدام تتطفلون على موائد العلم ، وأوغاد تدلسون الحكم على

الوطن ، ولصوص تعيث أيديكم في مال الأمة ، وعيال تبهظ أثقالكم عاتق
الفقير ؛ فحياتكم على الأرض غرور ولهو ، ونسبتكم إلى الوطن زور وباطل

ذلك ما يحق لكل مصرى أن يكرر قوله ؛ وذلك ما يجب على كل
مصرى أن يتقى سماعه . ولا خوف علينا بعد اليوم من غفوة العيون وغفلة
البصائر ، فإن كل طابع نشتره من طوابع الدمغة منبه عنيف الحركة في اليد
شديد الصوت في الأذن . وإنما الخوف كل الخوف على زعيم الأمة إذا ضل
وعلى أمين الخزانة إذا أسرف !



مِنْ هَذِيَّانِ الْحَرِّ

عليق ... وعلق

[٣ يولية سنة ١٩٣٩]

نحن يا صديقي القارىء من سموم تموز على حالٍ سواء : أنا لا أحسن الكتابة ، وأنت لا تحسن القراءة ؛ فتعال أهدِ أنا وتسمع أنت ؛ فإن الهذيان فى الحر كالهذيان فى الحمى تنفيسٌ عن الروح المكروب ، وتخفيف عن الدم الفائز . والهذيان كلام كفورة الإنباء ليس له نظام ولا فيه عقل ؛ ولكنه كالم النائم لا تغلب فيه جملة على جملة ، ولا تظهر به صورة دون صورة ، إلا لأن لها فى العقل الباطن أثراً ، وبالروح اليقظان صلة . ولعلك واجد فى لواغى المحموم والمموم والنشوان والنائم من ومضات الحق ما لا تجده فى بعض الكلام . ولقد كان فى قرى الريف جماعة من المسوسين المستهامين يعتقد الناس أن وسوستهم من كشف الغيب وإنذار القدر ؛ وربما أصابوا فى لحونهم توجيهاً إلى منفعة أو تنبيهاً إلى مضرة !

يقولون : فى شهر تموز ، يغلى الماء فى السكوز ، ويجرى الشر على البوز^(١) فهل صم الفوهرر أن يفتح فى (دانزيج) طاقة من جهنم تجعل البحر حمياً^(٢) على كل مستحم ، والجبل حمياً على كل مصطاف ؟ ما ضر هتلر أن يمهل الأغنياء المدللين حتى يبذروا الذهب فى مدن المياه ، كما أهل الفقراء المساكين

(٢) الحميم : الماء الحار

(١) البوز فى لغة العامة : النعم

حتى حصدوا الحنطة في قرى اليايسة ! ما ذا يصنع ذلك الأمير أو ذلك الكبير الذي وقف دخل الامام كله على هذا الشهر ، فقسم أمواله بين موائده الخضر في كل ساحل ، وفرّق آماله على مواخيرہ الحمر في كل حضيض ؟ أيجوز أن يجرمه هتار غدوات القمار وأصائل الغزل وأماسى الرقص وأسحار الفتون ، لأنه يريد أن يتسع وطنه ويرتفع شعبه وينتشر سلطانه ؟ هل هانت الأرستقراطية على الناس إلى هذا الحد ؟

لو كنت ذلك الأمير أو ذلك الكبير لصحت ملء فمي : لعن الله الديمقراطية والديكتاتورية ! فإنهما منذ رفعتا كلمة الشعوب فوق إرادة السادة ، ونقلتا سلطان الملوك إلى الساسة والقادة ، هوت الأرستقراطية إلى الدرك الأسفل من بناء المجتمع ، وأصبح أهلها كدُمى الأثاث توضع للزينة ، أو كذلاذل الثياب ترسل للحلية . لقد كانت الحرب في عهد العزة الأرستقراطية لا تقوم بين إمارتين أو مملكتين إلا لأن الأمير أو السيد أراد أن يصيد فصداً عن الأرض ، أو يخادن فدفع عن المرأة ، أو ينفق فعجز عن المال . أما اليوم فمن مهازل الدهر أن تشب الحرب بين دولتين أو قارتين لأن عاملاً فقيراً أراد ليده عملاً فلم ينل ، أو تاجراً حقيراً طلب لبضاعته سوقاً فلم يجد ! وفساد الأمر كله إنما جاء من وضع الحكم في أيدي المتعلمين من أبناء الصنائع والزراع والعملة ! !

آمنت أن الله خلق في الناس العُلُق والعُلُق نبات يتسلق ما يقربه من الشجر فيغلوه ويلتف به ويعرش عليه حتى يحرمه نَسَم الريح وضوء الشمس وجلال الرفعة . والعُلُق دود يتعلق بمن يمسه من الحيوان فينشب فيه خرطومه ، ثم يمتص دمه ويستلب حياته

فهؤلاء الأنبياء والأوزاع الذين يلتفون حول (أبناء الذوات) يهرجون لهم في الحديث ، ويروجون لهم المنكر ، ويتطأون من وراء أكتافهم إلى نفخة الحياة ، هم عليق .

وهؤلاء (البلطجية) الأوشاب الذين يلقون أبدانهم الثقيلة على عواتق البغايا الضعاف والتجار المساكين فيفرضون عليهم بالقوة ملء البطون والجيوب من السحت والإثم ، هم علق .

وأولئك المتزعمون المتبطلون الذين قصرُوا جهدهم في الحياة على أن يتخاطفوا عصا القيادة ، ويتنازعوا كراسي الحكم ، ووسيلتهم إلى ذلك أن يقوموا على هامش الطريق أبواق فتنة ، أو يقفوا في سوائه أحجار عثرة ، هم عليق .

وأولئك المترفون المسرفون الذين استولوا على الأرض من غير ثمن ، وتسلطوا على الفلاح من غير سلطان ، فأكلوا ثمرة الزرع حتى انتفخوا ، وشربوا عرق الزارع حتى طفحوا ، هم علق .

وأولئك النقاد المتخرسون الذين يتهمون على أعيان العلم والأدب باللغو والجهل والسفه ، ليدركوا نباهة الذكر من بلاهة العامة ، هم عليق .

وأولئك المؤلفون المزيّفون الذين يستغلون ضعف المعلمين وفقير الأدباء فيكلفونهم أن يكتبوا المقالات وهم يمضونها ، ويضعوا الكتب وهم يستلحقونها ، ويربحوا الأموال وهم يقبضونها ، هم علق .

وأولئك الرؤساء البلداء الذين يحملون على الموظف الصغير بالإعنات والقهر حتى يكفيهم كل رأى في التقارير ، وكل نظر في الأضابير ، ولا يدع لهم إلا نفخة الشدق بالأمر ، ولطعة الإمضاء بالخاتم ، هم عليق .

وأولئك الموظفون المخادعون الذين يسرقون جهود زملائهم بالمر ،

ويكسبون رضى رؤسائهم بالملق ، ويلقون التبعات عن كواهلهم بالحيلة ، هم علق
ولو شئت لحدثتك عن العليق والعلق فى كل طائفة ؛ ولكن مالنا نبغض
الهابط إلى الصاعد ، ونحرض الساعى على القاعد ، ولا نترك شؤون الخلق للخالق ؟

إن عقرب الساعة يهدف إلى الساعة فى خطى غير منظورة ؛ وإن أنفاس
المساء الندية قد أخذت ترف بطرائفها على الغرف المحرورة . وهأنذا أشعر شيئاً
فشيئاً بحمّاي تذهب ، وبرشدى يثوب ، وبدمى يسكن ، وبذهنى ينتعش ،
وبفكرى يتجمع ، وبقلامى يجرى على الورق بكلام لا أدريه ، وبالغلام يطلب
المقال للجّمع فلا أستطيع أن أصرفه لأعيد النظر فيه !



حَدَّثَنِي الْمَرْحُومُ الزَّهَّائِيُّ

[١٠ يولية سنة ١٩٣٩]

تركية القديمة — غفر الله لها — كانت في دول الأرض معنى من معاني الإرهاب حروف لفظه الشُّم واليُم والسجن والسيوف والسوط ! جمعت في يدها القوية أطراف الشرق والغرب ، ثم أدارت حول تاجها الرهيب هالة من خلافة الرسول فعنت لجلالها الوجوه ، وخشعت لسلطانها الأفئدة ؛ ولكنها لم تستطع أن تثبت ملكها بقوة الروح وبراعة الذهن وعبقريّة البيان كما فعل العرب ، فظلت واقفة أمام شعوبها الثائرة عابسة الوجه معقودة العنق^(١) منشورة الشارب مشهورة السيوف ، فخرها ذلك الموقف نصيبها من طمأنينة السلم ومدنية العلم ونعمة الثقافة . وكان ولائها على الأمصار الخاضعة يحكمون الناس بهذه العقلية الجهول ، فيظهرون الأبهة وينشرون الرهبة ويحصدون الأموال والأنفس بالضرائب والرُشى والمصادرة والقتل . فإذا طالت الولاية واكتظ الوالي ورضى (المابين) وأراد الباشا أن يفكر في الدين أو في العلم أو في الإصلاح ، دل على فهم بليد وغفلة عجيبة !

كنا في ذات يوم نتحدث في هذا وفيما جره على الأمة العربية من الجهل والذل والفقير ونحن جلوس في ندوة السيد صبحي الدفترى محافظ بغداد يومئذ ؛ وهي ندوة تقوم في داره المضيف ضحى يوم الجمعة من كل أسبوع فيندو إليها الوزراء والزعماء والأدباء والقادة ، فيكون لكل طائفة منهم حلقة وحديث .

ولكن الزهاوى كان إذا تكلم أصغت إليه الدار وتحلقت عليه الندوة ؛ لأن جميلاً كان آية الله فى فكاهة الطبع وظرف المحاضرة وحلاوة الدعابة ورقة العبث . وكان له فى إلقاء النادرة لهجة وإشارة وهيئة لا يبرح سامعها مستطار اللب نشوان المشاعر من غرابة ما يرى وطرافة ما يسمع

كان الحديث أول ما بدأ دائراً بينى وبين السيد ناجى الأصيل على أن الحرب وأوزارها استقلت عموها بترك فلم تدع لهم كفاية للسياسة والثقافة ؛ وأخذنا نضرب الأمثال على ذلك مما جرى فى العراق ومصر . وكان المرحوم الزهاوى بجانبى ، ولكنه كان مشغول الأذن بكلمة منافقة فى العقاد والرصافي ألقيت إليه فى خفوت وخبث . فلما تشرّبها سممه وأجاز عليها القائل ببسمة وهزة وسيكارة ، أقبل علينا فسمع طرفاً من الحديث نبض له نابضه فقال : هُوَهُوَ ! إذا حدثتكم مولانا عن حق الولاية من الترك لا ينتهى الحديث ولا ينقضى العجب !

ثم أرسل نكتته الحاضرة وضحك ضحكته الساخرة ، فتنبه المجلس إلى أن الزهاوى سيتحدث ، فسكت المتكلم وأصغى المستمع وتهيات النفوس للسرور الشديد والضحك المتصل ؛ وأخذ الشاعر يقول :

أرسلت إلينا الدولة العلية بعد جفاف الريق والمداد من شكوى الجهل والفساد ، والياً يسير بالعراق فى طريق العمارة والعلم ، فقابله البغداديون باحتفال عظيم وفرح شامل . وكان لى يومئذ يد فى إدارة التعليم كما تريده الدولة ، فقال لى الوالى ذات يوم : إنا نريد أن ننشئ مدرسة للبنات فابحثوا عن دار تصلح أن تكون لها مكاناً . وكان تعليم البنات فى ذلك العهد آملاً من آمال المصلحين

تتقارع حوله الأقلام بالحجج في غير طائل . فقلنا إن الرجل رحب الباع في الإصلاح ، ودللناه على جملة من الدور الكبيرة الصالحة ، فكان كلما دخل داراً قال إن الأبصار تجرح البنات من هنا ، والأسماع تسرق الأصوات من هناك ؛ حتى لم يدع في بغداد داراً إلا عابها هذا العيب من طريق التوهم أو التخيل ! وظهر من تصرف الرجل أن به بلاهة وغفلة ، فخطر لي أن أتداعب عليه لأكشف حاله للناس فلا يستنيموا لحكمه . فقلت له : أفندم ! لم يبق في البلد كله إلا مكان واحد أرجو أن يقع من هواك موقع الرضى . فقال : امض بنا إليه . فذهبت به إلى (منارة سوق الغزل ^(١)) وصعدنا فوقها ، فلم تكد قدمه تستقر على شرفها العليا ، وعينه تقع على سطوح بغداد وهي متطامنة تحت المأذنة العالية ، حتى شهق من الفرح وصاح بملء فيه : نعم ! نعم ! هذا هو المكان المناسب !

ثم نزل وفي نيته أن يتخذ الأهبة من المقاعد والأدراج ليفتح المدرسة ! فقلت له : مولانا ! لا بد أن تجمع الناس قبل الافتتاح لتقنعهم بتعليم بناتهم فإنهم سيئو الرأي في ذلك التعليم . ونجاح الأمر موقوف على أن يعتقدوا فيك التقى والورع . وسأدلك على أقرب الطرق لتحقيق هذا الاعتقاد :

إذا اجتمع الناس واكتظ بهم الديوان جلست أنت في الصدر ، وجلس عن يمينك وعن يسارك رجال المعارف ؛ ثم تشعل (شُبُك) وتأمر كلاً منهم أن يفعل فعلك ؛ ثم تبتدى فتدكر الله بصوت موقَّع على ضربات كفي وأنت تميل رأسك من الشمال إلى اليمين تارة ، ومن الخلف إلى الأمام تارة ، وأنا

(١) منارة عريضة طويلة من آثار العباسيين نهب الناس المسجد من حولها وتركوها قائمة وحدها إلى اليوم

والخافون من حولك نتابعك في كل كلمة وفي كل حركة . ثم حاول أن تأخذك
الحال ويستخفك الذكر ؛ فكما أزد الغم وأرعد الصوت وتشنج الجسم وهاج
الدم ، كان ذلك أحمل للناس على أن يعتقدوا فيك الولاية فتقودهم صاغرين
إلى ما تريد

وصدق الوالى كل ما قلته له تصديقاً لا تتخلله فيه شبهة . وجاء يوم الجمع
واحتشد الأعيان والوجوه يسمعون ماذا يقول الوالى . وجلس الباشا وأنا بجانبه
وشيوخ المعارف من حوله ، وأمر فأشعلت (الغلايين) الطويلة ، وأخذ يذكر
ويترنح وأنا أرسم له ، والشيوخ يذكرون معه . ثم غمزته بعد حين فتهور
(تطور) وأرغى . وتظاهرت أنا بجذبة الوجد وسكرة التجلى فقرعت غليونيه
بغليونى ، ثم أخذت بلحيته البيضاء ورأسه الأصلع ، ففعل بى مثل ما فعلت به ،
وأخذنا نتدحرج على البساط ، فمرة أكون فوقه ، ومرة يكون فوقى ، والشيوخ
يعجّون بالذكر ، والناس يضجّون بالضحك ، وأنا والوالى قد ملكتنا حمياً الولاية
فدخلنا فى صراع عنيف لم يخرجنا منه إلا انقطاع النفس . فجلسنا مسترخيين
نلهث من الإعياء وكلانا ينظر إلى صاحبه نظر الديك المنتوف إلى الديك
لمهيض . وذلك يا مولانا هو الوالى الذى اختير لتعليم الجاهل وتصحيح المريض 1



بين بطء الماضى وسرعة الحاضر

مِنَ الْأَحَادِيثِ الْعَابِرَةِ

[١٧ يولية سنة ١٩٣٩]

— اجلس يا صديقى قليلا نتحدث ! لقد أصبحت كالطيف النافر
لا نسمعك إلا هُتافاً ولا نراك إلا لحماً ولا نجالسك إلا لماماً
— عصر السرعة يا صديقى ! لقد اشتد سائق الركب وأسرع فى النعم
حاديهِ ! فمن تخلف عن قافلة الحياة افترسه الجوع وتخطَّفه العدم !
— أوه ! أجل يا صديقى ! عصر السرعة ، أو عصر الآلة ، أو عصر
الإنسان ذى الزمبلك ! أسماء مختلفة لمرض واحد : هو كَلْب هذه الحضارة
الغربية !

— أسمى نشاط الحياة وسرعة العمل ومساورة الرزق مرضاً ؟ وأين تكون
الصحة إذن ؟ أفى الخنود أم فى القعود أم فى التخلف ؟

— رويدك يا صديقى ! هل تستطيع أن تقول لى : لماذا يسرع الناس ؟
أليقطعوا العمر فى أعوام ؟ أليفنوا الشباب فى أيام ؟ أليقضوا اللذة فى ساعات ؟
وما قيمة كل ذلك فى دَرَك السعادة ؟ لقد كنا نشغل بعض اليوم ، فأصبحنا
نشغل طول الليل ؛ وكنا نعمل باليد ، فأصبحنا نعمل بالآلة ؛ وكنا ننتقل بالجل
فأصبحنا ننتقل بالطيارة ؛ وكنا نأكل مطمئين فى البيت ، فأصبحنا نأكل
مضطربين فى الشارع ؛ وكنا نقيم العرس أربعين يوماً والماتم سنة ، فأصبحنا
نقتصر من الفرح على ساعة العقد ، ومن الحزن على تشييع الجنازة ؛ وكنا
نخلق الكائن الفنى فى دهر طويل من العمر ليكون متعة الذوق والذهن

والعاطفة طول الأبد ، فأصبحنا نصوره في ليلة ليفرغ الناس من تقديره في لحظة .
فهل وجدنا من رخاء الصدر وسكينة الروح مقدار ما فقدنا من راحة البدن
وفسحة الأجل ؟

— وما يدريني ؟ لو أنني أدركت العهدين لجاز أن أحسن الموازنة
وأصيب الحكم ؟

— أنا الذى أدركت العهدين ، وأستطيع أن أقول لك إنى أشعر بالفرق
بين بطاء العيش وسرعته ، كما يشعر الظامى الآمن بالفرق بين الرشيف والجرع^(١) ،
وأدركه كما يدرك المتنزه الشاعر الفرق بين اجتياز الروض على القدم واجتيازه
فى السيارة . لا ريب أن الشارب إذا ترشف الماء وتمززه كان ذلك أنضح لغليله
وأبرد على كبده من العبّ الذى يعجل الرى ولكنّه يؤجل الهناءة . كذلك
المتنزه على قدميه يجد فى كل خطوة عالماً من الجمال ، وفى كل وقفة فيضاً من
اللذة ؛ على حين لا يجد راكب السيارة إلا الخوف فى كل نظرة ، وإلا الخطر
فى كل كرة !

أنظر ! هذا الذى تراه واقفاً بعربته أمام الدار عامل من عمال (أورزدى باك) ،
طلبنا من هذا المتجر بالتليفون بعض متاع البيت وحاجة العيش ، فأرسله
بالسيارة ، وتسلمه الخدم ، ولم نجد نحن الذين كلفتنا هذه الصفقة عشرين جنيتهاً
ما كان يجده المشترون المتذوقون من لذة الانتقاء وفرحة الاقتناء وغبطة القدرة
هذه (العملية) التى لم تستغرق غير ساعة من النهار كانت فى حياتنا
القرية الذاهبة تقتضى من الزمن أسبوعاً ينقضى بين سوابق اللذة وآثارها مذهب

(١) الرشيف : مص الماء بالشفيتين ، والجرع ابتلاعه بمرة . والمثل : « الجرع أروى
والرشيف أنقع »

الأطراف بالأحلام ، مطرز الحواشي بالصور ، لا تكاد الأسرة تفيق من نشوته ولا تنتهي من حديثه !

دعني أعُد بالذاكرة إلى حدود الماضي البعيد فأذكر لك كيف كان رجال القرية يشترون حاجة عامهم من السوق . كان بين كفر دميرة القديم وبين المنصورة ساعة ونصف بالأتان السريعة ، فأصبح بينهما اليوم ربع ساعة بالسيارة البطيئة ! وكان القوم متى باعوا القطن أكثروا الحديث عن المتاع والكسوة والمنصورة ، فتهيأ الأذهان من قبل للسوق كما يتهيأ قلب المؤمن في رمضان للحج ، وفكرُ (المتمدن) في أبريل للاصطياف . فإذا جاء يوم السوق الذي تواطأ رجال (الحارة) على الامتياز^(١) فيه ، كان كل شيء على تمام الأهبة : فالبرادع المنجدة على الحمير ، والأخراج المخططة على البرادع ، والعصى الدقيقة في الأيدي الغليظة ، والدنانير الذهبية في الأكياس العميقة ، والفطائر الدسمة في المقاطف الوعيبية ؛ وكبير (الحارة) قد تنفس عليه الصبح وهو على حماره في جرن القرية يحبس المتقدم ويستحث المتأخر ؛ حتى إذا اجتمعت العير^(٢) واكتمل العدد ساروا في سكة السوق سطوراً منضوداً يتناسق على نظام المقام والسن . وتسمع ضوضاءها من بعيد فتحار أذنك بين الكلام والضحك والنهيق وحث المطايا بالزجر والضرب ، واصطكاك الخوافر بالتراب والحصى . فإذا بلغوا (طالخا) أودعوا حميرهم في (الوكالة) وهي (الجراج) بنفغة اليوم ، ثم وضعوا الأخراج على المناكب ومضوا صامتين إلى المعبر يركبون منه الغمك إلى شاطئ المنصورة وهنا يرفض عن القوم النشاط والزياط والجرأة فيخشعون خشوع الطائر المهيض ، لأن النيل غير الترع ، والسفينة غير النورج ، والمدينة التي يسكنها

(١) امار فلان لبياله : أناهم بالميرة من طعام وكسوة (٢) العير : قافلة الحمير

الأفندية غير القرية التي يخيفها كلها أفندي واحد ! ها هم أولاء يخرجون من ضيق القارب إلى زحمة الشارع فيمشون في سِواء الطريق أو على إفريزه سلاسل سلاسل يتماشكون عند الخوف ، ويتكوتون لدى الهلع ، ويتصايحون عند الشتات ، ويقومون اللحظة بعد اللحظة ريثما يعود الشارد ويلحق المتخلف ، حتى ينزل بهم الدليل على (الخواجة) المقصود ، نزول الغيث على الثرى الجهود ، فيجلس الكهول على الكرامى والشباب على الأرض ؛ وينشر تاجر القماش وعماله الأثواب المختلفة على عيونهم الشاحصة وأيديهم الفاحصة ، فيختلفون على النوع أو على اللون أو على السعر ، فتعلو الأصوات وتعنف الحركات ، وتطول المساومة ، حتى تخور القوى وتصحل الحناجر ويذهب الوقت فيقبلون أخيراً كل نوع يُعرض ، ويرضون كل ثمن يُفرض !

ثم يقومون للغداء فيتخيرون شارعاً غير مطروق يجلسون حلقاً على حاشيته ويأكلون فطائرهم بالحلاوة والعنب والبلح وهم فرحون مبتهجون ، ثم يعودون إلى البديل والعمار فيستأنفون النزاع على الصنف والسعر حتى يغشاهم الليل فيخرجون من سوق (الخواجات) بُجْر^(١) الأخراج والغرائر ، لا يهتدون في النور ، ولا يأنسون بالناس ، ولا ينتبهون للدليل ، فينقطع الضعيف ، ويضل الغافل ، ويكون عند المعبر افتقاد ونشدان وضجة !

فإذا خلصوا بما معهم من المدينة والنهر واقتعدوا ظهور المطى ونشقوا نسيم الحقول انبسطت المشاعر وانطلقت الحناجر فخاضوا في أحاديث السوق ، وأفاضوا

(١) البحر : جمع أبجر ، وهو المثلئ البطن . والخرج وعاء يجعل على ظهر الدابة

لوضع شيء فيه

في أعاجيب البندر، وادعى كل منهم أنه كان أبصر بالبضاعة وأخبر بالسعر
وأقدر على الخواجة !

وكان شباب القرية المنتظرون قد انتشروا مع الظلام في طريق العودة يلقون العير
ويكفونها مخاوف الليل . وكان نساء الغائبين وأطفالهم يتراقصون على أنغام المني
ويتسمعون على السطوح لجب القافلة . فإذا دخلت البلد قابلوها بالأناشيد ،
وقضت (الحارة) معظم الليل في أكل البلح ومص القصب وتساقى الحديث .
ثم يصبح الصباح فتفتح الحقائق وتوزع الكُسي وتفرق الهدايا ، وتغرق هذه
الأسر في فيض من الفرح والمرح مدى أسبوع !

الواقع يا صديقي أن السرعة محنة هذه الحضارة . وذلك أن الحضارة وفرت
على الناس الصحة وأخرت عنهم الموت حتى نموا وكثروا ، فهم يتزاحمون
علي موارد الرزق ، ويتسابقون إلى مظانّ القوت ، فأصبح من لا يجعل
جناحيه في رجليه لا يسبق ، ومن لا يصل بالعمل يوميه لا ينال !



قلبي لنفسى ...

حضر الأصمى يوماً مجلس الفضل بن الربيع وقبالتة فرس مطهم . فقال الوزير لصاحب كتاب الخيل : قم يا أصمى وأمسك كل عضو من أعضاء هذا الفرس وسمّه ، فإذا سمّيته أخذته . فقام وأمسك بناصية الفرس وجعل يسميه عضواً عضواً وينشد ما قالت العرب فيه إلى أن فرغ منه فأعطاه إياه . فهبى يا نفس أن الجود والرق لم يُرفعا من الأرض ، وأنى دخلت يوماً على أمير من الأمراء البهاليل وبين يديه جارية من الغيد الحسان ، ترفل في دِمَقَس (شِكُورِيل) و(سمعان) ، وقال لى هذا الأمير الأديب : إذا سميت ما على هذه الجارية من اللباس ، ووصفت ما فى هذه الدار من الأثاث ، نزلت لك عن الجارية والدار ، وزدتك عليهما ألف دينار ! فماذا تريننى يا نفس فاعلا ، وأنا الذى لا تعزب عنه مادة فى اللغة ، ولا قاعدة فى النحو ، ولا نكتة فى البلاغة ؟ ماذا أسمى هذا المائل على الفؤد الأيسر ، أو هذا المائل على الجبين الأزهر ؟ وماذا أقول فى هذا المزرر على الصدر المشرق ، وهذا المُدَار تحت الثدي الناقى ، وهذا المرسل على الكشح الهضم ، وهذا المفصل على القدم اللطيفة ؟ أنا لا أعرف من غطاء الرأس إلا القناع والخمار ، ولا من لباس الجسم غير الملاءة والإزار ، ولا من وقاء الرجل غير الخذاء والنعل ! فهل تنطبق هذه الأسماء ، على هذه الأشياء ، أم تكون دلالتها كدلالة الأثاث والرياش على كل (موبليات) البيت ، والورد والريحان على جميع أزهار الحديقة ، والجهل والعُجْمَة على كل أدوات السيارة ؟ لا جرم أنى سأعجز على أى حال ، وسأطلب من رئيس مجمع اللغة الجارية والدار والمال !

حلم ليلة صيف

[٢٤ يولية سنة ١٩٣٩]

غربت الشمس في الرمال اللوية المرمضة ومن ورائها في الجو والأرض وهيج كزفير جهنم . وكان القاهريون قد احتشدوا فوق الجسور وعلى الشواطئ وفي الحدائق ينسمون نفَس الماء ونفح المساء وأرج الزهر ، فكأنما لم يبق في البيوت والقهوات والطرقات أحد . وكنت أنا في زحمة الناس أسير هَوْنًا على جسر إسماعيل والذكريات العذاب تنثال على خاطري انثيال الشعاع السنائي بالأخيلة المتحركة على الشاشة ، فأذكر فيما أذكر كيف كان ذوو السراوة والنعمة يخرجون قبل أن يعرفوا أوربا إلى الجزيرة آصال الربيع والصيف في زينتهم الفاخرة ووضاعتهم الباهرة ومركباتهم الفخمة تتراقص بها الجياد المظهمة العتاق ، فيكون للفقراء من عَرْضِهَا منظر فتان من زهرة العيش يشغل الهم عن القلوب ساعة . ثم أبصر فيما أبصر كيف أصبح الجسر والجزيرة — بعد انتجاع المترفين المرفهين فيمبشي وكرلسباد ، ومونت كارلو ونيس — مرآدًا لذوى الفاقة والعاهة والكرب ، لا ترى حولهم إلا بؤسًا ، ولا تسمع بينهم إلا شكوى ! ثم انتهى بي هذا السير البطيء الحالم إلى (كازينو الكبرى) فجلست وحدى في مكان مظلم ، وجعلت وجهي وعيني للنيل المزدان بالقوارب ، وللشاطئ المزدهر بالمصابيح ؛ وأخذت ذاكرتي تغوص وتطفو بين جوف الماضي ووجه الحاضر ، فلا أرى فيما خلقه الزمان والإنسان إلا مآسى دامية ألغها الطمع والأثرة ، ومثلها الضعف والقوة . وكان عقلي القاصر يعلق أحيانًا على ما تعرض

الحافظة من هذه الصور ، فيعجب كيف عجز إلى اليوم دين السماء وعلم الأرض عن التوفيق بين القوة والضعف ما دام متلازمين في الحياة ! أليس منشأ الصراع الأزلى بين المرأة والرجل والعبد والسيد والفقير والغنى والمظلوم والظالم والمستعمر والمستعمر إنما هو القوة في جهة ، والضعف في جهة أخرى ؟ لا يحق لنا أن نسأل لأية حكمة كانت القوة هنا وكان الضعف هناك ، ولكن من حقنا أن نقول : لماذا أعضل على المصلحين أن يحملوا القوى على أن ينزل للضعيف عن بعض القدرة فيستقيم الأمر بالاعتدال ويتحقق السلام بالعدل ؟

كانت ساعة الحرس تعلن بدقاتها المدوية انتصاف الليل حين تهالكت على الفراش وأنا من إدمان الذكر والفكر على حال شديدة من الجهد . فلم تسكد عيناي تغفیان حتى رأيت فيما يرى النائم أن دور الفقراء وأكواخ المساكين في بولاق أمست كالتنانير الموقدة تلمح جدرانها باللهب ، وتسيل سقوفها بالبق ، ويخفق هواؤها بالنتن ، فتركها أهلوها هارين في عتمة الليل إلى الشوارع والميادين ، فظنهم الحراس والعسس « متظاهرين » فطاردهم بالعصى مطاردة الجراد ، فهاموا في الشارع من الذعر هيام القطيع حتى وحدوا قصرًا من قصور الأمراء ، غريقًا في الأضواء والضوضاء ، فلم يتألكوا أن تدفقوا فيه من أبوابه ، على الرغم من دفاع حراسه وحجابه . ثم انساب هذا الجمع الفزع في حديقة القصر الأفيح حتى أهدقوا ببؤرة الضوء ، ثم أخذوا يستفيقون من الذهول والرعب على شذا العطور وسطوع النور ونغم الموسيقى ، واستطاعوا أن ينظروا فماذا رأوا ؟ رأوا حفلة راقصة تحت السماء على بركة الحديقة الواسعة ، وأربابُ النعمة وربات النعم متقابلون على الأرائك ، أو متعانقون على الأعشاب ، أو متخاصرون

في المرقص ، أو متنادمون حول المقصف ؛ وشموس الكهر باء تسطع على الظهور
 البلورية والصدور العاجية وقد انشقت أطواق الفساتين من أمام ومن خلف إلى
 ما تحت الخصور فلم يمسك الثوب عن النزول إلا شريطان على الكتفين رُصعا
 بالماس وعُقدا بالذهب . وكان الجو البليل مشبعاً برّيا العطر وعَبَقَ الخمر وأنفاس
 الغواني وشدّو القيان وهزج المزامير وغرف الأوتار ، فلا يدخل فيه ذو حسٍّ
 إلا هاج واشتهى ، ولا ذو وقار إلا عبث والتهى ، وكانت البركة المسجورة
 بماء الورد واللاوندة تموج بالخور والولدان سابحين أو متسابكين ، يتواثبون
 من النشوة ، ويتجاذبون من الشهوة ؛ وعلى حِفافها المرميين يتراقص القوم
 أزواجاً على أنغام « الجاز » والسواعد ملتفة على القدود ، والشفاه مُطبّقة فوق
 الحدود ، والأثداء رجراجة بين الصدور والنحور ، والأنظار حوّالة بين البطون
 والظهور ؛ وفوق نافورتها الوسيعة البديعة ترقص حول رشاشها الطائر الوهاج
 جوقة من عرائس عبقر ، في غلائل عسجدية من نسج الجن ، وأوشحة مصبّغة
 من صنع السحرة . وكلما ماست الحوريات الرواقص تقلّب عليهن الوشى ،
 واختلف فوقهن اللون ، وانبتق عنهن شعاع من الفتنة يبهّر العيون ويضل
 الأفئدة !

كان القوم في سورة اللهو وسكرة اللذة وحميا الطرب حين أحاط بهم
 مساكين بولاق في بزّتهم الزرّية وهيئتهم الخيفة ؛ فانفجرت أفواه هؤلاء
 من الدهش ، وقفّت رؤوس أولئك من الخوف ، والتقى الشقاء والسعادة
 وجهاً لوجه !

ولكن الله لم يشأ أن يضطرع الغنى والفقر في هذه اللحظة الرهيبة فرأيت

أفواجاً من البق والبراغيث لها أجنحة كالفراش وخرطوم كالبعوض قد خرجت
من ثياب الفقراء وأخذت تلسع الأجسام الغضة والوجوه الناضرة لسع النحل
المُهَاج ! فتراكض الداعون والمدعوون هاربين في الحديقة وهذه الطير الأبايل
في ظهور النساء وأقفية الرجال تخزهم بالسم حتى أخرجتهم إلى الشارع . وهناك
كان الجند يترقبون خروج (المتظاهرين) فلم يكادوا يرون هؤلاء حتى ركبهم
بالعصى وساقوهم سوق الأنعام إلى القسم فقصوا ليلهم الباقي على الأسفلت ، وخلا
المقصف والمرقص والقصر لطرائد البؤس والشرطة فأكلوا مريضاً وشربوا هنيئاً
وناموا ملء الجفون على الأسرة المذهبة !

ثم كرّبنى الحر فصحوت من النوم ، قبل أن يرينى الحلم في ضوء الصباح
فضيحة القوم !



تَجْرِيرَةُ النَّازِيَّةِ عَلَى الْإِنْسَانِيَّةِ

[١٩ أكتوبر سنة ١٩٣٩]

يَا ضَلَّةَ الْعَقْلِ وَيَا حَيْرَةَ الْمُنْطِقِ !

إن أمام التاريخ اليوم رجفة من رجفات الهول والهلاك لم يبتلَ بمثلها الإنسان منذ دحا الله هذه الأرض . فهل يستطيع مهما سبر أغوار النفس ، وكشف أسرار المجتمع ، ورصد أطوار الحوادث ، أن يقول فيها أكثر مما يقول في العواصف والزلازل والبراكين والأوبئة ؟

هل يستطيع التاريخ بفلسفته وحذقته أن يفسر لنا وللأجيال كيف تسنى خمسة نفر من عباد الله الضعاف ، لا هم آلهة ولا هم أبالسة ، أن يسيطروا على الشعب الألماني الضخم وهو آية النبوغ البشري في العلم والأدب والفلسفة والفن فيشلوا تمكيده ، ويلغوا إرادته ، ويمسخوه قطعاً جراراً من أفيال جهنم ترمى العالم كله محاربيه ومسالبيه بالبوار والدمار ، أو بالقزع والمجاعة !

لو كانت هذه النازية الهتلرية قائمة في سلطانها وطغيانها على مبدأ من مبادئ الخير ، أو مذهب من مذاهب الإصلاح ، لالتسنا لخضوع الشعب الألماني لها ، واضطراب العالم الإنساني بها ، مساعاً في العقل أو مثلاً من التاريخ ؛ ولكنها ضلالة من ضلالات العصبية والعنصرية والأثرة والغرور استبدت بفكر ناثر وعقل حائر وهوى طموح ، فظنها الفوهرر رسالة من رسالات الله أوحاها إليه في كتاب (كفاحه) ، وأوجب أداءها عليه بقوة سلاحه ؛ فهي شريعة تنسخ كل كتاب غير كتاب هتلر ، وتمحو كل سيادة غير سيادة

النازى ، وتمحق كل عنصر غير عنصر الجرمان ، وإذا كان فى الساميين وهم فى رأيه حثالة الناس رسالات ورسلى ، فكيف لا يكون على الأقل فى الآريين وهم خلاصة الأجناس رسالة ورسول ؟

ولكننا عرفنا إله الناس الذى اصطفى من الساميين موسى وعيسى ومحمداً ليبلغوا رسالات الهدى والحق والخير فألقوا نوافر القلوب بالحب ، وأقاموا قواعد المجتمع على العدل ، وخففوا متاعب العيش بالإحسان ، وضموا وفاء العهود بالذمة ، وجعلوا الناس كلهم سواسية فى حق الحياة لا يظغى جنس على جنس ، ولا يبغي قوم على قوم . فمن هو يا ترى إله الألمان الذى اصطفى من الآريين هتلر وجورنج وهيس وريينتروب ، ليبيدوا أمم العالم ، ويدمروا حضارة الدهر ، ويحطموا روائع الإنسان ، ويستبدلوا بشرائع الله وقوانين الضمير سياسة لا تعرف براً بوعده ولا وفاء بعهد ولا ثباتاً على مبدأ ؟

يا ضلة العقل ويا حيرة المنطق !

أبعد أن تغفل على طول القرون هدى الله فى الغرائز والأخلاق والقوانين والنظم ففازت الحرية ، وسادت الديمقراطية ، وعلت الإنسانية ، يمكن أن تقوم فى العالم اليوم بحلة مجرمة الوسيلة والغاية كمنحلة النازية تحمقر أجناس الناس ، وتنكر حقوق الشعوب ، وتزدرى قواعد السلوك ، وتستحل فى سبيل السيطرة والغلب الغدر والمكر والكذب وغش السياسة ونقض العهود وإنكار المذهب !

ليت شعرى ماذا يقول أحفاد لوثر وكنت وجوته وتهوفن وقد رأوا زعيمهم الأديب الفنان يقول بلسان دولته ولا يصدق ، ويعاهد بشرف أمته

ولا يبنى ، ويجعل من شعبه الصبور العامل غولاً للسلام يقذف الرعب في كل قلب ، والشقاء في كل منزل ، ثم يدع صليبه النازي المعقوف يتحطم رويداً رويداً بين مطرقة الشيوعية ومنجلها بعد أن ناصبها الغداء المر والهجاء الفاحش !
لقد قلنا في كلمة سابقة : « إن هذا الرجل العجيب استطاع في ست سنين ونصف أن يبنى من الحديد والنار والسم والثأر والعزيمة والعصبية دولة كانت بعد صلح فرساي تتوارى من الخجل ، وتنفاني من الجوع ، وتهالك من الدين ، وتضع أيديها على هيكلها فلا تجد إلا شلواً لا صورة له ولا حس فيه ، فأصبحت بما نفخ فيها من روح الكفاح ، ووضع في أيديها من قوة السلاح ، تملك على الدول الحياة والموت ، وتقضي على الأمم بالسلام أو الحرب . كل ذلك فعله من غير ثورة ولا حرب ، فكان حريّاً أن يتبجح في آخر خطابه التاريخي المشهور بقوله : أأست حقيقةً بأن أطلب إلى التاريخ أن يعدني في الذين حققوا أعظم ما يسمح الإنصاف بطلبه من رجل ؟ » . نعم قلنا ذلك أيام كان هذا الرجل الشاذ قابضاً على عجلة القيادة بحزم الربان الماهر وحكمة القائد البصير . وما كنا نتوقع أن يبتليه الله بضعف الإنسان الفرد على هذا النحو المهلك والقضاء العاجل ، فيدور برأسه الغرور ، ويذهب بنفسه العناد ، حتى لم يعد لشهوته حد تفغ عنده ، ولا لنزواته (فرملة) تحبس عليه

هذا هو هتلر الذي أعجب به شباب الأمم بالأمس يأخذه اليوم حياح السلطان وعُرام القوة ، فيُلقي عامداً بقومه وبالعالم في سكير الحرب ، ثم يقف في ضوء لظاها المشبوب في الأرزاق والأهلاق والأنفس وفي يديه قيثارة نيرون يعبث بأوتارها ويضحك !

ماذا عسى أن يكون مصير الشعوب الصغيرة التي ضمنت على ضعفها أن

تعيش في حمى الشرف والعدل والسلام ، إذا تغلب هذا الطغيان النازي الذي يريد أن يحكم العالم على أساس استعباد الضعيف ، وتسخير قوى الناس والطبيعة لسيادة عنصر واحد وإرادة رجل واحد ؟

إن ميراث الإنسانية المتدينة المتمدنة من أخلاق وثقافة ونظم هو اليوم في حمى الدول الديمقراطية الحرة تدافع عنه وترعاه وتمسك به الأرض أن تميد وتبيد . وليس الأمم الصغيرة سبيل للحياة الحرة إلا أن تساهم في هذا الدفاع بإخلاص وقوة ، فإن ضمان العيش للقلة بجانب الكثرة ، وللعجز في كنف القدرة ، هو هذه الفضائل الاجتماعية التي نبتت في أصول الدين ونمت في ظلال الديمقراطية . أما إذا شاء القدر — ومعاذ الله أن يشاء — أن يتحكم هوى الطغيان في حقوق الإنسان فيذهب بالإخاء أثره جنس ، وبالمساواة سيادة شعب ، وبالحرية استبداد فرد ، فقل إنها دنيا للشر جديدة نرجو ألا يكون لنا فيها وجود .



السلام

ترجمة صورة



سبحانك يا سلام !!

لقد بسطت على الأرض الحروبة جناحك الرفيق المشيل ، فإذا الدار أمان
والفرع اطمئنان والقلوب مؤتلفة والشمل جميع !
هذه ساحة الحرب أصبحت مرعىً للقطيع الراجع ؛ وهذه آلة الموت غدت
كنًا للحمل الوادع ؛ وهذا الوعل النطاح في أمسه لا يدرى ما ذا يصنع بقرنيه
في يومه ؛ وهذا الكلب الحارس نسي اللص والذئب فاستغرق في نومه ؛ وهذه
الجميلة تنعم بعيشها الغرير تحت سماء الأمن ، فلا هم على والد ولا حزن على ولد !

تباركت يا سلام !!

لقد مددت على الدنيا المكروبة ظلك الرخى الوارف ، فإذا الزرع جميم
والخير عميم والحال متسقة والدهر مطيع !
هذه الغنم ترعى أثيث العشب هائلة فلا قنابل ولا نيران ؛ وهذه الطير
تسبح في صفاء الجو هادئة فلا صواعق ولا دخان ؛ وهذه السفينة تمخر في عباب
البحر مطمئنة فلا طرايد ولا قرصان ؛ وهذه الطبيعة تفرق في فيض النعم
ورضاء الفردوس مسترخية فلا خصام ولا عدوان !

حنانيك يا فاطر السموات والأرض !

لقد سميت نفسك السلام ، وسميت ذاتك المؤمن : فلماذا جعلت للإيمان
شيطاناً واحداً لا أكثر ، وجعلت للسلام شيطانين اثنين هما الدُّشَى وهتَلر ؟ !
اللهم إن في السلام نعمة ، وإن في الحرب حكمة ؛ وبين نعمتك وحكمتك
ضلت عقول الناس !



بَيْنَ الْإِلَابِ وَالْحُبِّ

[١٦ أكتوبر سنة ١٩٣٩]

لقيته بعد تسعين على قهوة (تريانون) رائع الشباب رائع الصورة لطيف
الشارة كما عدته . وكان هذا اللقاء الجميل مفاجأة سارة من مفاجآت الغيب
بان أثره على وعليه فلم ندر كيف نسلم ولا ماذا نقول

هذا الشاب الطير من أسرة لبنانية مسلمة ؛ تأملني حيناً من الدهر في
أحد المعاهد الكبرى بالقاهرة ؛ واتصل بيني وبينه الود بعد أن تخرج فيه .
ثم رحل إلى العراق يزاول التعليم به ؛ وانحصر وجوده بين بغداد وبيروت فلم
أعد أراه . فلما رأيته بالأسكندرية في هذه الساعة على هذه الحالة مثل أمام
عيني جزء مشرق من الماضي القريب كاد يغرقه في لجة النسيان حدّثان الزمن .

— متى قدمت مصر يا عبد الحميد وكيف أخفيت عني هذا القدوم ؟

— قدمتها منذ ثلاثة أسابيع . وقد علمت أنك هنا فبحثت عنك في كل

مقهى وفي كل شاطئ فلم أجذك . ومنذ يومين لم يعد لي في الأسكندرية عمل

بالره لا أمل إلا أن ألقاك ؛ فإنني فوق أن أراك أريد أن أسألك عن أمر شغل بالي
وشوقاً على

— خير إن شاء الله ؟

فقال الصديق الشاب وهو يحاول أن يكظم شيئاً في نفسه بدت أماراته في

نظراته القلقة وصوته المأخوذ ولهجته المترددة :

أريد أن تداني على كتاب في الإنجليزية يبين روح الإسلام وحقيقة

مبادئه وأصول أحكامه بطريقة يقبلها الرجل العصري المثقف

— هل وقعت - معاذ الله - في أزمة من أزمت الشك ؟

— كلا ، وأحمد الله على قوة الإيمان وثبات العقيدة ؛ إنما يتعلق الأمر
بإنسان أحبَّ إلىَّ من نفسي ، فتنه عن دينه فتون التعليم الأجنبي وفسوق البيئة .
ولقد وقع اليوم في يدي كتاب في العربية عنوانه : « إياذا أنا مسلم » فراقني
أسلوبه وأرضاني منهجه ، ولكن صاحبي على مصريته لا يعرف العربية
ولا يثق بما كتب فيها

— ألا تستطيع أن تقدمه إلى فأعينك على إقناعه وإرجاعه ؟

فارتبك الفتى وكسر من طرفه . ثم ما لبث أن خفَّض جأشه وأرسل
نفسه وترك تحفظه وقال :

— ما لي أخفى الأمر عنك وقد كنت لي في مشكلات الشباب والعيسر؟
المشير الصادق والناصح المخلص ؟ إن الأمر يتصل بفتاة مصرية هويتها منك منذ
سبع سنين ، أبوها طبيب من الأطباء الموظفين النابهين تعرفه كما أعرفه ،
وأما إنجليزية دخلت في الإسلام لئلا تحرم الإرث كما يقال ؛ والفتاة بارعة
الجمال رضية الأخلاق رقيقة القلب عفيفة الدخلة ، تلقت دروسها الابتدائية في
مدرسة أمريكية بالقاهرة ، والثانوية في مدرسة إنجليزية بلندن ؛ فهي
الجسم والعقل والروح مثال المرأة الحديثة الصالحة . لقيت أسرتها أول مرة في
إحدى مدن لبنان فألف بيننا تجارب الشعور وتقارب الثقافة ؛ وتمكنت
الألفة بيني وبين الفتاة بحكم الطبيعة والسن ، وتأثير اللهو والرياضة ؛ فما كنا
نفترق في اليوم والليل إلا ساعات النوم القليلة . وكان أبوها يساعدان هذا
الهوى الوليد بإطلاق الحرية وإرصاد الفرص واعتقاد الثقة ؛ فلم نعد إلى القاهرة

معاً حتى كان هذا الحب عانياً جباراً يذهب بقلبي وقلبها كل مذهب . ثم
 دأبت على زيارتها في بيتها كل يوم في النهار أو في الليل فنقضى أوقات الفراغ
 في القراءة أو في النزهة أو في التنس أو في السينما ! وفي كل لحظة تمر أو لفظة
 تقال يكشف كلانا في الآخر دليلاً جديداً على أنه عروس أحلامه وموعد غده
 كانت تسافر أوائل الخريف إلى لندن فيكون بيننا بريد دائم بالفكر
 المستمر والطيف المثار والكتابة المتصلة . فلا ندع فكرة يبعثها الخيال أو
 الشوق ، ولا كلمة يوحىها العقل أو القلب ، إلا تبادلناها بالتفكير أو التذكر أو
 الحنين أو الكتابة في النوم أو في اليقظة . ثم تعود أواخر الربيع إلى القاهرة
 فيعود أنسنا باللقاء ، وسرورنا بالحديث ، ومرحنا بالرياضة ، فلا نترك منزهاً
 ولا ملهى في العاصمة والضاحية إلا أشهدناه على آية من آيات الحب ، أو ساعة
 من ساعات السعادة

ثم رحلتُ إلى بغداد فنشأت في نفسي رغبة شديدة في بناء بيت وتكوين
 أسرة ، فخطبتها إلى أبيها في شتاء هذا العام واستقر رأينا على إعلان الخطبة في
 الصيف متى عدت من بغداد وعادت هي من لندن

جاء الصيف يا سيدي فعدت وعادت ، ونزلتُ على عطف أبيها في مصيفهما
 بالرمل نزول الإبن الموموق على حنان أبيه بعد غيبة طويلة . ولكني رأيت
 الوجوه غير الوجوه ! فلا البشر بادٍ في عين الأم كما شهدت ، ولا السرور جارٍ
 على ثغر الفتاة كما عهدت . فلما سألت السيدة عن سر هذا السهوم قالت لي :
 ادخل على ميمى الغرفة فلعلك تجد عندها الجواب

دخلت على ميمى فوجدتها جاثمة بجانب السرير تضرع وتبكي . فلم أتمالك
 أن جثوت بجانبها مغرورق العين مستطار الفؤاد ، وأخذت أنفُس من كربها

وأسألك عما بها ، فقالت وهي تنشج بالبكاء :

— مستحيل ! مستحيل ! لقد أحببتك حتى لم يعد لي هوى إلا إليك
ولا فكر إلا فيك ؛ ولكنني لا أستطيع الزواج منك لأنني مسيحية متعصبة ،
وأنت مسلم محافظ . ولا سبيل إلي أن أتزوج كما تزوج أبي وأمي ؛ فإني وأنت
صريحان : وأنا أحتقر دينك بقدر ما أحترمك ، وأبغض نبيك بقدر ما أحبك

— ومتى دنت بالنصرانية ياميمي وأنا وأبواك لا نعرفك إلا مسلمة ؟

— دنت بها منذ رحلت إلى لندن ، وجعلت الأمر بيني وبين الله حتى
أخبرتني أمي بخطبتك فلم أجد بداً من إعلانه

— وهل درست الإسلام ياميمي قبل أن ترتدي عنه ؟

— درستُه على الراهبات في مصر وفي إنجلترا وعلمت عنه ما أشفق على
وجدانك من سماعه

— لقد درستُه على خصومه ومنكريه ، فكيف يسوغ في عقلك أن يكون
كلام الخصم على الخصم حجة ؟

— وعلى من كنت تريد أن أدرسه ؟ أعلى أبي وما سمعته مرة يذكر الله ،
ولا رأيته يوماً يدخل المسجد ؟ أم على أمي وقد كانت مسيحية لا تؤمن فأصبحت
مسلمة لا تعتقد ؟ وهل كان في مقدوري أن أغالب الفطرة وفي نفسي إلى الله
شوق نازع لا أملك الصبر عليه متى رأيت السبيل إليه ؟

— أنا كفيل بأن أعلمك ما تجهلين من حقيقة الإسلام ، فإن أقنعتك
تزوجتك ، وإلا رجعت الأمر بيني وبينك إلى الصداقة ، فإنك لا تزوجيني
مسلمة ، وأنا لا أتزوجك مسيحية

وأخذت منذ ذلك اليوم أشرح لها مبادئ الإسلام على قدر ما يستطيع

مسلم تخرج في الجامعة الأمريكية ؛ فكانت تصغى لما أقول وتعجب به . ولكنها كانت تتهمنى بتلفيق ذلك مما أعلم من فضائل الأديان وأصول الأخلاق ، ثم أنسبه زوراً إلى الإسلام . فاتفقنا على أن أقدم إليها كتاباً عن الدين الإسلامي في الإنجليزية ، وأن نؤجل البت في أمر الخطبة إلى مثل هذا الشهر من قابل . فهل تستطيع يا أستاذي أن تدلنى على كتاب في هذا الموضوع يجعل زواجى منها حقاً لا ريب فيه ؟

فقلت له والأسى يكاد يعقل لسانى : إن كتاب روح الإسلام للأستاذ الهندى مير على هو طلبتك ، فلعلك تصيبه في مكاتب الأسكندرية . وعسى أن نعيش يا قارئى العزيز حتى أكتب لك الفصل الأخير من هذه الرواية !



منهاج لوزارة الشؤون الاجتماعية

[٢٣ أكتوبر سنة ١٩٣٩]

ما أظن أحداً من آحاد المصلحين ثلجت^(١) نفسه لإنشاء هذه الوزارة مثلاً، ثلجت له نفس الرسالة . ذلك لأن سبيلها هي التي تجاهد فيها الرسالة ، وخطتها هي التي تسير عليها الرسالة ، وغايتها هي التي تقصد إليها الرسالة ؛ فكانها قامت لتحقيق آمالها بالتنفيذ ، وتطبيق مبادئها بالعمل . ومن ذا الذي لا يبلغ صدره إذا رأى قوله قد صار فعلاً ، وخياله قد أصبح حقيقة ؟

لقد عاجلت الرسالة مشكلة الفقر على وجوهها الشتى في بضع عشرة مقالة خرجت منها على أن الحرمان كان في الأكثر الأغلب علة ما يكابد المجتمع من جرائم القتل والسرقة ، ورذائل البغاء والتشرد . فلو أن أولى الأمر عاجلوه بما عاجله به الله من تنظيم الإحسان وجباية الزكاة لما وجدوا في البيوت عائلاً ، ولا في الطرقات سائلاً ، ولا في السجون قاتلاً ، ولا في المواخير ساقطة . ولكننا تركنا الموضوع قانطين من رحمة القلوب ، لأننا وجدنا غاية الأمر فيه لا تعدو البكاء والاستبكاء ، ما دام الحكم في يد الأقوياء ، والتشريع لألسنة الأغنياء ، والغلب والسبق للناب العضوض والجناح المحلق . فلما وفق الله الحكومة القائمة لأن تجعل لآثام الجهل وآلام الفقر وأرزاء المرض وزارة تعالج كل عراض لها ، وتساعف كل منكوب بها ، وتقطع كل علة فيها ، قرّبت منازع الإصلاح

(١) ثلجت نفسه كبليج صدره : سر

وسفرت وجوه المنى . ثم كان من مصاديق الأمل ودواعي الثقة أن تولى هذه الوزارة رجل من رجال الجد والعزيمة لم يصبه الله بداء الكلام ، ولم يشغله بحرفة السياسة ، فاختار لمشورته ومعونته وأمره طائفة من قادة الرأي ودعاة الإصلاح ؛ ثم مضى بهم في طريقته المرسومة إلى غايته المعلومة يقظ القلب نافذ المهمة لا يُعَمَّى وجهه ضلال ، ولا يقطع سبيله عقبة

ولكننا لاحظنا أن وزارة هذا الرجل السكوت الفعول قد أخذت في هذه الأيام تسرف في نسج الكلام وقطع الوعود ووضع المشروعات وتقديم المقترحات وتأليف اللجان ، فذكرنا بذلك وزارة المعارف في عهد من العهود إذ كانت تؤلف كل ساعة لجنة ، وتضع كل يوم مشروعاً ، وتسب كل أسبوع نظاماً ؛ ثم ينتهى الأمر بأكثر أولئك إلى ما تنتهى إليه الفقائيع الغازية على وجه الماء الآسن !

لقد أكرهتنا حكوماتنا المتعاقبة على أن نفهم أن تأجيل الموضوع للبحث معناه إهماله ، وتحويل المشروع إلى لجنة معناه إغفاله . فهل يجوز أن نخشى مثل ذلك من هذه الوزارة الوليدة ، وهى لم تُبتَلْ بعدُ بمجمود الموظفين الآخرين ورؤوس الوزارات الأخريات ؟

إن الدم الجديد فى هذه الوزارة ، والروح المتوثب فى هذا الوزير ، يُذهبان الخيفة من جهة التفريط والنكول ، ولكنهما يوجبان الحيطة من جهة الإفراط والتهور . وكفى بهذه الظنة باعثاً على كتابة هذه الكلمة .

إن وزارة الشؤون الاجتماعية تجديد رسمى لدعوة النبوة ؛ وهى بحكم

وجودها وطبيعة عملها وزارة الجمهور ؛ فلا مندوحة لها إذن عن نهج سبيل الدين في محاربة الفساد بالأناة والحكمة . فإن مصادمة الوجود بالطبيعة مدعاة إلى الفشل ، ومقاومة المألوف بالعادة مجلبة للنفور ؛ ووسيلة النجاح في هداية العامة الحيلة والتدرج . والله عزت حكمته لم يشأ أن يقيد الزواج ويحرم الخمر ويحظر الرق دفعة واحدة ؛ وإنما استدرج الغرائز والأهواء إلى حدود المعروف شيئاً فشيئاً ، حتى اطمأنت إليه ورغبت فيه

ما للوزارة على حداتها تبدأ منهاج الإصلاح من آخره ، فتريد أن تعرض لما يتصل بالحرية أو بالعقيدة كأن تقيد الزواج وتحدد السهر وتحرم على بعض الناس بعض اللهو ؟ إن ذلك وإن كان له أثره في صلاح المجتمع لا يحسن أن أن يكون أول ما تعمل . وربما كانت هذه الأمور التي تنكرها ظواهر لبعض الأدواء الاجتماعية تزول بزوالها . أما الرأي الذي تأمن عليه من المعارضة والفوضى والتشتت فهو أن تحرر دستورها الإصلاحى تحت ثلاثة عناوين هى الفقر والجهل والمرض ، فإنها جُماع العلل التى يصدر عنها كل فساد وينجم منها كل شر . ثم تحاول بجهداتها المتصل فى شتى الميادين أن تمحو الأمية وتقتل الجوع وتجتث أصول العلة ، حتى إذا وجدت أمامها بعد ذلك شعباً صحيح الجسم نير الفهم مكفى الحاجة استطاعت أن تأخذه بوسائل الكمال كتوحيد الأزياء وترقية الغناء وتهذيب التقاليد وتنظيم الأسرة وتمدين الجماعة . على أن ذلك كله يكتسبه الشعب من ذات نفسه متى أدرك قسطه الضرورى من ثقافة العقل والروح والبدن . وعسى ألا يقع فى ظنك من هذا الإجمال أنى أخطأ بين اختصاص هذه الوزارة واختصاص وزارات المعارف والأوقاف والصحة ؛

فإن وزارة الشؤون الاجتماعية بحكم اختصاصها الشامل لحياة الجماعة في المدينة والقرية لا بد أن تتصل بالثقافة والسلامة والإحسان من جهاتها العامة ؛ ولكنها لا تعلم كالأستاذ ، ولا تعالج كالطبيب ، ولا تحسن كالواقف . وسترى فيما يلي كيف يتميز عملها من عمل غيرها ، حين نفصل الكلام في هذه العناوين الثلاثة : الجهل والفقر والمرض

الجهل

الجهل كما يظهر لأدنى نظر هو علة العلل في اضطراب الأسرة ، وانحطاط البيئة ، وفساد المجتمع ، وأفن الرأي العام . فإذا وُفقت هذه الوزارة بالفعل إلى أن تمحو الأمية وتنسخ الجهالة فقد تيسر لها أن تقول فُتفهم ، وتكتب فُتقرأ ، وتشير فُتتبع . وإذن يخف عنها عبء الإصلاح باعتماد كل امرئ على نفسه في تدبير عيشه من طريق الكفاية فلا يكون فقر ، وفي علاج بدنه من طريق الوقاية فلا يكون مرض ، وفي تهذيب خلقه من طريق الدراية فلا يكون شر . ذلك إلى أن الشعب متى أدرك القدر المشترك من المعرفة قوى عقله فيعمل عمله بروية ، ونضج رأيه فينتخب نائبه بحرية ؛ وبروية العزيمة تثمر فروع الإنتاج ، وبحرية الرأي تثبت أصول الديمقراطية

ولكن كيف نكلف وزارة الشؤون الاجتماعية أن تساهم في نشر المعرفة وهناك على مدى قريب منها وزارة المعارف بميزانيتها الضخمة وجامعتها الفخمة ومدارسها المختلفة الدرجات والغايات ، ورجالها المتعددي

الألقاب والشهادات ؟ فهل يسوغ في العقل أن تترك هذه الوزارة الفنية في مصر بعد قرن ونيف من لا يعرف حروف الهجاء ، ولا يدرى أفى الأموات هو أم في الأحياء ؟

الواقع الذي يحار في تعليله الذهن الفلسفي أن التعليم الحكومي والأهلى ، والدينى والمدنى ، والوطنى والأجنبى ، لم يستطع أن ينفي الأمية في مصر — وهى ملتحق بحرين ومجتمع ثلاث قارات — إلا عن ٢٥٪ من الذكور و ٨٪ من الإناث . ونفي الأمية لا يثبت العلم ؛ ولكنى أسلم بأن هؤلاء تميزوا عن نظرائهم أولئك بإدراك الحياة الإنسانية على نحو معقول . فإلى من نكل تعليم البقية وهى سواد الأمة وعماد الدولة وعدة الإنتاج ؟ إن تثقيف وزارة المعارف لا يشمل كل الصغار لأن قانون التعليم الإجبارى لم يُشرع ، ولا يقبل كل الكبار لأن قانون التربية لا يجيز ؛ فلا يبقى إذن للذين أفلتوا من القيد أو شبوا عن الطوق إلا وزارة الشؤون الاجتماعية ؛ فهى وحدها التى تستطيع أن تعلم الزراع والصناع والعمال والخدام والباعة من كل سن وفى كل مكان وعلى أى حالة

أما كيف يتهيا لوزارتنا الجديدة بلوغ هذه الخطة فسبيله القصد إنشاء المدارس الشعبية الليلية في معاهد المدن ومساجد القرى ، وحشد العامة إليها عن طريق الإغراء المادى والإكراه غير المباشر ، كأن يُفرض للمنتهين والمتفوقين جوائز مالية ، وأن يُشرَط على طلاب الرخص للسعى أو لخدمة أن يلموا بالقراءة والكتابة ؛ ولسنا بصدد التفصيل فذلك عمل له وقته وله أهله هذه المعاهد الليلية المبثوثة في أرجاء الوادى وأعطافه وأريافه ستكون

— فضلاً عن عملها الثقافي — أداة مضمونة لنشر الإصلاح الاجتماعي في جهاته المتشعبة وغاياته المتعددة ، فإن الوزارة تستطيع أن تجعل من كل فرد يتعلم فيها بوقاً رافعاً لأصوات وعاظها ومرشديها الذين يساعدون بالمحاضرة فيها على تقوية المدارك وتهذيب العادات وتنظيم العيشة وتدير الصحة . وسيكون كل معهد من هذه المعاهد الشعبية وحدة اجتماعية يتفرق عنها الضوء والحرارة في كل بيئة وفي كل أسرة . فإذا قامت الوزارة بذلك ثم حملت وزارة الدفاع على أن تعلم الجيش المرباط والجيش العامل فقد ظفرنا بقتل الأمية في قليل من الزمن بيسير من النفقة . وإذا قتلنا الأمية فقد أحيينا في الشعب خمود الحس وموات الضمير ومعنى الواجب

ستقول الوزارة من أين لي المال وقد ولدتنى الضرورة لأعيش على ما طمح من رجال الدواوين وما فضل من مال الوزارات ؟ وجوابنا أن الوزارة التي لا تقوم على المال ، لا تنتج غير الأقوال . وربما كان ذلك علة ما نرى من نزوع هذه الوزارة في سياستها الإصلاحية إلى الوسائل الكلامية حتى حدثتها نفسها أن تنشئ لها مجلة خاصة بها تملأها بالمقالات والمناقشات والقصائد والحكم والأمثال لتكون كمجلة (التعاون) و (زميل الفلاح) و (المجلة الزراعية) و (الصناعة والتجارة) آلة شرهة لاستهلاك الورق والخبر في غير رحمة ولا جدوى !

يا معالي الوزير ، إن فن الإنشاء مستقيم فلا يحتاج إلى إصلاح ، وإن سيل الكلام دافق فلا يفتقر إلى رِفْد ، وإن ميادين العاصمة مكتظة بالمجلات فلا تتسع إلى زيادة ، وإن ما عندكم من م ذخور البلاغة لا يختلف عما عند

الفاس . فلماذا نؤثر النظر على العمل ونبذر الجهد والمال والوقت في استثمار الصفصاف واستيلاء العقيم ؟ إن الذين يستطيعون أن يقرأوا المجلة العتيدة هم بثقاتهم مستغنون عنها ، والذين بهمكم أن يقرأوها لا يستطيعون لأُميتهم أن يستفيدوا منها . فأعدوا القارىء قبل أن تُعدوا المجلة ؛ وإعداد القارىء هو الميدان الأول لجهاد الوزارة . فإذا انتصرت فيه فقد ضمنت النصر المؤزر في سائر الميادين

على أن تثقيف الشعب من طريق التعليم في هذه المدارس الشعبية لا يكلف الحكومة أكثر مما تكلفها الفرقة القومية أو مجمع فؤاد للغة العربية . والخير الذى تصيبه الأمة من وراء هذه السكتاتيب المتواضعة لا يجوز أن يوازن به عمل لا يزال صلاحه في ذاته أمراً مشكوكاً فيه !

هذا بعض ما يدخل تحت عنوان (الجهل) أجملناه في هذه الأسطر لتمضى الوزارة في سبيل التفكير فيه ، وفي ظننا أنها ستجد في طوايا بحثه أبواباً للعمل وسبلاً للإصلاح تغنيها عن المشروعات المبتسرة التى تلقفها من المجالس ، والموضوعات المرتجلة التى تأخذها عن الصحف

الفقر ...

الفقر هو العنوان الثانى فى الدستور الإصلاحى لوزارة الشؤون الاجتماعية كما نقترح أن يكون . وإذا قلت الفقر فقد عنيت بهذه الحروف الثلاثة كل ما يقع فى ذهن المرء وخياله وحسه من معانى البؤس والألم والأسى والجريمة والرذيلة والذلة والمسكنة والعداوة والانتقام والثورة . وأى مجتمع يتسنى له أن يلتئم

أو ينتظم أو يسعد ما دامت هذه الآفات تلح عليه بالاعتلال والانحلال والوهن ؟
وأنت إذا تقصيت بالنظر المتأمل أحوال الناس وأهوال الدنيا وجدت تنازع
القوت هو المشكلة الأزلية للحياة ، والفقر هو النكبة الأبدية على النظام ،
والجوع هو السبب القريب أو البعيد لكل ثورة في تاريخ الأمم وكل جريمة
في حياة الأفراد . فهل في حدود الجائز إذن أن نطلب إلى وزارة الشؤون الاجتماعية
أن تبديد الفقر وتقتل الجوع كما طلبنا إليها أن تمحو الأمية وتنسخ الجهالة ؟
لا وأسفاه ! لأن شمول العلم أمر تقتضيه الفطرة وتجزئه القدرة ، ولكن شمول
الغنى شيء تأباه الطبيعة ويمنعه العجز . وما دام الناس مختلفين في الذكاء والقوة ،
فلا بد أن يختلفوا كذلك في النفوذ والثروة ؛ والتفاوت في الطبع والكفاية
والحيلة والوسيلة مبدأ مقرر في الطبيعة ونظام مسلم في الدين . إنما نطلب إلى وزارتنا
المصلحة أن تخفف من نوائب الفاقة وتكفكف من غوائل الجوع بتقريب
المسافة بين الغنى والفقر ، وتنظيم العلاقة بين القوة والضعف ؛ فإنها إن نجحت
في تحقيق هذين الأملين فقد نجحت في إقرار السلام في النفوس وإحكام النظام
في المجتمع

ولكن كيف تستطيع وزارة الشؤون الاجتماعية أن تخفف آلام هذه
العاهة المستديمة ما دامت لا تستطيع أن تحسم أسبابها بالطُّبَّاب الناجع ؟ تستطيع
ذلك من طريق الدين ومن طريق التشريع ومن طريق الإدارة . فأما ما تستطيعه
من طريق الدين فجباية الزكاة ، تنظيم الإحسان . وجباية الزكاة فريضة على
الحكومة المسلمة ، كما أن أدائها فريضة على الشعب المسلم ؛ فلا يجوز للوزارة
أن تكل أمرها لحرية الضمير وإرادة النفس ، فإن طمع الناس في عاجل ثواب

الدنيا أقوى من طمعهم في أجل ثواب الدين . ومن أجل أداء الزكاة كان ارتداد العرب عن الإسلام في عهد أبي بكر . إنما يجب أن تجبي الزكوات بالاضطرار كما تجبي ضرائب الأرض وعوائد العقار ، وأن يكون لوزارة الشؤون الاجتماعية جُباة كما كان لوزارة المالية صيارف . ولا بأس أن يترك الاختيار في الإحسان ، على أن يستعان على غرسه في القلوب وجمعه في الأيدي بفرقة من الرجال والنساء تدخل البيوت والمسكاتب على الأغنياء والغنيات من الأفراد والشركات ، فيذكرونهم بأن الله الذي خلقهم وخلق الفقراء قد جعل مُجعة ما بينهم وبينهم قائمة على أساس من المودة والرحمة . فإذا ما جمعت الزكوات والصدقات من طريق الطوع والكره تجعل في (بيت المال) لا في (الخزانة العامة) ثم تُدبر على قواعد النظم الحديثة في التأثيل والاستغلال ، وتنفق في إنشاء الميآتم^(١) والملاجئ والمستشفيات ، ويستعان بالفرقة التي جمعت الإحسان من بيوت الأغنياء ، في توزيع المعونة على المتعفف المجهول من بيوت الفقراء

وأما ما تستطيعه الوزارة من طريق التشريع فسن القوانين لحماية العامل والفلاح من صاحب المال ومالك الأرض ؛ فإن أكثر ما يصيب الطبقة العاملة من الحزن والإحزن إنما ينشأ من إطلاق الحرية الطاغية لأصحاب الأموال الذين يستثمرونها في التجارة أو في الصناعة ، ولأرباب الأطياف الذين يستغلونها بالتأجير أو بالزراعة

(١) الميآتم : جمع ميتم وهو مكان لليتامى المتروكين يربون فيه ويعلمون ، وهو بهذا المعنى مستعمل في العراق ، والعامة تستعمله خطأ في معنى مآتم

فهؤلاء وأولئك على قلتهم يتحكمون في الأجراء ويستبدون بالمستأجرين ولا تدركهم بهم رحمة الخالق بالخلق ولا عناية الصانع بالآلة

وإذا شئت الوزارة أن تحقق ما يعانيه العامل والصانع من أولى العمل ، وما يقاسيه الأجير والزارع من ذوى الطين ، تكشف لها أستار المجتمع عن مآسٍ مروعة من الظلم والغبن والطمع والأثرة لا يستطيع منع تمثيلها الحزن الحزى غير سلطان القانون

بقي ما تستطيعه الوزارة من طريق الإدارة وهو يشمل ما لا يدخل في نطاق الدين أو القانون بنص صريح ، كمكافحة البطالة بتيسير سبب العمل للعامل ، وتدير رأس المال للصانع ، وتمصير العامل والمصانع والمتاجر والمصارف والشركات يدأً ولساناً ليحل الوطنيون المعطلون فيها محل الأجانب ، وذلك مورد للرزق يمكن أن يعيش عليه ألوف من الأسر المحرومة أهملته الحكومات الساففة لاشتغالها بسياسة الكلام وخصومة الحكم عن كل نافع

بهذه الخطة المحكمة لكفاح الفقر بمعونة من سلطان الدين و سطوة القانون وقوة الحكومة تستطيع الوزارة أن تنقذ من غوائله الطفولة المعذبة والشبيبة المشردة والشيخوخة العاجزة والأسر المنكوبة والكفايات المعطلة ، وأن تظهر المجتمع مما يجره عليه بقاء هذه الأحوال من فساد الأخلاق وتفل القلوب واضطراب الأمن وقلة الإنتاج وكثرة الجرائم . ونجاحها في ذلك معناه بناء المجتمع المصرى على أسس جديدة من تقوى الله ورضوان الناس وتعاطف النفوس وتعاون القوى وتضامن الأمة .

المرض . . .

بعد الجهل والفقر لا بد أن يجيء المرض . فهو في الترتيب الطبيعي ثالث

العناوين البارزة في دستور وزارة الشؤون الاجتماعية

وإذا كان الجهل يمنع أن يكون لنا رأى عام ، والفقر يمنع أن يكون لنا خير مشترك ، فإن المرض يمنع أن يكون لنا كيان صحيح . وإذا لم يكن للمجتمع رأى عام ولا خير مشترك ولا كيان صحيح ، فسمه ما شئت إلا أن تسميه أمة .

ولعل المرض كان العرض الملازم الذي يميز الشقاء المصرى من كل شقاء في العالم . وإن أثره في تاريخنا الاجتماعى كان كأثر الزلازل والبراكين والحروب في تاريخ البلاد الأخر . فقد كانت الأوبئة تغد إلى مصر عاماً بعد عام فتجتاح نصف السكان وتصيب النصف الآخر بعاهات تدعه كالشجر اليابس لا للظل ولا للشمر . والعلّة الأصيلة في ذلك أن أبانا النيل منذ شقه الله يجري فيكون الخصب والغضارة والحياة ، ثم يركد فيكون الجذب والذبول والموت . وفيصانه ونقصانه يتعاقبان تعاقب الجديدين . فإذا فاض أنعش النادوى وجدد البالى وأحيا الموات ؛ وإذا نقص تخلفت بقاياه في أجواف المصارف وأطراف الترع ومناقع الأرض فتكون مزارع خصبة لجراثيم التيفود وبعوض الملريا وقواقع البلهرسيا وديدان الأنكلستوما ، وبنو النيل الدائبون البررة لا ترتفع أيديهم من مأثمه ، في حالى نقصه ووفائه ؛ فخيرهم منه لا يزال مشوباً بالشر ، ووجودهم فيه لا ينفك مهدداً بالعدم . فإذا أضفت إلى ذلك أن الجهل يستوجب

فساد العيش وترك الوقاية ، وأن الفقر يستلزم سوء الغذاء ونقص العلاج ، فقد اجتمعت لك أسباب المرض التي جعلت الكثرة الكاثرة منا مذبذبين بين الدور والقبور لا هم في الأحياء ولا هم في الموتى !

إذا استطعت أن تقيم البناء من ناخر الحجر ، وتنسج الرداء من رثيث الخيط ، استطعت أن تؤلف من مهازيل المرض وسُقَط الوهن شعباً يستغل الأرض وجيشاً يحمى الوطن

تعال نزر قرية من قرى الريف فأريك كومة مبسوطة من سباح الأرض ، في مستنقع واسع من آسن الماء ، قد قامت عليها أبنية من الطين والقصب والخشب تجمعت على ظهورها المراحيض والمزابل ، وتسكدست في بطونها الناس والبهائم ، وتطرحت على أبوابها ومصاطبها الرجال والأطفال وقد هدَّتْهم العلل وبرَّتهم الأسقام حتى ليعجزون عن دفع الذباب عن وجوههم الساهمة الشاحبة . فإذا سأت هؤلاء المنهوكين بالزُّحار والصفار والسُّلال والطُّحال^(١) والحمى والرمد : من الذى يزرع الأرض ويتعهد الزرع ، ويحصد الثمر ، ويجمع الحصيد ، وينجل العلف ، ويرعى الماشية ؟ قالوا لك : يعمل ذلك كله قليل من الشبان الذين يدافعون المرض بالجلد ، وكثير من النساء اللاتي يغالبن الضعف بالصبر . ومما ترى وتسمع يتسنى لك أن تروى^(٢) العبء الذى تحاول وزارة الشؤون الاجتماعية أن تضطلع به .

(١) الطحال بالضم داء يصيب الطحال بالكسر

(٢) راز الحجر ونحوه رفعه ليعرف ثقله

ولسكن هل من الحق أن يلتقى عبء الصحة العامة على كاهل هذه الوزارة المفدوحة بأمور المجتمع ؟ إذن فماذا تصنع وزارة الصحة ؟ والجواب أن الجهاد الصحى مفروض على الوزارتين جميعاً بنظام تقتضيه طبيعة كل منهما فلا يُثقل إحداها ولا يعطل الأخرى . فكل ما يتصل بالوقاية والصيانة يرجع إلى وزارة الشؤون الاجتماعية ، وكل ما يتعلق بالطب والعلاج يعود إلى وزارة الصحة ؛ وقد يجوز لهذه بحكم خصوصها أن تصون وتقى ، ولكن لا يجوز لتلك بحكم عمومها أن تعالج وتطب

فمن الطب الوقائى المنوط بوزارة الشؤون تخطيط القرية على نمط يكفل لها الشمس والهواء والجمال والذوق والراحة ، وفصل الحظائر والمزابل عن المساكن ، وتجفيف البرك والمستنقعات ، وتطهير الماء الراكد من الطفيليات ، وإنشاء المغاسل والمراحيض العامة ، ورفع مستوى المعيشة القروية بتحسين الغذاء وتنقية الماء وتعميم النظافة ، وإرشاد الفلاحين عن طريق الإذاعة والصحافة والوعظ إلى أنجع الوسائل فى اتقاء العدوى وتبدير البدن

ذلك عملها فى القرية ، وأما عملها فى المدينة فبناء المساكن الصالحة للعمال ، ومراقبة المعامل والمصانع من حيث الصحة ، وملاحظة المطاعم والمشارب من حيث النظافة ، ومراعاة الطعام والشراب من حيث السلامة ، وحماية الطبقة العاملة من رهق العمل ، ووقاية النفوس الغاوية من سموم الخدرات ، وبث الروح الرياضية فى كل طبقة ، وإنشاء الملاعب والمساح والأندية فى كل بيئة ، وإقامة المسابقات النهرية والبرية فى كل فرصة ، وتفرج الهموم بإقامة المهرجانات الشعبية فى كل مناسبة ، وتعميم الثقافة الصحية عن طرق التعليم والإذاعة والنشر

هذا مجمل ما ينبغي أن تقوم به وزارة الشؤون الاجتماعية لمكافحة المرض .
 فإذا أضفناه إلى ما أجهلناه قبلاً من الوسائل الفعالة في كفاح الجهل والفقر كان
 لنا من مجموع ذلك برنامج كامل شامل لا يعوزه غير التنفيذ . فليت شعري
 أتظل الوزارة واقفة من شؤونها الاجتماعية موقف خراش من طبائه^(١) ،
 أم تجرى على هذه الخططة الواضحة فتأتى كل أمر من وجهه وتعالج كل داء
 بدوائه ؟

(١) إشارة إلى قول القائل :

تكاثر الأطباء على خراش فما يدري خراش ما يصيد



هذا هو المنهاج فكيف يكون المسير

[٢٠ نوفمبر ١٩٣٩]

حاولنا فيما سبق من القول أن نرسم لوزارة الشؤون الاجتماعية معالم المنهج الذي تسلكه مخافة أن ينتشر عليها الأمر وتلبس الوجهة ؛ ثم تركنا لرجالها المختصين توضيح الرسوم وتحديد التخوم وتعيين المراحل . ولكن رسم المنهاج لا يكلفنا ولا يكلف الوزارة غير ساعات من النظر والفكر والكتابة ؛ وإنما عماد الأمر وملاكه أن تُتهج السبيل وتنفذ الخطة وتبلغ الغاية . ويلوح لي أننا نكلف الوزارة شططاً إذا أردناها على إصلاح الفاسد وإقامة المعوج وهي على حالها الحاضر ووضعها القائم

ماذا عسى أن تعمل وزارة موظفوها خمسة عشر موظفاً وليس لها وكيل ولا نظام ولا سلطة ولا خزانة ؟

لقد صدق الأستاذ الذي قال : إن وزارة الشؤون الاجتماعية مشروع وزارة لا وزارة . فإن خمسة عشر موظفاً من مختلف الوزارات (كشليلة) خيط من غير رأس ، أو كشركة إنتاج من غير مال ، لا يستطيعون أن يفكروا إلا في لجنة تعقد أوقرية تزار أو مقالة تذاع أو مجلة تحرر ؛ أما تنفيذ الرأي وتكوين النتيجة وتوفير الثمرة فذلك شيء فوق الطاقة لمن لا يملك إليه الوسيلة

ولقد كان في وزارة الصحة عبرة لوزارة الشؤون الاجتماعية لو أنها التمت

هداها على ضوء الدرس المنظم والتجربة الحاصلة والخبرة المختصة ؛ فإن وزارة الصحة قد فكرت منذ عامين في كفاح المرض فهيأت له الأسباب وأرصدت الأهب ، فجعلت لكل جماعة من الناس طبيباً ، وسيّرت إلى كل جهة من جهات القطر مستشفى ، ولـكنها لم تجد المال الكافي لشراء الأدوية وتجهيز العلاج فظل أطباؤها من غير عمل ، وباتت سياراستها من غير حركة

إن وزارة الشؤون الاجتماعية فكرة موقفة ما في ذلك ريب . وليس من الغلو فيما أظن أن تكون ميزانيتها وسطاً بين ميزانيتي الصحة والمعارف ، فقد علمنا أن اختصاصها يكاد ينبسط على كل شيء في هذا البلد . على أن المال الذي يفرض لهذه الوزارة في ميزانية الدولة هو وحده النصيب الحق لهذا الشعب المسكين من ثروته العامة ؛ فإن أكثر ما يجبي من موارد الوطن المشتركة إنما يذهب للحكومة لا للأمة ، وللأغنياء لا للفقراء ، والمدائن لا للقري . وجهود الشعب هو صلب المجتمع وأداة إنتاجه وعدة دفاعه ، فينبغي أن يكون همُّ الخاصة وولاية الأمر مصروفاً لـسد عوزة وتثقيف عقله وتأمين سلامته ، لا يضمنون عليه في سبيل ذلك بمال ولا جهد

إن رئيس الوزارة الذي يتذرع لتقوية الدفاع الوطني بكل الذرائع ، لا يمكنه أن ينسى مادة ذلك الدفاع ولا هيكله من العمال والصناع والزراع ومن يقمن على رعايتهم وخدمتهم من أم وزوجة فلعله يقرع بصوته العالي أسماع أولئك الأمراء والأغنياء فينزلوا عن بعض

ترفهم وسرفهم للجيش أسوة بمن يضحون بأرواحهم وأموالهم في سبيل وطنهم من أمراء انجلترا وأغنياء فرنسا؛ فإنهم إن فعلوا ذلك — وبعيد أن يفعلوه طائعين — تسنى له أن يجد المال الضروري للشئون الاجتماعية، ومن ثم يتسنى لوزارة هذه الشئون أن تنهض بما ألقى عليها من عبء وتحقق ما نيظ بها من أمل

نعم هذا هو المنهاج فكيف يكون المسير؟ هيئات أن تسير وزارة الشئون الاجتماعية إلا على قدمين من عزم ومال. فمتي تيسر لها المال وتوفر لها العزم كان عليها يومئذ أن تعيد النظر في تنظيمها وتقسيمها على أساس ممكن من الحاجة والكفاية والاختصاص، فإن الإسراف في قلة الموظفين كالإسراف في كثرتهم سواء بسواء؛ والعدول عن الكف إلى غيره جناية على العدل وإنكار لفائدة العمل؛ ووضع الأمر في غير أهله أقصر الطرق للفوضى المربكة والفشل المحقق. وإذا كانت الوزارات الأخر تجرى على سبيل من التقاليد الموروثة والأنظمة الآلية والأعمال الرتيبة؛ فإن هذه الوزارة الجديدة في وضعها وموضوعها حرية بأن تكون مثلاً يحتذى في اختيار الموظف وابتكار الطريقة وتبسيط الإجراء ودقة المراقبة وحسن التوفيق بين قدرة العامل وطبيعة العمل، وفرض المسؤولية على كل موظف بمنح الاستقلال الذاتي لكل وظيفة. وتجربة النظم الحديثة في الجديد المنشأ أسهل منها في القديم المجدد. وتحويل الوزارة القديمة بمصطلحاتها وظيفياتها ومحاباتها وفوضائها إلى وزارة جديدة بطريق التنظيم، أدخل في باب الحال من تحويل المدينة العتيقة بمنعرجاتها

ومنعطقاتها ومضايقتها إلى عمارة حديثة بطريق الترميم

وملاك الأمر في الإصلاح الدرس والروية والمشورة والعزيمة
والنفاذ ، على أن يكون كل عمل في وقته ، وكل رأى في وجهه ، وكل
أمر في أهله . ومدار النجاح في العمل العظيم على الرزانة والجد . فإذا
قضى الله أن يعاجلك الفشل دون التمام ، فخير لك أن تفشل بالصمت
لا بالكلام !



جُسُومُنَا وَمُحَقُّوُنَا بَيْنَ الصَّخْرَةِ وَالْمَعْرِفَةِ

[٤ ديسمبر سنة ١٩٣٩]

إذا عجبت من أن تقوم فينا وزارة المعارف قرناً ونيفاً ثم يظل ثمانية أعشارنا أميين ، فإن أعجب العجب أن تقوم فينا وزارة الصحة زهاء هذا العمر المبارك ثم لا يزال تسعة أعشارنا مرضى !

ولا تحسبن ذلك لأن شعبنا بدع من الشعوب هواه في أن يجهل ومزاجه في أن يمرض ؛ فإن الله لم يخلق إلى اليوم إنساناً يكره المعرفة ولا حياً يرفض السلامة . إنما السبب الأول في هاتين الظاهرتين الخاصتين بهذا البلد أن القائمين على ثنافته والمسؤولين عن سلامته قد حصروا همهم في الديوان ، وقصروا جهدهم على الشكل ، فلم يشغلوا ذرعهم إلا بالتعيين والنقل والترقية والميزانية والدرجات والامتحانات والتقارير والتجارب والدسائس ، ولم يكلفوا أنفسهم النظر من نوافذ المكاتب الرسمية إلى هذا الشعب الذي يعيشون عليه ويعملون له ، فيضعوا سياستهم على مقتضيات حاله ، ويرسموا خطتهم على دواعي حاجته

أما الحديث عن ماضى المعارف وخيبتها في كفاح الجهالة وتبعتها من هذه الخيبة ، فقد جف من تكراره المداد والريق ، فلندعها في ذمة رجالها . ولنمض في الحديث عن وزارة الصحة ، فقد راعنا أن يتخطفنا الموت اختصاراً^(١) وعلى حراستنا جيش من الأطباء له المستشفيات المنشأة على آخر طراز ،

(١) اختضر فلان بالبناء للجهول : مات شاباً غصاً

والمعامل المجهزة بأحدث جهاز ، والصيدليات المزودة بأندر الأدوية ؛ وأصبحنا
كلما رأينا القرى والقبور تكتظ بضحايا البلهرسية والأنكلستوما والطحال
والملريا والبلغرا وداء الفيل ننكر الواقع ونفكر ونطيل التفكير ، ثم نسأل
ونطيل السؤال : هل فى مصر وزارة للصحة ؟ وهل فى وزارة الصحة أطباء ؟
وهل لأطباء الصحة ضمائر ؟ ولا تكلفنى الإبانة عن آراء الناس ، فإنك تستطيع
أن تسأل هذه الأسئلة فيكون لديك من الأجوبة عنها ألوف مختلفة الصيغ
والأساليب فى التألم والتهمم والانهام والشكاية والزراية والضعينة واليأس .
ثم تسمع عن المستشفيات الحكومية فى حواضر الأقاليم شجوناً من أحاديث
الإهمال والقسوة والفوضى وغير ذلك مما تمسك عن ذكره محافظة على ما بقى
فيها من الثقة . ولكننى أحد الذين جُنْدُوا فى جيش الإصلاح وفُرض عليهم
أن تكون أقلامهم عارية كالسيف ، وأصواتهم عالية كالمدفع ، وألسنتهم صريحة
كالحق ، فأنا أروى لك حال قريتي فى وراثته المرض ، ونصيب قريتي من وزارة
الصحة ؛ وحظ قريتي من الأدوية والأطباء هو حظ كل قرية : هى جزيرة من
الأكواخ والخطائر فى مستنقع وخيم من مصافى المزارع ؛ نمت على عفنها وأسفها
جراثيم الأمراض المتوطنة فجعلت كل وجه فى صفار الخوف ، وكل جسم فى
هزال الجوع ، وكل حى فى همود الموت . وقطعت مراحل عمرها الماضى على
هذه الحال الشديدة ، لا يزهر فيها شباب ولا تثمر بها كهولة . ولم يكن لمصلحة
الصحة يومئذ إلا شبه طبيب فى المركز لا تراه القرية إلا إذا انتشر وباء أو
وقعت جناية . وعمله كله مع حلاقى القرى : يصرح لهم بدفن الموتى من بُعد ،
ويكلفهم جلب المرضى إلى عيادته من قرب ؛ وعلاجه قائم على البركة والتوكل :
ماء من التربة القريبة يشتمل على عقور مسهل . فلما صارت هذه المصلحة

وزارة أرادت أن يكون لها كالوزارات عمل ، فأنشأت المستشفيات الثابتة والمتنقلة ، ودرست الأمراض الوبائية والمستوطنة ، وقررت تطهير القرى بقتل الأمراض وردم المناقع . وكان من نصيب حاضرتنا مستشفى ، ومن حظ مركزنا طبيب . فأما الطبيب فقد عجز عن ردم البركة لأن مالسها الباشا يريد ، وإذا لم يرد الباشا وجب ألا يريد الناس ، لأنه يملك الخراف والسمن والفاكهة والكلمة المسموعة . وأما المستشفى فقد دعا القرويين إلى طبه فأهرعوا إليه من كل طريق . وأنحى طبيبه على الأذرع الذابذة بالحقن العنيف ، نفث الداء ، وتنبهت العافية ، وشعر الفلاح أن في (الاستبائية) رجاء وفي الطب منفعة ، فازداد وفود المرضى على المدينة حتى شحرت الشوارع وغص المستشفى وضائق المساكن . فلما وثق الطبيب من الإقبال جعل منزله عيادة خاصة ، وسلط أعوانه على المرضى ينفرونهم من المستشفى ، ويرغبونهم في العيادة ، حتى أشاعوا أن الطبيب يحقن هنا بالماء ، ويحقن هناك بالدواء . وأخذ هو يقسو في المعاملة ويهمل في المعالجة ويشتط في القبول ، حتى اشتد على الناس الأذى ، وخرجت بهم الأخرجة ، وكثرت الوفيات ، فانقطعوا في دبرهم مفضلين الموت البطيء الهادئ على الموت السريع المضطرب . وعادت الجرائم الطفيلية ترتعي في الكلاً آدمي المباح ، فلم يبق في القرية من لم يخامر داء . ثم انتشر من استفحال البلهرسية داء الطحال ، فانتفخت البطون واصفرت الأطراف وثقلت الجوارح ، فمات به الآكثرون ، ولأذ بعض الأقلين بالقصر العيني يرجون استئصال الداء بالجراحة ؛ وقد سمعوا أن أساطين الطب من أساتذة الجامعة هم الذين يتولون الفحص ويزاولون العلاج ويباثرون العملية ، ولكنهم حين دخلوا لم يجدوا إلا أطباء كأولئك الأطباء ، ونظاماً كذلك النظام ، ومعاملة كذلك

المعاملة . أما بقراط وجالينوس وابن سينا فقد اتخذوا من (القصر) عنواناً ومن (الكلية) وظيفة . فهم يحضرون — إن حضروا — ساعة من النهار ، فيقابلون أطباء الامتياز ، ويحادثون طلاب الطب ، وغاية المقابلة أو المحادثة إشارة أو عبارة ، ثم ينقلبون سراعاً إلى عياداتهم أو مستشفياتهم يعملون فيها بقية النهار وطرفاً من الليل بصبر الفقير إلى الناس ، وعزم الكادح لنفسه

هذه حال قرينتنا في عهد من العهود وكل القرى المصرية على هذه الحال . وإن الناس لينسجون حول المستشفيات الرسمية من الحوادث والأحاديث ما لا يجروء القلم على روايته مهما شجع . واعل في هذه الإشارة ما ينبه أولى الأمر في وزارة الصحة إلى شدة الحساب ودقة المراقبة ؛ فإن الاعتماد في كفاح المرض على التقارير والدفاتر والأرقام ، أشبه بالاعتماد في كفاح العدو على رسم المارك في الورق وكسبها بالكلام !



حياة بيضاء

ليت شعري ماذا كان يمكن هذا الخلق أن يكون لو أنه تعلم ؟ الغالب في الظن أنه لو كان تعلم الحقوق لما برع إلا في ابتكار الحيل التي تحمي اللصوص ، وتأليف الحجج التي تخدع القضاة ، وتدير الخطط التي تضلل الشرط . ولو كان تعلم الطب لما اشتغل إلا بتركيب السموم ، وتزوير الشهادات ، وتخدير المدمنين ، وإجهاض الحوامل . ولو كان تعلم الأدب لما نبغ إلا في قصص التجسس والظلم والاثار والدعارة . ولو كان تعلم الزراعة لما برز إلا في زراعة التبغ والأفيون والحشيش . ولو كان تعلم الهندسة لما افتن إلا في اختراع الخبايا السرية والمزالق الجهنمية والمفاتيح التي تتحدى كل قفل

ذلك لأن كل نزعة للشر أو نزعة للشيطان إنما وجدت أصلها فيه بحكم الطينة ومقتضى الفطرة ؛ فهو قروى أمى فقير وضعيف ، ولكن غرائزه الشريرة العارمة تندلع من جوانب جسمه كألسنة اللهب أو أرجل الأخطبوط فتجعل له شخصية غريبة فيها لكل ضرر مصدر ، ولكل خطر اتجاه !

نشأ بين لداته من أطفال القرية كما ينشأ الزنبور بين النحل أو الثعبان بين الحمام ؛ فكان لا ينفك ضارباً هذا بعصا ، أو قاذفاً ذاك بحجر ، أو خاطفاً لعبة من بنت ، أو سارقاً شيئاً من بيت ! فلما جاوز حد الطفولة دخل في خدمة الفجار والمجان ، فكان يخدم أولئك في تدبير الجرائم ، ويخدم هؤلاء في إعداد الولايم ، وهو في غضون هذا العهد (التحضيرى) كان لا يفتأ يمرن ملكانه

الإجرامية لحسابه الخاص ، فكان يسرق من البيوت الآنية والثياب ، ومن الحقول القطن والذرة ، حتى صار في حد الرجال ، فعد من ذؤبان القرى وغربان الأسواق ؛ فكل جريمة له فيها يد ، وكل سرقة له منها نصيب !

وكانت مزيتته بين اللصوص التجسس والاحتتيال والمفاوضة وإخفاء السرور وتعمية الأثر ، لأنه كان ضئيل الخلقة فلا يُرهَب بمنظره ، ضعيف القوة فلا يغنى بعضه . ثم تفاقم شره واستطار أذاه ، فكان لا يقع إلا على منكر ولا يتقلب إلا في معصية . غير أن إجرامه ظل من النوع الحمير لضعف بنيته وضعفه بيته ، فلم يستطع أن يكون رئيس منسر يفرض الأناوة بالسطوة ، ويستغل اللصوص بالنفوذ ، إنما كان أكبر همه أن يسطو في الأسواق على أرزاق الأراذل ، ويتدسس في النهار إلى أموال العميان ، حتى انقضت شببته وكهولته على حال متصلة من الإثم لم تسكن جوارحه في خلاها عن الشر إلا وهو مجروح في مستشفى ، أو مطروح في سجن . كل ذلك ولم يدخل في ملكه عقار ، ولم يجتمع في جيبه نقد ، ولم يبت في داره قوت

فلما قيده الكبر وحطمه ، وعممه المشيب ولثمه ، أصبح بحكم السن عاجزاً عن نقب الجدار وتساق الدار ، فأرسل لحيته شبراً تحت ذقنه . ثم ضخم العمامة ، وبيّض الجلباب ، وأمسك المسبحة ، ومشى في الأزقة مشية الوقار والتؤدة ، يتعمم بالأدعية ، ويجهر بالتحيات ، ويواظب على الصلوات ، ويجلس على المصاطب يتحسس الأخبار ، ويتسقط الأسرار ؛ فإذا وقف على خلاف أو خصومة بين والد وولده ، أو بين أخ وأخيه ، أو بين صديق وصديقه ، أو بين زوج وزوجه ، اندس إليهما بالإغراء ، وسعي بينهما بالنميمة ، وحمل هذا على ذاك ، حتى تقع الفرقة أو تحل الكارثة . فإذا انتهى الخلاف إلى المحكمة ، وسوس للمتخاصمين

أو لأحدهما بالحيل التي تطمس الحق أو توسع الخصومة أو تعرقل القضية ؛ لأنه يزعم لنفسه العلم بالقانون والمرافعات لطول ما وقف أمام القضاء وعاش بين البوليس . أما إذا خذله الشيطان وتغلب السلام استغفر بالسباب حمية بعض الشباب فيضربه ، ثم تكون الترضية أو تكون القضية . فإذا تعدّر الدس وتحاماه الناس عمد إلى قطعة متروكة مما يملك الغير فاحتلها واستغلها ، فتشعب بينه وبين المالك معركة قضائية لا يصبر فيها صاحب الحق على بقاء القضاء وتعقد الإجراء وخش التكاليف ، فيطلب مصالحة الغاصب بالنزول له عن بعض من حقه أو جزء من ماله

ذلك عمله بالنهار . أما عمله بالليل فصلاة العشاء حاضرة ، ثم إحراق الحشيش جماعة ، ثم التهجد طويلاً ، ثم الهجود قليلاً ؛ فإذا طلع الفجر الكاذب خرج إلى المسجد يهدج^(١) تحت الجدران ، وعيناه تبصان في حلك الظلام بصيص الحجاب^(٢) ؛ فإذا بقي في بعض الطريق حماراً أو عجلاً أو خروفاً أفلت من الحظيرة ، امتطاه أو قاده ثم انطلق به حثيثاً في هوادي الليل^(٣) إلى أقرب (مركز) من مراكز اللصوص فيتركه هناك ليصرفوه ويضيفوه إلى حسابه . ثم يعود إلى القرية وقد هتك الصباح ستر الظلام ، فيأوى إلى بيته ندمان على أن فاتته صلاة الفجر مع الإمام !

وفي ليلة نادية من ليالي الحاق خرج المتعبد القانت على عادته يريد المسجد . وكان الناس قد فطنوا إلى فقد الصغار من مواشيهم فأغلقوا الزرائب وأحكموا الإغلاق . فلما أرسل عينيه الثاقبتين في الخرائب والأجران فلم تقعا على حيوان مهمل أو متاع متروك ، أخذ يهود^(٤) في مشيه ثم وقف يفكر . وكانت نفسه الغوية قد

(١) هدى الرجل : مشى مشية الشيخ (٢) الحجاب : ذباب يطير بالليل له شعاع في ذنبه كالسراج (٣) هوادي الليل : أواخره (٤) هود : مشى مشياً ساكناً فائراً .

استهواها الظلام والسكون فعرض عليها الشر وعصفت بها المغامرة ، فرجع إلى داره وأخذ معولاً وعتلة ثم انحط من بعض السطوح على دار العمدة ثم شرع ينقب الجدار عن عجل السامري^(١)

دُهم الشيخ في السَّحَر وسِيق في الصباح إلى مركز البوليس فحاول أن يدحض التهمة عن نفسه بانخراع متنه وابتضاض شعره وارتعاش يده فلم يوفق ودخل المجرم السجن أشوق ما يكون إليه ، وبدد الحلاق على أرضه الخشنة الغبراء ، خُصل لحيته الكثيفة البيضاء ؛ ثم لبث فيه ما لبث ، وخرج للناس يسلط عليهم النائم ، ويزرع بينهم الضغائن ، ويدبر فيهم المكائد ، حتى سولت له نفسه بالأمس أن يخزن قمحه قبل أن تأخذ وزارة التموين نصيبها المفروض منه ، فتجاهل السلطة ، وتحدى العمدة ، وضرب الحارس . ثم بات هو وأهله في سجن (المركز) ، ثم قدموا في الصباح جميعاً إلى المحكمة العسكرية تلك صورة من صور الريف الكريهة قدمناها مصغرة إلى المشتغلين بعلم النفس الجنائي لعلهم ينتهزون هذه الفرصة قبل أن تفوت ، فيدرسون هذا الرجل العجيب قبل أن يموت !

(١) كناية عن المذهب . وقصة موسى السامري وعجله الذهبي معروفة



وعلى الأرض للسلام

[٢٥ ديسمبر سنة ١٩٣٩]

في هذا اليوم يحتفل المسيحيون بذكرى مولد المسيح عيسى بن مريم ،
وفي ليلة هذا العيد المجيد بات القسس والرهبان يرتلون وحدهم بين أروقة البيع
وصحون الكنائس ذلك القنوت الشعري الجميل :

« المجد لله في الأعلى ، وعلى الأرض السلام ، وفي الناس المسرة » وربما
تابعهم الأقوام فرتلوا وهللوا جرياً على التقليد وخضوعاً للعادة ؛ ولكنهم وأسفا
لا يجدون في الآفاق ولا في أنفسهم معنى هذا النشيد ، ولا حقيقة هذا
العيد !

في أي جهة من جهات الأرض ذلك السلام ؟ وفي أي قلب من قلوب
الناس تلك المسرة ؟ لقد عادت روح يهوذا الأسخريوطى في جسد هتلر
فدل على السلام الإلهي أبالسة الشر وزبانية الجحيم فصلبوه في بولنדה ،
ومكّنوا في الأرض اعوامل القحط والموت ، فأوقروا مائدة عيسى ممّا
وصابا ، وأنبتوا شجرة ميلاده همّاً وعذاباً ، وحولوا أعشاش الأسر ورياض
الحقول قبوراً موحشة على كل قبر منها ركام من الثلج وصليب من
الخشب !

لكأنّي بك ياروح الله كنت تمشي من الناصرة إلى بحيرة الجليل ،
ومن صفد إلى كفر ناحوم ، وأنت ناكس الرأس ساهم الوجه ، يعتلج بين
جوانحك الهم ، ويجول في مآقيك الدمع ، لأنك كنت ترى بعين الله التي تخترق

الأزل والأبد كيف تلازم الشر والخير في ملكوته ، فابتلي آدم بإبليس ، وموسى بالسامري ، وعيسى يهوذا ، ومحمداً بأبي لهب ؛ وقضى ألا تخلو الأرض من أتباع هؤلاء وهؤلاء ، ليدوم صلاحها بدفاعه بعض لبعض ، حتى إذا طغت قوى الشر وسادت عناصره أرسل عليها طوفان نوح بالماء أو بالوباء أو بالدم أو بالنار فترعوى وتهمد

وكان الشر في عهد المسيح وقتاً يتسعر في عيون الروم ، ويتنمر في نفوس اليهود ، فأخذ هو وحواريوه يكفكفون طغيانه بالمسألة ، ويخففون عدوانه بالصفح ، ويسعفون ضحاياه بالمواساة ، ويشفون مرضاه بالدعاء ، ويحاربون أوليائه بالوعظ . ولكن الشر كان قد تفاقم واستطار فلم يرتدع باللين حتى جاء محمد رسول الله فردَّ جهاحه بالسيف . وظللت محنة عيسى عليه السلام المأواً واخزاً في ضمير الإنسانية لا يفتر ، وأنيباً موجعاً في أذن الدهر لا يخفت . وتوالت القرون وتعاقت الدول وتتابعت الحضارات ، ولا يزال إبليس والسامري ويهوذا وأبو لهب مُنْظَرَيْن في الأرض ، يدعون إلى الشر ويرغبون في الرذيلة ويعملون للفساد ، والعالم المسكين يتدرع في جهادهم بالدين والمدنية والتربية والعلم ولكن ذلك كله لا يغني عنه إلا كما يغني السد في دفع الفيضان ، أو الفرجة في كف البركان ، أو الكوخ في اتقاء العاصفة

يا راعي السلام وداعى المودة ! لقد ضل قطيعك كله وشرّد ! فاسأل الله أن يُطْلَعَ في سماء أوربا القائمة « نجم المجوس » فعسى أن يهتدى به إليك مطاغية موسكو وجبار برلين . والله قادر على أن يحول في يديهما القنبلة والطر بيد

واللغم إلى « ذهب ولبان ومر^(١) »

يا حامل الآلام ورسول الرحمة ، كيف استبحال حملك وسلك وهداك في
الْمَائِنَةِ لَوْثَر وروسيّة تولستوى سمانم قحط وزلزل دمار وطوفان هُلك ؟! ألإنك
لا تزال غريباً عن الغرب فلم يصادف دينك هواء ، أم لأنك شرعت الألم
تكفيراً عن الكفر بالله ؟

لشد ما تختلف المسيحية في الغرب عنها في الشرق ! إنها مع المسيح قد
خرجت من الغسق إلى النور ، ولكنها مع بولس قد دخلت من الشفق إلى
الظلام ! ومن سار في ضحوة النهار اهتدى ودل ، ومن ضرب في سُدفه الليل
اعتسف وأضل

بأية حال عاد عيدك يا رسول السلام وحامل الآلام على بؤكدة وفنلندة ؟!
هل قضى الآباء والأمهات ليلة البارحة مُشْبِلِينَ على بنينهم وبناتهم فوق الفرش
الوشيرة حول المدافئ الواججة وعيونهم تشرق بالغبطة وقلوبهم تفيض من السرور
وهم يتناغون بأحاديث الحنان والحب تناغى البلابل الآمنة ، في أعشاش الربيع
الساكنة ؟ هل باتت الصغار الأبرار هذه الليلة في مهودهم الحريرية يحملون
في أحضان الكرى بباباهم (نوبل) وهو يضع لهم الألفاظ واللعب والخلوى
تحت أفنان الشجرة وفي نواحي المدفأة ؟

يا حسرتا عليهم ! لم يأتهم عيدك يا مبرىء المرضى ومحيي الموتى إلا وهم حطام
وأشلاء . فلا الدار أهلة ولا الرزق موصول ولا الشمل جامع ! إن نار الأعداء

(١) إشارة إلى الهدية التي قدمها مجوس الفرس إلى مريم وقد اهتموا إلى بيت لحم بنجم
برزخ في السماء يوم ولد عيسى .

تتحرق البلاد فلا مأوى ، وصقيع الشتاء يهرأ الأجساد ولا دفء ، وخوى الأمعاء
يلحس الأكباد ولا قوت ، وبقايا القنابل والرصاص والغاز من النساء والأطفال
والشيوخ مشردون على الجليد يلتمسون الحياة الموقوتة في قرية بعد قرية !
وليت الخراب والعذاب كانا مقصورين على أمة أو أمتين فتمدها الأمم
الأخرى بالمواساة والعون ! وَلَكِن الخطب شامل والطامة عامة . فالأمم
المحاربة والمحايدة في شقاء العيش وبلاء الموت على حد سواء ، قضت عليهم هنا
وهناك نزوات الفرد وبدواته أن يساقوا إلى الجزر سوق القطيع ؛ فمنهم من قضى
نحبه ومنهم من ينتظر . ومن المنتظرين من يقتله الجوع والخوف ، قبل أن يقتله
المدفع والسيف . والله وحده يعلم بأى حال ستعود ذكري مولدك المقبلة على هذا
الصدام ، أيقول الحى يومئذ : السلام على الأرض ، أم يقول : على الأرض
السلام !!



هلا خصب الأرض يستأخر جرب القرب

[٨ يناير سنة ١٩٤٠]

من الأقوال الماثورة أن الحاجة تلد الاختراع وتفتق الحيلة . وهذه الحاجة التي ضمنها الله عمارة الأرض ورقى العالم ، هي التي جعلت بيئة الفقر مهبط الإلهام ومنبت العبقرية . فأينما تجد الحاجة تجد العمل والذكاء والقوة ، وحيثما ترى الغنى تر الكسل والغباء والرخاوة . ذلك لأن الفقير يضطره العيش إلى أن يفكر فيجد التفكير ، وإلى أن يعمل فيمتقن العمل ، وإلى أن يهاجر فيزداد بممارسة الشدائد ومنافسة الناس جلاء في الذهن وبسطة في العلم وسعة في الحيلة . ومواهب العقل كأعضاء الجسد تقوى وتنمو بالكد ، وتضعف وتضمحل بالعطلة . ولا يصعب عليك أن ترى مصداق ذلك في الفروق الذهنية والعملية الواضحة بين أبناء الفقراء وأبناء الأثرياء ، وبين سكان مصر العليا وسكان مصر السفلى ، وبين بلد كدمياط وبلد كالفيوم ، وبين مدينة كأتينا ومدينة كرومة في الغرب القديم ، أو بين قطر كفينيقية وقطر كالعراق في الشرق الغابر . ففي كل من ذكرت لك ترى أن جذب الأرض وضخمة الموارد كانا علة في إخصاب العقول وإنماء المدارك وكثرة الإنشاء ووفرة الإنتاج ، وأن خصب البلد وسهولة الأرزاق كانا سبباً فيما أصاب بعض الناس وبعض الأجناس من البلادة والتعود والترف والغفلة

تستطيع أن تقول إن مصر في جملتها بلد غنى يؤتى أكله كل حين بيسير الجهد وقليل النفقة . فأهل آمنون من موت الجوع ، لأن الفقير يملك أن يمسك

روحه بنصف قرش ، وما أيسر ما يجد قرشين في اليوم بالعمل الحقير أو السؤال الملحف ! ومتى حصل المرء من بلده على الكفاف والراحة والأمن ، نشأت في نفسه فضيلة القناعة الزائفة . والقناعة في الفقير كالثروة لدى الغني ، كلتاها تقتل طموح النفس ، وتسكن قلق الروح ، وتخذ نشاط القريحة ، وتحمل الرجل على الرضى بالدون والتسليم بالواقع

هذا الفقير القانع الذي لا يحس بالحاجة فلا يسعى للغنى ، وهذا الغنى الوادع الذي لا يشعر بالنقص فلا يطمح إلى السكال ، هما الأثر السيئ لتدليل النيل لبنيه وحده البالغ على أهله . فالفلاح لا يزال يزرع الأرض بالآلة القديمة على الطريقة القديمة ، لأنه لا يجد في نفسه الحاجة التي تحفزه إلى اختراع آلة وابتكار طريقة ما دامت أرضه تغل عليه ما يكفيه بهذه الأداة الرخيصة السهلة

والصانع لا يزال يصنع بيده كل اليوم ما تصنعه الآلة في بعض الساعة ، لأنه يجد في جيبه آخر النهار ما يملأ به بطنه بخسيس الطعام وغليظه ؛ فعلام يشغل ذرعه بما يقلل النفقة ويكثر الإنتاج ويحسن النوع ؟

والطالب يقصر جهده على استظهار المختصرات ، لأن الامتحان لا يخرج عن هذه المذكرات . والوظيفة لا تطلب إلا بعضاً من الحساب وشيئاً من المصطلحات ؛ وما غناء العلم بعد أن ينال المتعلم الشهادة والوظيفة ؟

والعلم يحصر نشاطه في كتب الدراسة وما يتصل بها من مقترح التمارين وموضوع الأسئلة ومحلول المسائل ، ثم لا يفكر بعد ذلك في درس مشكلة من مشكلات التربية ، ولا حل معضلة من معضلات المجتمع ، لأنه ضمن لنفسه المرتب آخر الشهر والعلاوة آخر المدة

والكيميائي أو الفيزيائي يبلغ الدرجة الجامعية العليا في الكيمياء

أو الفيزياء ، ثم يعلم أن أقرانه في البلاد العاملة الجادة لا ينفكون يستخرون للمدنية والإنسانية قوى المادة وأسرار الطبيعة في شمول مختلفة ومظاهر متعددة : في البيت والمدينة ، وفي السماء والأرض ، وفي السلام والحرب ، ولا يفكر عالمنا الكبير أن يزيد في العلم بكشف مجهول ، أو يرفه عن العالم باختراع آلة ، لأنه لا ينتفى شيئاً وراء اللقب الفخم والمرتب الضخم والحياة الوديعه

والطبيب أو الصيدلى يجعل كل همه في رواج عيادته أو صيدليته ، لأن المال هو غايته من الطبابة أو الصيدلة ، فإذا بلغها على حساب الطب المحفوظ أو الدواء المجهز فلماذا يكدر صفو عيشه بالاحتباس في معمل ينقب عن جرثومة مرض ، أو يجرب مفعول مضل ؟

والسياسى أو المصلح يتوخى بعمله مجد الشهرة وجاه الحكم ، فإذا أدركهما يتملق الجمهور أو بعصبية الحزب فلا عليه بعد ذلك أن يظل حزبه من غير منهاج ولا غاية ، وأن يزاوِل عمله الخطير من غير خلق ولا دراية . وإذا كان الرmq في هذا البلد يسد بنصف القرش ، والوظيفة تنال ببيع العلم ، والمنصب والمرتب يعطيان بمضى المدة ، والشهرة والجاه يدركان بإرضاء العامة ، والزعامة والحكم يُبلغان باحتراف السياسة ، فأى شىء يدعو إلى زيادة العلم وإطالة الفكر وإدامة العمل وإضاعة الجهد والعمر في تحرير مسألة ، أو تأليف كتاب ، أو متابعة كشف ، أو محاولة اختراع ، أو وضع خطة للإصلاح ، أو تدبير سياسة للحكم ؟

حاولوا يا قوم أن تهذبوا القناعة في ذهن الفقير برفع مستوى عيشه وإصلاح فساد ذوقه . وحاولوا أن تخلقوا الحاجة في نفس الغنى بتشويقه إلى الكمال المطلق

وترغيبه في المثل الأعلى ، فإنكم إن نجحتم في زعزعة الرضا في القانع المعتز وفي
الواجد المعتز ، ساورها القلق الروحي الحافز الذي لا يقنع بما دون الغاية ،
ولا يرضى للغير بأقل مما يرضى للذات

حاولوا أن تحملوا العلماء والأدباء والأطباء بالجوائز والألقاب على الإنتاج
الأصيل والتأليف المبتكر والبحث المنتج حتى ينشأ فيهم على طول الزمن والمران
حب البحث لفائدة العلم ، وحب العمل لمنفعة الناس

ثم حاولوا وحاولوا أن تقيسوا كفايات العاملين وأقدار النابغين بغير
مقاييس المحابة والزلفى والقربة ، فإن كثيراً من الأكفاء إنما يزهدون في العمل
والإصلاح اليأس من الإقصاف والتقنوط من المكافأة !



مَـزْـمُـدْ كِرَاتِي الْيَوْمِيَّة

[١٥ يناير سنة ١٩٤٠]

من عادتي كلما ثقل عليّ الحاضر وضاحت بي الحال أن أعود إلى ماضيّ
فأنشر عهوده وأجترّ ذكرياته . وسبيلي إلى ذلك استغراق الفكر فيما سجلت
صحائف الصبي من حوادث ، أو العيشُ مع إخواني الزاهبين فيما كتبت وكتبوا
من رسائل ، أو الرجوعُ إلى ما درّنتُ في مذكراتي اليومية من خواطر . وكان
ليناير من دون الشهور نوبة^(١) شديدة بالقلب وأثر بالغ في الذّاكرة ؛ فوقع في نفسي
وأنا أهم بالكتابة فيما أوحاه إليّ أسبوعه الثاني ، أن أتصفح مذكراتي لأقرأ
ما كتبتّه فيه سنة من السنين . فتناولت جزءاً من أجزائها المتروكة وفتحتّه على
موضع هذا الشهر منه ، فإذا بي أقرأ في يومه الرابع عشر ما أنقله إليك بحرفه :

يوم الجمعة ١٤ يناير سنة ١٩٣٨

في مثل هذا اليوم من سنة ١٩٣٢ وُلِد لي ولدان : طفل وكتاب ! أذكر
هذا كل الذكر ، لأنني في ذلك اليوم المقرر عدت في مُتَوَع الضحى من دار
المعلمين بالسكّرخ إلى داري بالرصافة ، فلزمتها جالساً أمام المدفأة الموقدة أكتب
الفصل الأخير من كتابي : (العراق كما رأيته) . ثم جاءني النبأ من مصر بعد
ذلك بأن « رجاء » ولد في هذا اليوم نفسه . وكان طفلي وكتابي أعزّ شئ عليّ ؛
لأن ابن نفسي كان نتيجة أربعين سنة من خير عمري ، وابن فكري كان
نتيجة ثلاث سنين من خير عملي

أجل ، قضيت ثلاث سنين في تأليف « العراق كما رأيته » ! جمعت مادته

(١) نبط الشيء بالشيء : وصل به

من الآثار والأسفار والأساطير والكتب والمناظر والأحاديث في سنتين ، ثم حررته وأنشأته ببغداد في سنة ؛ فلم أكتب منه في القاهرة إلا رحلتى إلى كردستان والموصل وجبال عباد الشيطان ، وإلا عودتى إلى سورية عن طريق دير الزور وحلب . ثم وجهت عزمى إلى نشره فهيأته للطبع وتربصت به موأاة الفرصة . ولكن الفرصة أثقلت حتى وفد إلى مصر صديق من رجالات العراق له بصروخطر^(١) ، فرغب أن يقرأ فيه ما كتبت عن بعض الناس وما علفت على بعض الحوادث ، فحملته إليه في « الكنتننتال » فحبس نفسه عليه نصف نهار لم يبرح فيه الفندق . ثم رده إلى في المساء وهو يقول في سمته الرزين ومنطقه المتئد : « أشهد أن كتابك أول ما كُتب عن العراق في صراحة ولباقة وإخلاص وصدق . ولقد طويت عنى ما قلته في » ، ولكننى بعد أن قرأت ما قلته في غيرى أكاد أعرفه بالاستنتاج والحدس . ولعل من الخير لنا ولك أن تؤخر نشر القسم السياسى منه إلى حين . أما قسمه الأدبى والاجتماعى فستكثر حولها الأحاديث ، ولكنهما في الأدب والنقد والتاريخ نصر وفتح »

نزلت على رأى الصديق العظيم وعدت بالخطوط الغالى إلى موضعه من المكتب . ثم أعلنت أنى سأنشر بعض صوره الأدبية في « الرسالة » وقد نشرت بالفعل منه صورتين أو ثلاثاً رفّت لها الآذان وأصغت إليها الأفتدة

ولكن وا أسفاه ! لم يعد للطفل الحبيب نفس ينسِم على نفسى ببرد الجنة ، ولم يبق من الكتاب العزيز سطر يشعب فؤادى بذكرى العراق !

والهفتاه على ولدى الذى أبدعه الله ، وعلى أخيه الذى أبدعته ! جاء معاً في الشتاء ، فلم أجد بفضل وجودهما برداً ولا عبوساً ولا كآبة ؛ وذهبا معاً في الربيع ، فلم أحس بسبب فقدما دفئاً ولا طلاقة ولا بهجة . أودى بهما القدر العايب خداغاً

وغيلة ، فسلب العين الكلوء ريبة الحذر ، وجرّد الدفاع اليقظ من فرصة الحيلة .
 دب للطفل الموت الوحي^(١) في وعكة خفيفة من البرد ظنها الطبيب زكاماً عارضاً فإذا
 هي الخناق^(٢) القاتل . ومشى للكتاب القدر المحتوم في ركام من الورق المتروك
 فذهب به خلصة إلى النار المبيدة !

أخذت ذلك الكتاب ذات يوم من درج المكتب لأختار منه فصلاً
 للرسالة ، ثم جلست في البهو على كنبه بُعثرت فوقها وأمامها تجارب المجلة وأصول
 المقالات ، فاخترت من المخطوط قطعة أدبية ثم ألقيتها إلى جانبي ، وأخذت
 أصحح (الملائم) وأطرح (الأصول) حتى فرغت من ملزمتين فدفعتهما إلى
 غلام المطبعة ، وخرجت من البهو لا في يدي ولا في جيبى لأترك هذا الورق
 المهمل لخادم البيت تسكنسه من هنا ومن هنا ، ثم تطرحه على عاداتها كل يوم
 في صندوق الكناسة ، ويأتى الزبال فيأخذ ما تجمّع في الصندوق ويحمله على
 عادته كل يوم في زنبيله إلى المستوقد !

وهكذا قضى الله أن تذهب إلى العدم خلاصة العمر وعصارة الفكر
 في فترة ضائعة من فترات الغفلة ! وهيهات أن يكون لها في الحياة عوض ، فإن
 الفلذة إذا اقتطعت من الجسم لا ترجع إليه ولا تتجدد فيه ، وسحر المنظر
 الجديد لا يتكرر أثره في نفس زائرته ومجتلبيه

حوالت بصرى عن الصفحة ثم أطرقته . ولجّ بي الإطراق والاستغراق
 حتى سقط الدفتر من يدي ، وتلاشى الحاضر من نفسى ، ووثب الماضى إلى
 خاطرى ، ووقفت أمام الفاجعتين وجهاً لوجه ، فكأنما لبث الزمن واقفاً حيث
 كان ، وظل الجرح نازفاً حيث طعن ، وبقي القلب واقداً حيث اشتعل ؛

وكأنما أسلفني كل ضعف إلى الجزع ، وخذلتني كل قوة حتى الإيمان !
تفصد جيبيني بالعرق ، ثم اخضل جفني بالدموع ، فأخذت نفسي تثوب
رويداً إلى ، وتحركت يدي في فتور فتناولت الدفتر ثم جعلت أصفحه ، فغثرت
في ثناياه على ورقة بالية من مسودات كتابي الفقيد ؛ فنشرتها بين يدي ثم
أقبلت على قراءتها لهيف القلب زائغ البصر فقرأت :

« . . . هذه القهوة الضَّحْيَانَة التي رقدت على صدر دجلة النابض ،
واستفرقت في الدفء والضوء والسكون ، كانت أحب القهوةات إلى القلب
العميد والخيال الشاعر . كنت كثيراً ما أغشاها بُعِيد الغداء فأجد جماعة
أو جماعتين يلعبون الورق هنا ، وفي أو فتيين يتساقطان الحديث هناك ، وبائع
(الأبيض والبييض والعنْبَا)^(١) يسرق خطاه بين هؤلاء وأولئك فيذكرُ بنداؤه
الخافت البطونَ التي شغلها عن طلب الطعام سكرة القمار أو نشوة المنادمة ،
فأجعل ظهري إلى أحلاس^(٢) القهوة ، ووجهي إلى وجه دجلة ، وعيني إلى
جسر (مود) ، ثم أشاهد فلماً عجيب الألوان من الناس والأجناس والصور :
فهذا قطيع من الغنم يعبر الجسر إلى المجزرة في رحى راعيه وهو مستسلم
لصوته منقاد لعصاه استسلام الأمة للطاغية يقودها إلى الحرب ، وانقياد الخليفة
للقدر يسوقها إلى الموت ! وهذا الملك فيصل يعود من قصر العرش إلى قصر
(الزهور) من غير حرس ولا جلبة ، فيقف في غمرة الناس على فم الجسر ينتظر
أن يعبر القطيع وراعيه ! وهناك تلاقى راع وراع ، وتقابل قطيع وقطيع !
واسكل إنسان في دنياه مملكة ينفذ فيها حكمه ، ودائرة ينمقد عليها أفقه . . . »
ثم حاولت أن أقرأ بقية الورقة الذابلة الحائلة فلم أستطع !

(١) الأبيض : الخبز ، والعنبا : ثمرة المانجو تملح وهي فجة وتؤكل مخللة

(٢) أحلاس القهوة : هم الذين لا يكادون يبرحونها

مِنْ وَرَاءَ الْمَنْظَارِ

[٢٢ يناير ١٩٤٠]

سافر صديقي (عين) إلى الريف ليضحى بكبشه المنوفى الأملح هناك .
ولصديقي الوفي (عين) ولع بالريف عجيب . فصباحه عرائس شعره ، ومشاهده
مسارح خياله ، ومعاهده ملاعب هواه ، ومزارعه صقال خاطره ، ومطاعمه عافية
بدنه . لذلك تراه كلما افترص العودة إلى الريف في ساعة من النهار أو الليل
أسرع إلى القطار أو إلى السيارة دون أن يشاور أهله ويودع صحبه ويرتب عمله !
دخلت صباح اليوم مكتبه الذي يكتب فيه (من وراء المنظار) فوجدت
الكرسى خالياً وليس أمامه خبر ، والمنظار متروكاً وليس وراءه نظر ! فقلت
لنفسى : لم لا أجرب هذا للمنظار التى تنفذ منه (عين) الصديق إلى ما وراء
الصدور والستور والحوادث ؟ أما يجوز أن يكون سرفنه فى هذا المنظار فأرى به
ما يصح أن أصوره وأنشره ؟

سألت عن ذلك نفسى ولم أنتظر ما تقول ، فقد أخذت للمنظار وترك
الدار ووضعت على أنفى وأنا أمشى على طوار الشارع الذى عرفته وألفته ،
فإذا الناس غير الناس ، والمدينة غير المدينة ، والدنيا غير الدنيا !
كأنما هذا المنظار من صنع الله الذى أتقن كل شئ ! فإن فيه أسرار
المناظير المعظّمة والمقرّبة والكاشفة ؛ وفيه غير ذلك قوة التجريد فهو يرد كل
شئ إلى طبيعته ، ويظهر كل شخص على حقيقته
مشيت به فى زحمة الطريق مشية الغريب الجاهل فى البلد العجيب

الجهول ، تزخر نفسه بعواطف شتى من الغضب والعجب والدهش والإنكار والخوف ، ثم لا يملك أن يسأل لأن لسانه معقود ، ولا يستطيع أن يصبر لأن جلده معقود

رباه ما هذا الذى أرى ؟ أهذا هو الصديق البر الذى خالصته الود وسأهته الوفاء وعاشرته نصف العمر ، ثم لا ألقاه إلا صاحفنى بالكف الناعمة ومازحنى باللسان المعسول ؟ ما باله قد تساقطت عنه لفائفه الوردية ، وحالت عليه أصباغه العبقريّة ، فبدا أمامى عارياً ضارياً كالأسد الجائع ، تتقد عيناه بالشر ، ويمتخطب شذقاه بالشره ، وتمتد يداه الباطشتان إلى قوتى الذى لا مساك للنفس إلا به ؟ وفى شريعة الوحش لا تتصافح الكفان ما دامت بينهما فريسة ؟ ولكن الإنسان وحده هو الذى يستطيع أن يسلم يده ويلطم يده !

أهذا هو رجل الدين الذى عرفته عنوان الفضيلة ومثال الورع ولسان المعروف ؟ مالى أراه اليوم قد تهتكت الأسرار عن تنكره البارع ، فلجيته المستعارة تكاد أن تسقط ، وزهادته الكاذبة تهتم أن تفترس ، وحلته الدينية تشف عن جسد دنيوى تلهبه الشهوة المسعورة ، تذيبه الرغبة الملحة ، ويود لو تنقلب المواعظ والآيات فى فمه رُقّى سحرية ينال بها عرض الدنيا وعزّة الجاه ؟

أهذا هو العظيم المتأبّه الذى أشاهده من حين إلى حين يمشى وأنفه فى السماء ، ولغايده تكاد تنشق من نفخة الكبرياء ، ونظراته وكلماته توزع على من حوله احتقار القوى واستكبار المتسلط ؟ إني لأراه الساعة من خلف هذا المظهر المونق والرواء الخلاب جثة ضئيلة الأجلاّد خبيثة الريح يلتف جلدها الرقيق الشاحب على ضمير مثقل بالخزى ونفس مطمئنة إلى الهون . وكأنى أنظر

إلى بقايا الإنسانية فيه تحزه في مواطن الحس منه بكلام معناه : يا عز ما بينك وبين الناس ، ويا ذل ما بينك وبين نفسك !

ومن هذا ؟ أهذا هو السياسي الذي ألف معجماً في لغة الوطنية ، ونظم ديواناً في مدح الدستور ؟ أهو من أرى أم ذلك تاجر يهودى السمات يتجر بالكلام كالمضاربين في (البرصة) ، ويراهن على الزعماء كالمراهنين على الخيل في السباق ، ويضحى بالمنفعة اليسيرة لينال مقعداً في البرلمان ، أو بالوظيفة الصغيرة ليبلغ كرسيّاً في الوزارة

وما خطب هذا الشاب الذى يتجمل بالبذلة المهندمة ، ويتنبل بالحركة المنظمة ، وليس في كيسه قرش ولا في بيته قوت ؟ لماذا يجلس في هذه المركبة الفخمة مع هذا الرجل وهذه المرأة ؟ أيريد أن يخدع الرجل فيبتز ماله بالصدقة ، أم يريد أن يغوى المرأة فيسلب ثروتها بالزواج ؟ لقد بان في المنظر أنه (ابن ذوات) أفلس فتاجر في الاحتيال وسمسر للرزيلة . واللذان معه زوجان أرستقراطيان يقوم زواجهما على الرياء والخيانة ؛ فالفتى يبيع الرجل أعراض الناس ويشتري منه عرض نفسه . وهوبهاتين الوصيلتين صديق الأسرة الأدنى وكلها المسووح المدلل !

وما حال هذه العصابة التى تندو كل ليلة إلى مجلس شراب أو سامر أنس ، فيتنادمون على الكأس بطرائف الأدب وروائع النكت ومداعبات الصداقة ؟ لقد كنت أحسبهم جميعاً فأصبحوا في هذا المنظار شتى ! فهم لا يتصافقون على الود إلا في مجالى اللهو ؛ فإذا تفرقوا تناكروا وبسط كل منهم لساها في الآخرين بالذم ، ودرج بعضهم بين بعض بالوقعة ، وصحح كل واحد لنفسه ما تقسم من الفضل في الجماعة !

أعوذ بالحلیم الستار، من شر هذا المنظار ! لقد شوه في عيني جمال
الوجود ، كما يشوه المكسكوب بشرة الوجه الرقافة . ولا مرء في أن جمال
الدنيا خداع ، وسعادة العيش وهم ، وحياة الناس تمثيل ؛ فإذا أزلت عن العيون
غشاوة الإيهام فرأت كل شيء على طبيعته وكل شخص على حقيقته ،
لا يبقى الجميل سحر ، ولا لعجيب سر ، ثم لا يكون بين أحد وأحد ألفة ،
ولا بين جماعة وجماعة نظام



أَمَلٌ وَذِكْرٌ

[٢٩ يناير سنة ١٩٤٠]

كانت القاهرة في أيام عيد الأضحى حجا للعروبة ، كما كانت مكة فيها حجا للإسلام . وكان بين عرفات والمقطم أمواج متعاقبة من شعاع الروح الإلهي تشرق في الأبصار والأفواه والأفئدة فتتعارف وتتآلف وتتكاشف ، فيفيض كل قطر إلى أخيه بينات قلبه وذات صدره^(١) وكان ولا شك بين وفود المؤتمر الطبي العربي ، كما كان بين حجاج البيت الإسلامي الحرام مذاكرات وأحاديث فيما يكرب الأرض ويحزب الناس من انفجار العدوان والطغيان والشر في أكثر بقاع العالم ، فكان إصفاق الرأي ولا بد على ضرورة الوحدة العربية بأي شكل وعلى أي نظام

والحق أن الوحدة العربية في شتى صورها لم تكن في عهد من العهود ولا في حال من الأحوال ألزم منها لحياة العرب في هذا العهد وعلى هذه الحال . فقد كانت بالأمس سبيلاً من سبل السكالم الإنساني تصد عنها عصبية المكان وحزبية المذهب ، ولكنها أصبحت اليوم ضرورة من ضرورات البقاء تدعو إليها طبيعة الحياة وسلامة الذات . لذلك لهج بها وفود المؤتمر وشهوده في حفلاتهم الرسمية والشعبية ، واعترف بها ودعا إليها وزير الشؤون الاجتماعية في خطبته الخطيرة بدار الأبرار الملكية

(١) بنات القلب : العواطف . وذات الصدر : الأسرار

كان عيد القاهرة بما رأينا من تعاطف الإخوة المؤتمرين مبعث أمل ؛
وكان عيد بغداد بما سمعنا عن مصرع الوزير رستم حيدر مثار ذكرى . ولم
يكن من السهل على الخاطر — وقد امتلأ البصر والسمع بشباب العراق
وأخباره — أن ينصرف عن الفكر في حاضر العراق وماضيه

رحم الله رستم حيدر ! لقد كان وحده فصلاً في تاريخ العراق الحديث .
وإذا كان في بعض حواشي الملوك رجال للهو والزهو ، وآخرون للتجسس والتمويه ،
فإن رستم حيدر كان وحده في حاشية الملك فيصل رجل الجد والعمل . ولم أر
في المهاجرين إلى بغداد مع صقر قریش أعلم ولا أفهم من رستم حيدر وساطع
الحصرى . وقد أبلى الرجلان في إذكاء النهضة العراقية البلاء الحسن : هذا
في ميدان الثقافة ، وذاك في ميدان السياسة . وكان بينهما مشابهة من جهات
كثيرة : فكلاهما مستقل الفكر ، له في كل مسألة رأى وعلى كل رأى
اعتراض . وكلاهما متقن للعمل ، يتقضي أطرافه ويستبطن دخائله . وكلاهما
صليب الرأى ، يعييك أن يتابعك على ما تريد . وإذا كان بين الرجلين
اختلاف ، فهو الاختلاف الطبيعي بين رجل السياسة الذى يتأثر بالأحوال
والرجال والحوادث ، وبين رجل العلم الذى لا يستخدم غير المنطق ولا يتوخى
غير الحقيقة

كان المرحوم رستم حيدر ظاهر الوقار ، دائم الانقباض ، كثير الصمت ،
خافض الصوت ، هادئ الحركة ؛ ولكن هدوءه كان كهدوء الماء العميق ،
تضطرب في جوانبه الأفكار والأسرار وهو ساكن السطح بارد الأديم
وكان منذ اشتغاله بشؤون العراق مستشار المغفور له الملك فيصل في سياسته
الداخلية والخارجية ، لبصره بعلوم السياسة والمال ، وعلمه بمدخل الأمور ومخارج

الحيل . فكانت أعمال العاهل العظيم تجد مصاديقها غالباً في أقوال المستشار اليقظ
كان من سياسة رسم الاعتماد بعد التاميز على الفرات قبل دجلة ؛ لأن
الفرات شيعي المذهب ، وعلى ضفافه الخصبية تنزل القبائل البدوية القوية .
وفي تقويّه بالشيعة حيطة من نجد ومودة لإيران

وكان يشيح بوجهه عن مصر ، لأن هواها في ثورة الحسين على الترك كان
مع الخلافة ، ولأن اشتغال طلبتها بالسياسة كان في رأيه مرضاً مخطرأ لا ينبغي
أن تسرى عدواه إلى العراق . ولعله كان السياسي العراقي الوحيد الذي لا يهتم
بأحوال مصر ، ولا يتصل برجال مصر

وكان من رأيه توسيع التعليم الأولى والمهني ، وتضييق التعليم الثانوي ،
وحصر التعليم العالي في مدرسة لتخريج الموظفين ورجال الإدارة ، خشاة أن
يكثر المتعلمون المتعطلون فيكونوا مصدرراً للشغب والإضراب والفوضى . وفي
ذلك العهد الذي أرجع بذاكرتي إليه أغلقت المدارس العالية جمعاء إلا مدرسة
الطب . وكان من أشد المعارضين لهذه السياسة التعليمية الأستاذ ساطع الحصري ،
لأنه كان يحاول أن ينشئ الثقافة العامة على قواعد العلم الخالص دون أن يحفل
بأهواء الطوائف وأغراض السياسة ، ولذلك نحى حينئذ عن سياسة المعارف .
وكان من خطة المرحوم رسم أن تظل الأراضي الزراعية ملكاً للحكومة
لتضمن بمنح الالتزام ومنعه طاعة القبائل وتأديب العصاة . ومتى تحضرت
الشائز وتوحد القانون وعمت المدنية الاجتماعية أمكن أن توزع ملكية الأرض
على نظام عادل

تلك هي أقوى الأصول التي كانت تنبت عليها سياسة القصر في ذلك
الحين ، ولا يعلم غير الله مقدار أثر المستشار في وضع هذه السياسة

لقد كان المرحوم رستم حيدر عنيداً في رأيه صليباً في خطته . والعناد والصلابة صفتان لا يحسنان فيمن يتولى أمراً بالعراق

دخلت عليه ذات يوم من عام ١٩٣٢ وهو وزير المالية أسأله أن يرد على صديقي أمير بنى تميم ما أخذته الحكومة من أراضيها الملتزمة وهو يبلغ خمسة عشر ألف فدان ، فأجلسني إلى جانبه عن يسار المكتب الذي سُمك عليه دمه منذ أيام ؛ ثم أخذ يقنعني بالحجج والشواهد أن الحكومة محقة وأن الشيخ مبطل . ثم غزا المصادرة إلى أمور تتعلق كلها بسلامة العشيرة وإقامة العدل . ولم ير نفسه في حاجة إلى ذكر السبب الأول ، وهو أن سيد تميم عضو قوى في حزب المعارضة ! فأدهشتني جرأة الوزير وأعجبته لباقته ، وعجبت كيف يصر على مناوأة الشيخ وفي سبيل خمسة عشر ألف فدان تخشى الخصومة ! ولكنه نجا من مناوأة الأمير لأنه طالب مجد ، ولم ينج من مناوأة الموظف ^(١) لأنه طالب قوت !

(١) الموظف الذي قتله في مكتبه لسبب إداري



الحياة جميلة

[٥ فبراير سنة ١٩٤٠]

الحياة جميلة ، وما يشوّه جمالها غير هذا الحيوان المسمى بالإنسان ! لم يعيش فيها كما تعيش سائر الأنواع على رسم الفطرة وهدى الطبيعة ووحى الله ، وإمّا عاش على قوانين من وضعه استمدّها من أثرته وكبريائه وهواه فكان شرّاً على نفسه وحرّاً على غيره

ربما اقتتل الوحش والوحش أو الطير والطير في سبيل القوت أو النسل ؛ ولكنه اقتتل الساعة لا يسبقه تدبير ولا يصحبه حقد ولا تلحقه جريرة . أما الإنسان فهو وحده كدّر السلام وقذى الحياة ! أحميا لنفسه بفضل ذا كرتة ماضياً يحفظ الثأر ، وخلق لنفسه بفضل بصيرته مستقبلاً يحمل الخوف ، فكان حاضره بينهما قتالاً مستحيراً لا ينقطع ولا يفتر ، إما دركاً لثأر الأمس الذى يتذكره ، وإما كسباً لقوت اليوم الذى يتبصره ، وإما درءاً لخوف الغد الذى يتصوره

الحياة جميلة وأجمل منها الحى الذى يدرك هذا الجمال ويتذوقه ويستوعبه ويكتسبه . فالطائر أجمل من الروض لأنه عرف كيف ينقل ألوانه على ريشه ، ويجمع ألوانه فى صوته . والأسد أجمل من الغابة لأنه استطاع أن يجعل رهبتها حية فى رهبته ، وعظمتها ماثلة فى عظمته . والجل أجمل من الصحراء لأنه اندمج فيها فسير جبلها فى هيكله وصور رملها على أديمه . والحوت أجمل من البحر ،

لأنه قطعة من الحياة صيغت من لين مائه وشدة موجه وسرعة تياره .
 وكأنما يدرك الطبيعة ويسايرها ويتأثر بها كل شيء من ناطق وصامت إلا
 هذا الإنسان ! فقد خرج عن سنة الله في خلقه حتى اختصه بالأنبياء والرسل
 والمدارس والكتب ! وهيهات أن يدخل النور عين الضير ، ويبلغ الصوت
 أذن الأصم !

الحياة جميلة . وليس جمالها قصرًا على قوم دون قوم ، ولا على طبقة دون
 طبقة . إنما الجمال وضاعة الفن الإلهي أشاعه الله في الأرض والسماء ، وهيا
 المدارك الاستغراق فيه والاستمتاع به . فمن كان ذا سمع وبصر وقلب وجده
 في كل منظر وأحسّه في كل حالة . فهو لاء الذين يمرون عليه وهم معرضون عنه قد
 فسدت فهم طبيعة الحياة ، وتبدلت فيهم ملكة الحس ، فانقطع ما بينهم وبين
 الوجود الحق والوجدان الصحيح

إن الجمال وسيلة الطبيعة لحفظ الحياة وبقاء النوع ، تجمع به ما شتَّ ،
 وتؤلف به ما نفر . وهو بعد ذلك سرور النفس ونور القلب وسلام الروح ؛
 فمن تملاه في صورته الحسية والمعنوية في الكون كان له منه في كل زمان شباب
 وفي كل مكان ربيع

الحياة جميلة . ومظهر الشعور بجمالها المرح والبهجة . فأينما تر الخلود والكتابة
 تر الشعور الذي أدركه الكلال أو أصدأه القبح أو أفسده الشر ، فيموت فيه
 الوعي ، أو ينعكس فيه الجمال ، أو ينقلب فيه الخير . فالجمال في الطبيعة لا بد
 أن يجاوبه جمال في النفس . والصفاء في العيش لا بد أن يعادله صفاء في القلب .

الموظفون والناس

[١٢ فبراير سنة ١٩٤٠]

ابتليتُ في هذه الأيام أن أختلف إلى بعض الوزارات في شأن من شؤون الرسالة . وأشد الأمور على نفسي أن أغشى دواوين الوزارة أو أقسام الإدارة ، لأنني أعتقد كما يعتقد أمثالي من السوقة الأحرار أن الحكومة من الأمة بمثابة الرأس من الجسد ، فيه التفكير والتدبير والقيادة ، وليس فيه الاختيال والشموخ والسيادة . ولكن الحكومات في أمم الشرق لا تزال تعتقد أن الرأس معناه أن يوضع فوق الجسم ليسمو على أعضائه ويعيش على غذائه . فإذا دخلت دورها لا تجد فيها الروح الوطنية التي تبعث الحياة العامة ، ولا الفكرة الاجتماعية التي تدير المنفعة المشتركة ، وإنما تجد بها مظاهر شتى للسلطان الجبار والبيروقراطية^(١) الصلِفة تعطل معنى الإصلاح وتبطل حقيقة العدالة

تري أول ما تری جيشاً من الشرطة وكتّاب السر والحجاب والسعاة يسد أبواب المسكاتب ، وبملاً مدارج الطرق ، ويشغل فراغ الحجر ؛ وهذا الجيش الذي يكلف الخزانة لا أدرى كم من المال ، لا عمل له إلا بث الرهبة وإظهار الأبهة والحيولة بين الناس وبين القائمين على (مصالحهم) من أولى الأمر . فإذا ساعفتك الفرصة أو ساعدتك اللجاجة فنجوت من شراسة الشرطي أو الحاجب ، وخلصت من غطرسة السكرتير أو الكاتب ، دخلت على الموظف الكبير بهواً كأبناء القصور ، فرش بالطنافس ، وأثث بالأرائك ، وزين بالتحف ، وأدق بالسكرباء ، وقام في صدره الحالي^(٢) طرفة من طرف الأثاث يقولون إنها مكتب ،

(١) البيروقراطية : حكومة الموظفين

(٢) الحالي : ضد العاطل ، وهو المزدان

ومن وراء هذا المكتب الفاخر كرسى وثير متحرك جلس عليه الموظف العظيم وثيابه تكاد تنشق من ورم الكبر ونفخة السلطة ، فلا تستطيع من رهبة السلطان أن تكلمه ، ولا يستطيع هو من غرة المنصب أن يكلمك هذه المظاهر القائمة على السرف والترف يجب أن تزول أو تخفف ، لأنها تحيط الموظف بجو من العظمة المستعارة تزور له ذاته ، وتفسد عليه حياته ، وتجعل ميزانه الاجتماعى منصوباً على ضميرين مختلفين : يزن فى بيته ولنفسه بضمير ، ويزن فى الديوان وللناس بضمير . ويا ويل ذى الحاجة إذا دخل على الموظف مكتبه وليس منسوباً إليه ولا معروفاً لديه ولا موصى به ! إنه لا يجد إلا النظرة القاسية ، والكلمة الجاسية ، والإشارة المهينة ، والهيئة الوقحة التى تصرخ فى وجهه بهذه الجملة :

يا بُعد ما بيني وبينك ! أنا حاكم وأنت محكوم ، وأنا (ميرى) وأنت (برانى) . فإن احتمل المسكين الهون وقف على مضض ، وإذا ملكته الحمية انصرف على شجار !

لقيت منذ يومين فى فناء الوزارة الفلانية صديقى فلاناً المهندس المقاول خارجاً يزجر من الغيظ وينتفض من الغضب . فقلت له وأنا أربت على كتفه :

— كفاك الله الشر ! ما ذا بك ؟

فقال بصوت يتفجر بالسخط ويتهدج من التأثر :

— والله يا أخى ما أدرى أنحن عبيد الموظفين ، أم نحن وهم عبيد القانون ؟ هذا فلان بك ...

— فلان بك ؟ ! إنه الرجل الذى أقصده الساعة فى مسألة عامة

— تعال تعال ! لا خير فى لقائه اليوم . لقد تركته يفور على الكرسى

فوران القدر على الموقد

٠ — ولم كان ذلك ؟

طلبت الإذن عليه لأشكو إليه خلل إدارته وإهمال مرءوسيه ، فإن لى عملاً يدخل فى اختصاصه مضى عليه سنتان ، وكان يكفى لإنجازه يومان ، فأهملنى عند سكرتيه ساعة ثم خرج غير آذن ولا معتذر . فانصرفت خجلان من سوء ما يظن بى مدير مكتبه ، ثم عدت إليه يوماً آخر وطلبت إذنه مع الطالبين ، وفيهم كما علمت النائب والصاحب والقريب ، فدخلوا وخرجوا ، ثم دخل قبلى من جاء بعدى ، حتى لم يبق فى شرف الانتظار إلا أنا ورجلان من أصحاب العمل . حينئذ قال سكرتيه : إن البك مشغول بقية الوقت ! فثار فى وجهى الدم ، وطفى فى رأسى الغضب ، فاقفحت عليه الباب وقلت له من غير اعتذار ولا تحية : يا سيدى البك ! ربما كنت أنا الزائر الوحيد الذى زارك اليوم لعمل من الأعمال التى تجلس لها وتؤجر عليها ، فلم يكن من اللائق بأمانة المنصب أن تحجبني مرة بعد مرة لتستجيب إلى طلاب الشفاعات والوساطات من ذوى الصداقة والقرابة . . .

خملق البك فى " وقد استشاط وبربر وصاح : مَنْ أنت ومن أذن لك بالدخول ؟ فقلت له : أنا فلان ! سرى من سراة البلد ، وثروة من ثروات الأمة . نشأت فى مهد العُدم ، ثم تعلمت للعمل الحر ، وضربت فى سبيل العيش الكريم من أفق إلى أفق ، حتى أصبح عملى الناجح مرتزقاً لمئات من الأسر العاملة ، وأصبحت — وأنا لا أزال فى شباب الكهولة — ذا خمسين ألف جنيه ورتبة . أما أنت فالكبير الصغير ! كبرك المنصب والمرتب اللذان أدركتهما بمضى المدة ، وصعرك العجز والكسل اللذان كشفاك فى إدارة العمل . إن سلطان الوظيفة

يا سيدى عرض منك ومتاع زائل . فإذا شئت أن تعرف أين أنت منى فدع
منصبك الحصين وادخل معى فى غمرة الدنيا وزحمة الناس ، ويومئذ نرى أيننا
يوطأ بالأقدام ، وأيننا يرفع على الرؤوس . . .

وهنا رأيت الرجل يكاد يتمزع من الغيظ فأهوى بيده على أزرار الأجراس
فصلصت جميعاً ، وقال لحجابه وسعاته : أخرجوا هذا . . . من هنا . فأخرجونى
على حال من الهوان لا يصبر عليها إلا رجل حازم أمام موظف أحمق .
فقلت له ونحن نمشى الهوينى فى طريقنا إلى البيت : هون عليك يا صديقى
فإن أكثر الموظفين حالهم مع الناس كحال هذا الموظف معك

أيها القلم !
لشد ما أتمنى على الله أن يجعلك فى يدى سنناً يخز ، ومعولاً يهدم ! لقد
عجزنا يا قلم وعجز الكلام !



الربيع الأحمر

[١٩ فبراير سنة ١٩٤٠]

الربيع الأحمر ! ذلك هو الربيع المقبل كما يتصوره الشاعر !
لا يزال الربيع جنيناً في بطن الأرض ، وإن الطبيعة تهيب لجذوره
وبذوره الغذاء المرء والكساء الوضيء من دماء البشر !
سيولد ولادة الملوك على حشد الجنود وخفق البنود وقصف المدافع
وسيدرج في غلائله الأرجوانية الموشاة على فجوات القنابل وأخايدها ، فيبذر
الحياة في الموت ، وينشر الجمال على القبح ، وينثر أزهاره الغضة على جثث
وقبور ! ويومئذ لا تدري وأنت ترى غيم الدخان وبرق النيران ، وتسمع صفير
الرصاص ورعد القذائف ، أنحن في ربيع أبريل أم في شتاء يناير ؟
على أن الشتاء كان على الناس سلاماً وبركة ! خمدت على جليده لظى
الحرب ، وجمدت في ثلوجه مخالب الموت ، واستطاع بفضل الهرف الفنلندي الضئيل
أن ينشب أظفاره في حشا الدب الروسي الهائل ؛ ولكن الربيع الذي جعله الله
نشوراً للحياة ومعاداً للشباب ومبعثاً للحب ، سيعين لؤم الإنسان بدفء نسيمه
وصفاء جوه ، على أن يجعل الأرض لنفسه مجزرة ومقبرة !

الربيع الأحمر ! ذلك هو الربيع الذي لا يخلقه الله وإنما يخلقه الإنسان !
سيخلقه من الذهب والذهب والدم ، فيجعل من الجداول خنادق ومن
الأغصان بنادق ومن الأدواح مدافع ؛ وإذن تصبح الأعشاش الناعمة المغردة

المطارة مثابة بؤس ومناحة شباب ومستودع غاز !

سيعود ربيع الله الأخضرُ بطيوره وزهوره ونوره وسروره إلى الجنة ،
وسيستعير الإنسان مادة ربيع الدامى من جهنم ، فينبت في كل بقعة من بقاع
الأرض آجام من شجر الزقوم الباسق الألف ، تنز في آفاقها الطوائر ، وتعج
في أجوافها المدافع ، وتدب في مدارجها الدبابات ، وتهب في مجاريها السموم ،
وترتد فيها أناشيد السلام وأغاريد الغزل أنات وصرخات تذوب لهولها الهائل
قلوب الشياطين !

تبصروا أيها السادرون من ساسة الشعوب ! أهذا هو الربيع الريان الذى جعله
الله حدة للحياة وممتعة للحى ، أم هو الخريف الميت أحرقتة الحرب باللهب ،
وكفنته بالنجيع ، وأخذت عواصفها الرعن تكسح الأرواح الساقطة قبل
الأوان لتقذف بها فى هوى العدم ؟ لم تستعجلون أمر الله ، وتستقدمون يوم
القارعة ، وتحاولون أن تدكوا الأرض ، وتشقوا السماء ، وتدرؤا الكون الذى
عمرته القرون وحضرته الأمم كمعبد (داجون) أنقاضاً على شمشون وأعدائه ؟
هيهات أن تصيخ اليوم لنداء السلم أذن ! لقد جمع الهوى بالعقل جموح
الفرس الشموس ، فلا هو يسمع الصوت المهيّب ، ولا هو يطيع اللجام الكابح !
تلك مشيئة الله ، وما تشاءون إلا أن يشاء . ولعله ، عزت حكمته ، يريد
من هذه القيامة العاجلة أن يحيى الناس حياة أخرى على نمط من الهداية جديد

الربيع الأحمر ! ذلك هو الربيع الخلاق الذى يهز الأرض هزاً فتربو
وتنبت ! سبهزها هز العافية ليسقط الذاوى وينتعث الهامد . والحرب تشذيب
لغرس الله تقوى عليه الغصون ، ويزكو بعده الثمر . وآفة الحرب أنها تودى

بالصالح للحياة وتُبقى على الصالح للموت ؛ ولكنّها كالسيل الأتىّ يجرف تياره
الجنىّ واليابس ، ويغرق طغيانه العامر والغامر ؛ فإذا انقطعت روافده وجفت
مجارياه عادت الأرض به أخصب تربة وأوفر غلة

مرحباً بالحرب إذا لم يكن من خوض غمارها بد ! إنها تقطع الفضول
وتنقى الخبث وتذيب الغش وتذهب الوهن . ولعلنا أحوج الأمم إلى ظهور
الحرب يرحض عنا رخاوة الذلة واستكانة الرق ! فقد غبرت على وجوهنا قرون
من التبعية المستسلمة لو مرت على الضواري لطمست في جباهها معارف الجرأة ،
وأماتت في نفوسها معاني الافتراس . كنا نعيش في ظلال المتبوع عيش الأمان
والغفلة ، لا نعرف الحدود إلا على الورق ، ولا نشهد الحروب إلا في السينما ،
ولا ندرك معنى الدفاع عن النفس في وجود الحامي إلا كما تدركه الزوجة المرفهة
في وجود زوجها ، والولد المدلل في حضرة أميه ، حتى فشا فينا الجبن ، وغلب
علينا التواكل ، وقعد بنا الرضى فتركنا ثروتنا للغريب ، ووكنا حمايتنا
للخليف ، وفرغنا للتنافس في الهزل ، والتراشق بالتهم ، والتسابق إلى النيابة ،
أو الحكم من غير كفاية ولا غاية !

الربيع الأحمر ! ذلك هو الربيع الجبار الذى يأكل غنّاء الخريف
وحطام الشتاء ليحييها في جوفه النارى غذاء لشجره ونماء لثمره !
هو وحده الذى يستطيع أن يقطع الخطب ، ويقتلع العليق ، وينبت على الجذور
البالية خلفة نامية زاكية تهىّ الروض الهامد للنضارة والطهارة والإنتاج والبركة .
إن روضنا يا ربيع هشيم وخشب ! فأحيه بالماء أو بالدم ، وعالجه بالغذاء أو بالسّم ،
فقد استعصى يا ربيع علاجه على النّيل ، ولا بد أن يضحىّ بحيل في سبيل حيل !

من بريد الرسالة

[٢٦ فبراير سنة ١٩٤٠]

على غير انتظار ولا توقع وجدت اليوم في بريد الرسالة كتاباً من السيدة « حياة » . والذين كانوا يقرأون جريدة (الليبرتيه) على عهد ليون كاسترو ، أو مجلة (الرسالة) في عامها الأول ، لا يزالون يذكرون ولا شك هذا الاسم الجميل ، وذلك الأسلوب الساحر ، وتلك القريحة النسوية الصافية التي تخلق من الشعر والمنطق صوراً من الفكر الرصين البارِع

ذلك الكتاب كذینك الكتابین^(١) وردی الغلاف أثیق الخط مصری الروح فرنسی اللغة ؛ ولكنه یختلف عنهما بمعان من المحافظة والاعتدال لعلهما رجع^(٢) للمبالغة والإسراف فی حياة المرأة المصرية الحديثة لا أحب أن أفقدك شیئاً من جمال هذا الكتاب بتلخیصه أو اقتضابه ، فإنه فی ذاته وحدة من البیان الصریح والقول الشارح لا تقبل توطئة ولا تجزئة . فأنا أترجمه إلیك ترجمة لا تخالف الأصل إلا فی اللفظ ؛ أما تألیف الجملة ، وتنسيق الفكرة ، وتلوین الصورة ، فذلك كله لفن الكاتبة . وإذا علمت أن السيدة « حياة » إنما تكتب بروح عربية وطبیعة مصرية ، سهل علیك أن تدرك سر هذا الائتلاف العجیب بین العربية والفرنسية فی قلمها المبدع

(١) تحدثنا عنهما ونشرنا شیئاً منهما فی العددين العاشر والحادی عشر من الرسالة

(٢) الرجوع : رد الفعل

أستاذى العزيز

ما زلت أؤثر أن أكتب إليك بالفرنسية على الرغم من بلوغى فى البيان العربى بفضل الرسالة مكانة لا بأس بها . وسبب هذا الإيثار أن المرء يميل بطبعه إلى جهة القدرة لا إلى جهة العجز ، ويؤثر بغريزته جانب الكمال على جانب النقص . ولغنى العربية لا تزال عاجزة عن رياضة هذا القلم فى يدى ، فإذا كتبت بها إليك نهملتَ ما أكتب فتسبىء إلى ، أو أعملت فيه قلمك فتزوره على . وأنا كأكثر النساء مستكبرة أنوفة ، فلا أحب أن أكون من الرجل فى موضع الإهمال أو المعونة

أكتب إليك فى صباح ليلة ساهرة نائرة تقسمت مشاهدا العجيبة خواطرى ومشاعرى ، فكأننى لم أشهد قبلها ليلة ! والحق أن ليلة (مبرة محمد على) فى هذا العام كانت بدعاً فى نظامها وبرنامجها والاحتفال بها والإقبال عليها والديمقراطية فيها

لقد كان قصر المعرض بالجزيرة معرضاً حقيقياً لاجتماعنا الحديث . فالأميرات والعقيلات والآنسات والممثلات يصاحبهن أو يراقصهن أو يجاورهن الأمراء والكبراء والموظفون ورجال الفن ؛ وكلهم على النمط الغربى الرفيع فى أناقة الزى ورشاقة الحركة وأسلوب التحية ومراعاة الرسوم وإجادة الرقص ، حتى خيل إلى أن الحفلة فى (الجران باليه) بباريس لا فى السراى الكبرى بالقاهرة كنت أنتقل أنا وزوجى من مقعد إلى مقعد ، ومن مشهد إلى مشهد ، فى مسرح اللهو ، وفى حلقة الرقص ، وفى المقصف ، وفى (القهوة البلدية) ، فأجد أخلطاً من الناس يشتركون فى المظهر ، ولكنك تستطيع أن ترجعهم إلى بيئاتهم المختلفة من طريق الهندام ولهجة الكلام واختلاف الوضع . يسهل

ذلك التمييز في الرجال ويصعب كل الصعوبة في النساء ؛ لأن المرأة بفضل السينما والرياضة استطاعت أن تشأى^(١) الرجل في مضمار المدنية الغربية ، فهي في إتقان زينتها وانسجام سمتها لا تكاد تختلف عن كواكب هوليوود ؛ ما هو فبطيء التطور عصي الطبع لا يغشى أمثال هذه الحفلات إلا مسوقاً بإرادة زوجته أو ابنته

لعلك تذكر أنى كتبت إليك منذ خمس سنوات كتاباً قلت فيه عن حرية المرأة إنها مسألة لا تتعلق إلا بنا ، ولا يكون الحكم فيها إلاننا ؛ وما دخول الرجل فيها إلا أثر من اعتقاده القديم أن في يده زمام هذا الجنس المنكوب يرخيه ويشده على هواه ، والأمر لا يخرج عن كونه نظاماً طبيعياً يجري على سنة الحياة من سيطرة القوة على الضعف ، وطغيان الأثرة الباغية على العدل الذليل . فحرية المرأة كحرية الأمة ، سبيلهما الفعل وحجتهما القوة ؛ أما الدفاع بالقول والإقناع بالحق فأصوات مبهمه كزفيف الريح المحبوسة في مخارم الجبل لا تدل على الطريق ولا تساعد على المرج

قلت ذلك وما كان يهيجس في صدرى أن المرأة في هذه المدة القصيرة تستطيع أن تنزع من الرجل قيادتها وحريتها ثم تغلبه على إرادته وكرامته فتروضه هذه الرياضة وتخضعه هذا الخضوع !

لقد كنت أرى المرأة في هذه الليلة تراقص الغريب وتضاحك الكأس ، وزوجها أو أبوها يهيم لها فرصة المعرفة ويسعى لها بوسائل اللذة ، فأجذنى أنا ، داعية الحرية النسوية بالأمس ، أشد النساء ضيقاً بها وسخطاً عليها اليوم ؛ لأن هذه الحرية — بالقياس إلى الحرية التي كنا ننعم بها وندعو إليها — إباحية وفوضى ؛ وذلك في الحق علة ما نرى من التنافر بين الفتى والفتاة ، فقد

كان الظن أن يزول بالتعلم ما بينهما من تنافر العلم والجهل ، فأصبح هذا التنافر معززاً بتنافر الحشمة والتهتك . وما دام التلاؤم مفقوداً بين الجنسين إما لتقدم الرجل على المرأة في العلم ، وإما لتقدمها هي عليه في المدنية ، فهيات أن تنفرج أزمة الزواج أو تستقيم حال الأسرة .

كانت هذه الحلقة في السنين الخوالى مظهراً للحرية القصد والبر الخالص ، فما زالت عوامل التقليد والتجديد تلح على مزايا الأنوثة وخصائص الجنس حتى أصبحت معرضاً للجمال والدلال والزينة ؛ وذلك بالطبع سر نجاحها ورباحها ، وهو مغم لغايتها الشريفة على أي حال .

إني ألمح على المرأة في نادى السيدات وفي بعض الحفلات نزوعاً إلى تعدى الحدود التي جعلها الله بينها وبين الرجل ، فإذا لم نعالجه بالقطام والكبح أعزل الأمر وفسد المجتمع .

ولعلي يا سيدى أشير في (الرسالة) إلى مواطن الداء الحين بعد الحين ليتسنى لأرباب القلم وصفه ، ويسهل على أقطاب الحكم علاجه .
أدام الله عليك التوفيق وأعانك بالسداد على مواصلة الجهاد في تبليغ الرسالة . . .
(مياة)

هذا كتابك يا سيدتى قرأته وترجمته ثم نشرته ، وسأعود إليه بالتعليق والتحقيق في فرصة أخرى .



مُحَمَّدُ الزَّعِيمُ

[٤ مارس سنة ١٩٤٠]

وُلدت سنتنا الهجرية الجديدة وأسفاه في هذه الأيام التي اختبل فيها
إنسان الغرب فزلزل جوانب الأرض على نفسه ، وأبكم في فمه حجة العقل ووحى
الضمير ، فلا يتكلم إلا بلسان النار ، ولا يصول إلا ببأس الحديد . وراحت
المنايا الرواعد تدكدك المدن والناس في فجوات القنابل ، فلا ترى اليوم في بلاد
الحرب غير مقبور أو منتظر ، ولا في بلاد الحيدة غير مذعور أو حذر . ومفزع
الشعوب في غشية هذه الخطوب الزعماء والقادة . فليت شعري إلى من يفزع
العرب والمسلمون من هول هذه الساعة ؟ لم يُتَحِ الله لهم بعد محمد وخلفائه زعيماً
تجتمع عليه القلوب وترجع إليه الأمور في أقطارهم البعيدة ووجوههم المختلفة ؛
وإنما ابتلاهم بالانقسام والفرقة حين ضلوا الطريق ؛ فكان في كل قطعة من
الوطن الأكبر سرير وأمير ، وتوزعت زعامة محمد في كل جيل وفي كل قبيل
بين عشرات من الرجال العجاف ، فكانت كالشعلة العظيمة الوهاجة تقطعت
أقباساً كشموع الأطفال لا تقوى على نَسَمِ الريح ولا تظهر في حلك الليل !

تعالوا يا زعماء اليوم عانين خاشعين ألق عليكم درساً من زعامة محمد ! إن
فيكم زعماء أحزاب ، وليس فيكم زعيم أمة . أما هو فكان زعيم الإنسانية جمعاء
بلغتم مكان الزعامة الإقليمية عن طريق الحزبية أو الثروة أو القوة ،
ثم لم تستطيعوا أن تنسوا ضعف القمى الصغير الذي ارتفع على كواهل غيره ؛

أما هو فقد بلغ الزعامة العالمية عن طريق الألم والفقر والغربة والجهاد ؛ ثم جعل في عشر سنين من الرعاة الجفافة المشتتين على رمال القفر ، أمةً متماسكة الأجزاء ، متحدة الأهواء ، متساندة القوى ، متجانسة الطباع ، بلغت رسالة الله وحكمت عامر الأرض ، ومدنت أكثر العالم

إنكم تكونون قبل الزعامة ناساً كالناس ، ثم تصبحون بعدها آلهة كالآلهة ، تنكرون الخاصة ، وتزدرون العامة ؛ ثم تمتازون فتدخلون بفضل المبادئ المزورة والمناصب المسخرة في دنيا النبلاء والأغنياء . وما ذا بعد هذا ؟ أما هو فقد ملك الحجاز واليمن ، وجبى الجزيرة كلها وما داناها من العراق والشام ، وظل ينام على فراش من آدم حشوه ليف ، ويبيت هو وأهله الليالي طاوين لا يجدون العشاء ، ويمكثون الشهر لا يستوقدون ناراً . إن هو إلا التمر والماء ، ويلبس الكساء الخشن والبرد الغليظ ويقسم على الناس أقبية الديباج الخوص بالذهب ؛ فإذا أقبل على أصحابه فقاموا إجلالاً له قال لهم : « لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً . إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد » . وكان ذات مرة في سفر فأمر أصحابه بإصلاح شاة . فقال رجل : عليّ ذبحها ، وقال ثان : عليّ سلخها ، وقال ثالث : عليّ طبخها . فقال الرسول صلوات الله عليه : وعلىّ جمع الخطب . فقالوا : يا رسول الله فكيفك العمل . فقال : علمت أنكم تكفونني إياه ولكني أكره أن أتميز عليكم !

ولما استعز الله بقاسم الفيء ، زعيم الجزيرة وسيد الملوك كانت درعه مرهونة عند يهودى في نفقة عياله !

إنكم حينما تترعمون لا تفكرون إلا في مشوبة الصديق وعقوبة العدو ،

ثم لا تخرج أعمالكم وآمالكم عن دائرة الحزبية الصغيرة الحفيرة؛ فالمنفعة تقاس بمقياس الحزب، والسياسة تتلون بلون المنفعة. أما هو فكان يعادى في الله ويصادق في الله. اشتط في أذاه المشركون في مكة والمنافقون في المدينة، فلما أمكنه الله منهم بسط عليهم جناح عفوه، وقال لقريش يوم الفتح: يا معشر قريش! ما ترون أنى فاعل بكم؟ قالوا: خيراً! أخ كريم وابن أخ كريم! قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

ثم كانت سياسته كنور الله لا تعرف الحدود ولا الخصوص ولا الزمن؛ إنما هي سر الخالق العظيم استعلن في سكون الصحراء على لسان الرسول العظيم، ثم دوَّى في غياهب الآفاق ومجاهل الأبد ليكون الشعاع الهادي لكل ضال، والنداء الموقظ لكل غافل.

إنكم تُسيرون الجنود إلى الخنادق وتبيتون على حشايا الديباج، وترسلون العمال إلى المهالك وتظلون في أبراج العاج؛ أما هو فكان يقاتل مع الجندي حتى يدعى، ويعمل مع العامل حتى ينصب. وكان صحبه إذا احتدم البأس واحمرت الخدق اتقوا به فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه!

ذلك محمد يا زعماء اليوم وهؤلاء أنتم! فهل تحسون بينكم وبينه صلة، أو تجدون بين سياستكم وسياسته مشابهة؟

لا تقولوا إنه الوحي، فما كانت حياة الرسول كلها ولا سياسته كلها من هدى الوحي؛ ولكن قولوا إنها الرجولة الكاملة والخلق العظيم والعبقرية الغذة والشخصية القوية. وصفة القوة لا تدل على شيء في شخصية الرسول، فإنها لم تظهر في أحد قبله ولا بعده حتى يقوم بها وصف. وما ظنكم بشخصية تخضع لليتيم العديم الزارى على الآلهة والسادة، الرؤوس الطاغية والنفوس العاتية

والقلوب الغلاظ ، فيسمتون سَمْتَهُ في الخلال ، وينهجون نهجه في العيش ،
ويأخذون إِيْذَهُ في المعاملة ، ويجمعون على حبه وطاعته وتقديته إجماعاً لا يخرقه
إلا الكفر بالله . فأقواله سنن تتبع ، وأعماله عهود تحفظ ، وآراؤه أوامر تطاع ،
وأحكامه أقضية تُنفذ . فعليكم يا زعماءنا بسيرة محمد وسياسة محمد ؛ فلعل فيكم
من تدركه نفحة من نفحاته القدسية فيجدد مآرث من دعوته ، ويجمع ما شت
من وحدته ، ويصلح ما فسد من أمته ! « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر
فلنفسه ، ومن عمى فعليها »



الظلام ! الظلام !

باسم الله تخطو الرسالة إلى عامها العاشر ؛ وبغير اسم الله نور السموات والأرض لا يهتدى في هذا الظلام الحالك سارٍ ولا سائر . والظلام في هذا الكوكب طبيعة أصيلة ؛ فأناره الله بالشمس والقمر والدين ؛ وأنزله نحن بالزيت والكهرباء والعلم ، حتى أوشك أن ينجاب الحلك العاشي عن آفاقه وأخلاقه . ولكن سلازل الطين لا تستضيء بصائرهم وسرائرهم بغير الدين ؛ فإذا أطفأوه في قلوبهم تنفسوا الظلام فإذا الدنيا ضلال وجهل ، وإذا العالم دمار وهلك ! وتلك هي الحال التي يكابدها الناس اليوم : ظلام في بلاد الأرض ، وظلام في نفوس الناس ، وظلام في وجوه المستقبل ! فمن يخرج يده لا يكدر يراها ، ومن يتعلق بسبب من أمله انقطع به ! ومن ينظر في صفحة الغد عميت عليه ! ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور !

الظلام ! الظلام ! الظلام ! ذلك هتاف الأمان ودعاء السلامة في كل أمة من أمة الشرق والغرب اليوم ! فليت شعري هل تأله الشر وتحكم الشيطان وصدقت المانوية^(١) !

(١) المانوية مذهب مانى ، وهو رجل ولد في فارس حوالى سنة ٢٧٤ م ، وكان يقول بأن العالم تنولاه قوتان متضادتان : قوة من طبيعتها الخير وهى الله أو الروح أو النور ، وقوة من طبيعتها الشر ، وهى الشيطان أو المادة أو الظلام ، قال المتنبي :
وكم لظلام الليل عندى من يد تخبر أن المانوية تكذب

غشيننا ظلام الغرب ولفنا ليله الأليم ؛ فكأنما انطفأت في مشرقنا عين الشمس ! وما كان الغرب منذ دحا الله الأرض إلا مبعث ظلمة ؛ وما كان المشرق منذ أوقد الله الشمس إلا مطلع نور . فإذا دجت الآفاق واستسرت المالم كان معنى ذلك أن الشرق قد انكفأ فلم يرسل شمسهُ ولم يبلغ رسالته !

والحق أن منازل الوحي من الطور والجليل وحرّاء قد أصبحت ترسل أمواج النور الإلهية لغير قابل . كان لها من نفوس الأنبياء أجهزة من صنع الله تقبلها وتنشرها وتهدى بها وتدعو إليها ؛ فلما ختمت النبوة وانقطع الوحي ورث الخلفاء والعلماء رسالة الله فكانوا كوراث اللك أو المال ، منهم القاعد المضيع ، ومنهم المجاهد الكاسب . ولو شاء ربك أن يدرك النصر أولياؤه ، ويطبّق الأرض دينه ، لجعل الناس أمة واحدة ؛ ولكن لا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم !

لا تزال منازل الوحي ترسل الأمواج السماوية بالهدى ودين الحق ؛ ولكن الله الذى يضل من يشاء ويهدى من يشاء حرم الناس نعمة القبول فاستأسدت فيهم الغرائز ، وأسرفت عليهم المطامع ، وتفرقت بهم المذاهب ، وذاقوا من فساد النظام وطغيان الحكام ما لم يذقه الحيوان الأدنى من القتل والجوع والجور والبؤس والفوضى

وكان الظن بالأزهر الذى قام للدين ، وعاش بالدين ، أن يكون لأمواج الوحي الخالد محطة استقبال وإذاعة ؛ ولكنه انقطع عن ركب الحياة فخضع لعواذى الدهر القاهر ، خضوع القلعة المحصورة للمغير القادر !

على أن هذه الحرب العالمية هي كما قلنا القيامة الصغرى ؛ ومن الحتم أن سيكون بعد القيامة الخلق الجديد والحياة الفضلى . والواقع في الظن أن الأزهر

يمهد لهذا الانبعاث ، ويهيئ لهذه الحياة . وما هذه الروح التي دبت في
(جماعة كبار العلماء) آخر العام المنصرم إلا نفحات الربيع الأولى يرسلها
النيروز لتجري الماء في الأعواد ، وتوقظ الحياة في البراعم

لعلك تقول لنفسك : ما بال الرسالة لا تنفك تذكر الأزهر في معرض
الإصلاح والنهضة ، وما الأزهر في رأى أكثر الناس إلا متحف آثار ومقبرة
أفكار وطلل مذاهب ؟

وقولى فيما تقول إن الشرق لا ينهض إلا بالدين ، وإن الدين لا ينهض
إلا بالأزهر . ولست أقصد بالدين هذا الدين الذى يعتقده المسلم المعاصر ،
ولا بالأزهر هذا الأزهر الذى تراه فى نظامه الحاضر ؛ إنما الدين الذى أعنيه هو
دين القرن الأول ، والأزهر الذى أبغيه هو أزهر القرن الرابع عشر . أريد
الدين النقى القوى الذى فتح الممالك ، ومدّن الأمم ، وكرّم الإنسان ، واحترم
العقل ، وفرض المعرفة . أما هذا الدين الذى يقول بعبادة الأولياء ، وتمجيد
القبور ، وتقديس القديم ، وإيثار التواكل ، ومخادعة الله بالحيل ، ومهاوأة
القادة بالنفاق ، فليس دين الله ؛ إنما هو دين هؤلاء الأوزاع الأتباع الذين ضلّوا
وذلّوا ، فمزقهم الأحداث ، وأكلتهم المظالم ، وأصبحوا نهباً تتقاتل عليه
الدول ويعتدل بتقسيمه التوازن

وأريد الأزهر الجديد الذى يضع لثقافة الشعب أساساً من الدين ، يقوى
بقوة الله ، ويثبت بثبوت الحق ، ويدوم بدوام الدنيا ؛ ثم يقيم عليه من القواعد
والنظم والأوضاع ما يقره العقل ويؤيده العلم ، ويتقبله العصر ، وتقتضيه
الحاجة ؛ أما هذا الأزهر الذى يغلك الكلام ، ويجترّ الماضي ، ويقتات

الفتات ، ويبطل الاجتهاد ، ويعطل العقل ، فهو مسجد من المساجد الأثرية
لا أقل ولا أكثر

أما بعد فقد عودتك يا قارئ العزيز أن أتحدث إليك في مطلع كل
عام عن بلاء الرسالة في الجهاد وعملها في المستقبل ؛ وإنك لتعلم أن هذا
الظلام الشامل الكثيف الذي ضرب على أبواب الغد حجباً فوق حجب ،
يجعل مثل هذا الحديث أقرب إلى لغو الكلام وعبث الأمانى . فاسأل الله أن
يتولانا في هذه الزلزلة العامة برحمته وفضله !



فقهاء بيزنطة

[أول أبريل سنة ١٩٤٠]

فقهاء بيزنطة هم الذين كانوا يجادلون في البيضة والدجاجة : أهذى أصل تلك ، أم تلك أصل هذى ، بينما كان محمد الفاتح يرسل الصواعق دراكاً على أسوار القسطنطينية ، فلا يخرجهم من شدة الخلاف وحدة الجدل ما فوقهم من حم المنايا ، ولا ما حولهم من صرخات الغزع !

وقفهاء بيزنطة هم الذين يجادلون اليوم في محراب المسجد بعد ألف ومائتي عام : أهو سنة فيبقى ، أم هو بدعة فيزول ؛ وفي محمل^(١) شجرة الدر : أهو موافق للشرع فيسير ، أم هو مخالف له فيقف ! يجادلون في هذا وفي ذاك بين أعمدة الجرائد والمساجد ، ويسرفون في الجدال حتى يتشعب الخلاف ويتماهى ، ويتقسم الرأي ويتعادي ، فيكون لكل شيخ شيعة ، ولكل شيعة عصبية جاهلة تمزق ما وصل الدين به القلوب من وشائج الإخاء والمودة

نعم يجادل فقهاء بيزنطة اليوم في المحراب والحمل ، ومن قبل كانوا يجادلون في زر العمامة أيبتز أم يُضفى ، وفي شعر الذقن أيحفى أم يُعفى ، وفي قبر الميت أيسوى بالأرض أم يُقام ؛ حتى أدخلوا في روع العامة من طول ما شغلهم بهذه الصغائر أن الدين هو هذا وليس غير هذا . فلو تسنى لك أن تكشف عن عقيدة الإسلام في ذهن العامي أو شبهه لما رأيت إلا صورة مشوهة من رسوم العبادات

(١) الحمل : هو الذى تسيره الحكومة المصرية كل عام إلى مكة حاملاً كسوة البيت

الحرام ، وهو من التقاليد الموروثة عن « شجرة الدر »

وأوضاع العادات وألوان الأدعية . أما الإسلام الذى وضع الدساتير الخالدة لسعادة الفرد والأسرة والأمة والإنسانية فى كل زمان وفى كل مكان ، فذلك معنى لم يجر فى شعوره ولم يدخل فى علمه . والعوام وأشباه العوام هم جملة الأمة الإسلامية اليوم ، فما تسمعه من هذا تسمعه من ذاك ، وما تراه هنا لا بد أن تراه هناك . وعلة هذه الجهالة الفاشية هى طريقة أهل الدين فى تعلمه وتعليمه ونشره ، فهم يقفون فى تحقيقه عند النقل ، ويقتصرون فى تطبيقه على الشكل ، ويكتفون فى نشره بهذه المظاهر الصوفية الباطلة ؛ فكان من جراء ذلك عليهم أن قصرت مداركهم عن مداه ، وبأن على القدر الذى شدّوه منه الضيق والضحل والجود ، ووهم الناس أن ما عندهم هو الدين كله فزهدوا فيه ونفروا منه .

إى والله لا يزال فقهاء بيزنطة يفرقون بين الناس بصدعات الرأى^(١) والهوى فى الحراب والحمل ، وفيما هو أذى من الحراب والحمل ، وهم يعلمون أن الأديان البشرية التى وضعها الطغاة تحدياً لله وتهجماً على دينه ، تحاول بقوة الجيش وحجة المدفع ودعاية المذيع أن تخفت ذكر الله فى كل أرض ، وتطفى نوره فى كل سماء . وهذه المذاهب الأرضية إنما تجادل خصومها فيما تزعمه لنفسها من قتل البؤس ومحو الفروق ونشر العدالة ، لا فيما تتخذها لشعائرها من بنى ، أو تبتدعه لمظاهرها من شكول

ثم جعلوا غاية الدين أن يتزيا بالورع ، ويتفقهوا فى علومه بتشقيق الجمل وتوليد الألفاظ وتعديد الفروض ، فإذا زادوا على ذلك شيئاً فهو الوعظ الذى

(١) الصدعة : التفرق . تقول : « رأيت بينهم صدعات » ، أى تفرقاً

يميت الطموح ويخمد العزيمة ويحقر الدنيا ويهيب النفوس المثقفة التي أعوزها
النور الهادي والصوت المهيّب لأن تصغى لما يتقوله المبشرون على الإسلام
من الأباطيل ويزورونه عليه من الشبه .

ليس من البر بالدين يا ورثة الأنبياء أن تخذلوا دعوة الله لتنصروا دعوة
الإنسان

إن الدعوات السياسية التي تتخذ شعار الإصلاح ، أو تلبس مسوح الدين ،
تسلك إلى النفوس المؤمنة المطمئنة سبل الغرور والغى في غفوة من العقل أو سورة
من الجهالة ، فتزعزع إيمانها بالشكوك ، وتذهب اطمئننانها بالفتون . فماذا
أعدتكم لحماية هذه النفوس الغريرة الغضة من وساوس الفتنة وهواجس الجهل ؟
إننى ألقى هؤلاء النشء في كل يوم ، وأحدثهم في كل لقيّة ، وأكشفهم
في كل حديث ، فلا أجد عندهم من الإسلام إلا ما كان عند نصارى القرون
الوسطى منه ؛ ثم لا تسمع منهم إلا غماغم من الألفاظ المنكورة المكرورة
عن الزواج والطلاق وحرية الفكر ومجافاة التمدن . فإذا أخذت تقرر هؤلاء
كيف كان الإسلام بتوحيده بين الدين والدنيا علاجاً لأدواء المجتمع ونظاماً
افوضى الطبيعة ، وتدل على أن ميزة الاسلام التي تفرد بها هي أنه يسير التطور
ويطاول الزمن ، فلا يمكن أن تكون فيه مناقضة للمدنية الصحيحة ولا معارضة
للتقدم الحق ، سألوكم دهشين : وأين نجد بيان هذا ؟

والمعضلة التي لم نجد لها إلى اليوم حلاً هو إجابتهم عن هذا السؤال :
وأين نجد بيان هذا ؟ الواقع الذي يكشف البصر ويرمض الفؤاد أنك
لا تجد في مكتبة الدين الإسلامى على ضخامتها وسعتها كتاباً واحداً يشرح

للناس عبقرية هذا الدين وفلسفة تشريعه ووجوه إصلاحه وأسباب خلوده
على ضوء العلم الكاشف ونظام التأليف الحديث . وما أظن ديناً من الأديان
قد نكب في نفسه وفي أهله بمثل هذه النكبة !

فلو أن الله وفق (جماعة كبار العلماء)^(١) فألفوا هذا الكتاب بدلاً
من تأليفهم في (المياه التي يجوز بها التطهير) مثلاً لدفعوا عن أنفسهم معرة
الجمود وعن دينهم نقيصة التخلف

ولكن كبار العلماء لم يدخلوا هذه (الهيئة) إلا ليعظم القدر ويضخم
المرتب ، فكيف نجشهم أن يبطلوا . كيد المبشرين بوضع هذا الكتاب ،
أو يفصلوا بين المجادلين المتقاتلين في الحمل والحراب ؟

(١) هي جماعة من كبار الشيوخ في الأزهر يؤلفها قانون ويديرها نظام ويرأسها الشيخ
الأكبر . ولها شروط للقبول واختصاص في العمل ليس هنا موضع تفصيله



العقيدة الساذجة

[١٥ إبريل ١٩٤٠]

العقيدة الساذجة هي عقيدة الكثرة الكاثرة من مسلمي اليوم ! وربما كان الأشبه بالحق أن نصفها بشر من الساذجة ؛ فإن أيلولة الدين في نفوس أهله إلى هذا القدر العامي من العبادة الشكلية والزهد الكاذب والتفويض الذليل والورع المنافق والتصوف المشرك هي الفساد بعينه . وماذا بعد أن ترى كتاب الله وسنة رسوله يقرآن لالتماس البركة لا لا كتهاب الفقه ، ودستور الإسلام وفلسفة وحيه يدرسان لمجرد العلم لا لإرادة العمل ؟

وماذا بعد أن ترى الأحكام والآداب والأنظمة التي أصلحت الأرض ومدنت الخليفة ، تصبح في الجوامع والمجامع رهبة وشعبذة لا يستقيم عليها فرد ولا تنتظم بها جماعة ؟

لقد كان من أثر فساد العقيدة في النفس أن فسدت آثارها في الناس ؛ فالفقه في الدين تفيق وجدل ، والصلاح في الدنيا تبطل وفشل ، والعبادة مظاهر آلية لا أثر فيها للروح ولا صلة لها بالقلب ، والأخلاق مياسم وراثية تنطق بالحق على ذلة الماضي وجهالة السلف ، والمعاملة ألعيب اجتماعية تخادع الله وتزعم لنفسها الرضى والسكينة !

تذكر معنى الزكاة في دين الله ثم قل لي أين منها ما كان يصنع أحد شيوخ الأزهر وقد كان يملك في القاهرة شوارع بما عليها من البنى عن شمال ويمين ؟ لقد حدثوا أنه كان يجعل زكاة ماله كلما حال الحول في قفة ؛ ثم يغطي

الذهب والفضة بطبقة من الخنطة ؛ ثم يأمر فيأتونه بأحد المساكين الذين يتكفون على حاشية الطريق ، فإذا أدخل عليه قال له :

« هذه زكاتنا يا رجل آثرناك بها ابتغاء مرضاة الله »

فيدعو المسكين ويهم بأخذ القفة ؛ ولكن الشيخ قارون يريد أن يخفف عنه ويختار له ، فيبادره بقوله : « وماذا تصنع بها يا رجل وليس عندك من تطحن وتعجن وتخبز ؟ أتبيعني إياها بكذا قرشاً ؟ » فيلهج المسكين بالدعاء ، ويبالغ في الحمد والثناء ، ثم ينصرف بالقروش وتعود مئات الدنانير المروعة آمنة إلى صدر الخزانة الحنون !

تدبر فكرة الصدقة الجارية في سنة الرسول ثم أخبرني أمِنها ذلك البناء المربع الذي أقامه أحد القضاة المتقين في وسط شارع حسن الأكبر ، ثم أجرى في قلبه الماء ، وأوقد على رأسه النور ، ووقف على نفقته المال ، وجعله مورداً للسابلة فكان مزرعة للجراثيم ومصدمة للناس !

تصور حكمة الإنفاق في سبيل الله على قواعد الدين الذي شرع ليضمن للفرد السعادة وللأمة السلامة ولل البشرية الألفة ، ثم تعال أنقل إليك ما روته جريدة (الدستور) في يوم الاثنين الماضي عن مراملها ببغداد :

كان من ضيوف العراق لعامين مضيا الزعيم الشعبي الهندي السردار طاهر زين الدين ، وهو من أنداد أغا خان في الزعامة المقدسة والثروة العريضة ، فلما زار ضريح الإمام علي رضوان الله وسلامه عليه ، نشأ في نفسه أن يقيم للخليفة الراشد ضريحاً يكون مضرب الأمثال على تعاقب الأجيال في نفاسة المادة وبراعة الصنعة وضخامة النفقة . ولم يكد يرجع إلى الهند حتى استحضّر أمهر الصناع وأقدر الفنانين وتقدم إليهم بما أراد ، ووصل أيديهم بكنوزه العجيبة ، فصنعوا

ضريحاً من الآبنوس سَمَّكَه إحدى عشرة قدماً وقطره عشرون ، ثم زخرفوه بروائع النقش الهندى ، وغشوه بخمسة عشر رطلاً من صفائح الذهب وبمثالها من سبائك الفضة حتى بلغت تكاليفه اثنين وأربعين مليون جنيهه على ما روى المراسل ، أو اثنين وأربعين مليون رُبيّة على ما أرجح !

هل قرأت ؟ إثنان وأربعون مليون جنيهه كميزانية مصر ، أو اثنان وأربعون مليون ربيّة كميزانية العراق ، تنفق فى مقصورة تقام على ضريح الإمام الزاهد المجاهد الشهيد على كرم الله وجهه !

فهل تحسب أن هذا المؤمن الساذج قد بلغ بما أنفق مكانة الزلنى من الله وموضع الرضا من إمامه ؟ لا والله ! إن الله الذى يقتضى من عباده القرض الحسن ليضاعفه لهم لا يقبل هذا القرض العقيم ، وإن الإمام الذى كفى يطوى الأيام ليطعم على حب الله المسكين واليتيم والأسير لا يرضى هذا الإحسان الميت . لو كان هذا الغنى الأسمى صحيح الفقه فى الدين ، واسع الأفق فى الفكر ، بعيد النظر فى الإصلاح ، لعلم أن علياً كان سيف الإسلام ولسان الدعوة وإمام القضاء ، فكان خير ما يتقرب به إليه أن يعطى حكومة العراق هذه الملايين لتُنشى بها أسطولا جويّاً فى بغداد على حب فاتح خيبر ، ومعهداً علمياً فى الكوفة على ذكر صاحب نهج البلاغة

لذلك وشبهه يكون القرض حسناً والاحسان جميلاً يا سيدى الزعيم . أما أن تصفح الضريح بالذهب والفضة ، وترصعه بالؤلؤ والجوهر — وفى وطن الإمام الفقير الذى لا يجد القوت ، والمريض الذى لا ينال الدواء ، والجاهل الذى لا يستطيع التعلم ، والجندى الذى لا يملك السلاح — فذلك فن من العمل

الباطل لا يليق أن يُجترح باسم الدين في سبيل إمام أئمة وقطب أبطاله !

لقد قرأت في أنباء اليوم أنهم فضوا وصية المحامي الأمريكي اليهودي « صموئيل أونترماير » منذ أيام فإذا به يوصي بجزء عظيم من تركته الضخمة لبضع جامعات أمريكية ؛ ثم كان نصيب الجامعة العبرية في القدس منها مائة ألف دولار !

فليت شعري متى يعلم هذا الذي ينفق دماء الشهداء على ملاهي القصور ،
وذاك الذي يبذر أموال الأحياء على شواهد القبور ، أن الحياة من غير إحسان
موت ، وأن الاحسان في غير موضعه إساءة !



في سبيل الأزهر الجديد

[٢٢ أبريل سنة ١٩٤٠]

من بشارت الأمل في النهوض ودلائل الثقة بالفوز أن النفوس الشابة مهيأة لدعوة التجديد ورسالة الإصلاح ؛ فهي كالأرض الطيبة تشتمل على مذخور الحياة وموفور البذر ثم لا تنتظر غير الفلاح والغيث

منذ أخذنا على بعض العلماء اشتغالهم بالمرء الباطل والبحث العقيم ، ووقوفهم عند الماحكة في اللفظ والمعاينة بالاعتراض ، وتركهم أصول الدين تتشجن^(١) عليها الأضاليل والبدع ، والرسائل تنثال علينا من شباب المراغى في أقسام الأزهر وكرلياته يشايعوننا على الرأي ويسألوننا أن نزيد

و (شباب المراغى) تعبير لم نضعه ، وإنما وجدناه في جميع الرسائل التي ألقيت إلينا ؛ فهو إما إلهام جاء من اتحاد النية ، وإما اتفاق أبرم على إرادة الإصلاح .

نعتقد مخلصين أن الأزهر إذا استكمل أداة التعليم وسائر حاجة العصر نهض بالشرق نهضة أصيلة حرة ، تنشأ من قواه وتقوم على مزاياه وتتغلغل في أصوله . ذلك لأن ثقافته المشتقة من مصدر الوحي وقانون الطبيعة متى اتصلت بتيار الفكر الحديث تفاعلت هي وهو فيكون من هذا التفاعل ما يريد به الله تجديد دينه وكفاية شرعه وإدامة ذكره

كذلك نعتقد مخلصين أن رجعة الأزهر إلى ماضيه البعيد خير له وللناس

من جموده على شأنه الحاضر . والرجعية لا يمكن أن تكون في منطق الطبع سبيلاً إلى التقدم ، ولكنها في نظام التعليم الأزهرى خرق لهذا القانون لا ينكره العقل . ذلك لأن رجعية الأزهر معناها العودة في استنباط الدين إلى منابعه الأولى من صريح الكتاب وصحيح السنة ، وفي فقه الأحكام إلى مثل كتابي الأم والرسالة للشافعى ، وفي تعليم النحو إلى كتاب سيبويه وخصائص ابن جنى ، وفي تدريس البلاغة إلى كتب عبد القاهر وأبى هلال . وفائدة هذه الرجعية الخلوص من أمثال (الجمع) و (الهمع) ، وما حشد الأعاجم في عصور الشروح والحواشى والتقارير مما أفسد الملكات وأفند^(١) العقول وصرف الأذهان عن جوهر الدين ولب العربية وسر البلاغة

* * *

إن الدين الإسلامى ينفرد عن سائر الأديان باعتماد دعوته على الأدب وقيام معجزته على البلاغة . فإذا حثر^(٢) ذوق العربية في رجاله بما قش^(٣) السكاكى والفنرى وملا جلبي من الغناء والهراء ، تقطعت الأسباب بينهم وبين محمد فضلوا سبيله وجهلوا علمه . فالدين الإسلامى والأدب العربى متلازمان تلازم المعنى واللفظ أو الفكر والأداء . ولا يتسنى لرجل الهداية والإصلاح أن يبلغ دعوة محمد إلا إذا تمكن منهما تمكن الجاحظ والزخشرى ومحمد عبده ورشيد رضا والمرافى . أما المضمضة بالألفاظ الاصطلاحية ، والجمجمة بالجل المعقدة على أنها هى العلم والأدب ، فتطور إلى العكس لا يجوز أن ينتج إلا ما نحن فيه

(١) أفند العقول : أضعفها

(٢) من قولهم : حثر اللسان إذا لم يجد طعم الطعام

(٣) قش الشيء : جمعه من ههنا وههنا

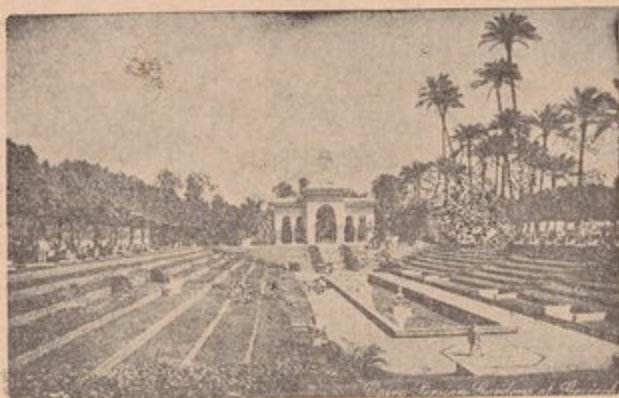
من الطبيعي أن ينشئ هذا الكلام في ذهنك هذا السؤال فتلقه على :
 إذا كان المراغى أجدر الناس بإصلاح الأزهر كما نعتقد ؛ وكان شباب الأزهر
 راغبين في هذا الإصلاح مؤمنين بقدره شيخهم عليه كما نرى ؛ فما الذى يعوق
 هذا الإصلاح ، يعارض هذه الرغبة ؟ ... والجواب المفصل عن هذا السؤال
 يقتضى شيئاً من الصراحة لا تحتمله بعض النفوس فيما أظن . فإذا وقفنا عند
 الأسباب الظاهرة المباشرة قلنا إن إصلاح الأزهر لا يمكن أن يتم في سنتين
 أو في أربع ، لأن ملاك هذا الإصلاح منوط بأمرين اثنين : أحدهما إعداد
 المعلم ، والآخر تأليف الكتاب

فأما إعداد المعلم فيقوم على أن يكون متمكناً في علوم الدين وصاحب ملكة
 في الفقه ، وأن يكون متبحراً في فنون العربية وصاحب قريحة في الأدب ،
 وأن يأخذ بعد هذا وهذا من ثقافة الغرب بأوفى نصيب . وهذا الإعداد على هذه
 الأساس لا يؤتى ثمره قبل عشر سنين إذا أخذوا منذ اليوم يتدخلون ممن تخرجهم
 أقسام التخصص المختلفة في كل سنة نوابغ الفقهاء الأدباء ؛ ثم يبعثون بهم
 إلى جامعات إنجلترا وفرنسا وألمانيا ليبلغ كل منهم أقصى الدرجات في العلم
 الذى أخصى فيه .

وأما تأليف الكتاب فلا يتيسر إلا بعد إعداد المعلم ، لأنه هو وحده الذى
 يدرى كيف يؤلفه ويدرسه . ومتى توفر الأزهر المعلم والكتاب في ظل هذه
 الإدارة البصيرة صح لك أن تقول : « إن مصر ظفرت بجامعتها الصحيحة التى
 تدخل المدنية الغربية في الاسلام ، وتجلو الحضارة الشرقية للغرب ، وتصفى
 الدين والأدب من شوائب البدع والشبه والركاكة والعجمة »

ذلك فيما نعتقد ما كان يعنيه صاحب الجلالة المغفور له الملك « فؤاد » حين
قال لأحد كبار العلماء : « إن أنجع الوسائل في إصلاح الأزهر أن يغلق عشر
سنين ثم يفتح من جديد »

وذلك فيما نعتقد أول الإصلاح الأزهرى وآخره . وما دام التعليم الدينى
قائماً على براعة المعلم فى حل المعضلات وخلق الاعتراضات ، وإيمان الكتّاب
فى الاستطرد والاستغلاق والحشد ، فهيات أن يتجدد الأزهر وإن شيد
بالمرمر وفرش بالطنافس وأنير بالكهرباء !



الرجل المنتظر

[٢٧ أبريل سنة ١٩٤٢]

بهذه الرجفة العظمى تبدد النظام العالمى كله ؛ فكأنما اجتمع اللاعبون بأقدار الأفراد ومصاير الأمم وقالوا لهتلر أجرا العابثين : (بَوَّظ)^(١) !!
وها هم أولاء يتحكمون فى قطع اللعب ، فيجمعون ثم يفرقون ، ويبددون ثم ينسقون ، وكل ما ورث الناس أو كسبوا من أديان ودساتير وقوانين وأنظمة وسنن قد أصابه الإلغاء أو التعليق . والواقع أن العالم العربى بأجمعه ليس منه فى هذه اللعبة العالمية لاعب ؛ إنما هو تلك القطع الجامدة التى تُقَسَّم وتُقَدَّم وتُصَكِّ ثم تذهب وتجيء بين اللاعبين دواليك حاملة على وجوها الملس قِيمها الكسبية المختلفة من (الدش) إلى (البياضة) . فإذا طلبنا أن يكون لنا فى الدَّست حساب وليس فينا حاسب ، أو يعود علينا من ورائه اكتساب وليس منا كاسب ، كان ذلك من خداع النفس بالحال وتعليقها بالباطل . والمتوقع الذى لا حيلة فيه أن نظل كما نحن لُعبة ، تلعب أو نُهبة ، تنهب حتى يبعث الله فينا الرجل الذى ننتظر

ولست أعنى بالرجل الذى تنتظره الأمة العربية : (المهدي) أو (الإمام) أو (المسيح) ، فإن ظهور أولئك أحدهم أو كلهم شرط من أشراف الساعة ؛

(١) التبويظ كلمة مصرية معناها فى اصطلاح لاعبي (الدومينو) أن تقلب القطع على وجوها قبل اللعب أو بين الدست والدست ، ثم تحال ويضرب بعضها فى بعض كي لا يكون بينها نظام ولا توافق

فانتظار الناس إياهم كانتظار الطامع المطول راحة الفوت ، أو المريض المشفى
سكينة الموت ؛ إنما أعنى الرجل الذى ينتظره الناس انتظارهم طلعة الشمس ،
وتنتظره الأرض انتظارها رجعة الربيع ! هو كالشمس لأنه يرسل النور والحرارة :
وهو كالربيع لأنه يبعث الحياة والنضارة . وظهوره كطلوع الشمس ورجوع
الربيع سنة من سنن الله فى الكون ، يجرى بها حكمه كلما شاء للعقول الحائرة
أن تهتدى ، وللقلوب الشتية أن تتحد ، وللنفوس العليلة أن تصح

كان هذا الرجل فيما خلا من الدهر يسمى رسولاً ؛ فلما خُتِمت الرسالة
وانقطع الوحي ، كان يظهر فترة بعد فترة فى صورة ملك أو فاتح أو حاكم أو عالم
أو مفكر ، فيبين ما التبس من معانى الحق ، ويجدد ما انطمس من معالم
الطريق . وكان نجاحه أو فشله فى التجديد أو الإصلاح أثراً من آثار قوته
أو ضعفه ؛ فهو بين أصحاب السلطان يكون أسرع نجاحاً وأوسع إصلاحاً منه
بين أصحاب الفكر . وقلما يأبه الناس لدعاة التجديد بالكلام ما لم ينتشر صدهاء
فى الأرض ويتسع مداه فى الزمن : لأن أصحاب الكلام إذا ملكوا رأى
فلا يملكون التنفيذ ، وإذا استطاعوا التشريع فلا يستطيعون الحكم . وقطرة
القلم قد يفطن لها الفؤاد اليقظ ، ولكن وخزة السيف يشور بها الجسد الغليظ .
وما كانت الوثبات الاجتماعية التى خلقت ناساً غير ناس ، وأبدلت نظاماً
من نظام ، وفصلت تاريخاً من تاريخ ، إلا نتيجة لدفع المصلحين المسلطين
الذين وضعوا الكتاب فى يد والسيف فى يد ، ثم كتبوا دستور الإصلاح
بالمداد والدم

ولهذا الرجل الذى تنتظره الأمة العربية آيات تمهد له وتدل عليه : فمن
الآيات المهيئة لظهوره انحلال الأخلاق فلا تماسك فى قول ولا فعل ، وتقاطع

القلوب فلا تتواصل في وطن ولا دين ، واستئثار النفوس فلا تتعفف في صداقة
ولا نسب ، وجحوش الشهوات فلا تنقطع بلين ولا شدة ، واستبهاام المذاهب
فلا تستبين بنجم ولا شمس ، وانقطاع الأمة عن ركب الحياة فلا تتحرك قبلة
ولا ديرة

ومن آياته المنبئة بوجوده أن يكون لغيره لا لنفسه ، ولأمته قبل أسرته ،
ولإنسانيته بعد وطنيته . وبهذه الصفة الأخيرة يختلف المصلح القومي عن الرسول .
ومصادق تلك الآيات أن تموت (أنا) في لسانه وتحيا في ضميره ، ويتحد في ذهنه
وجود ذاته بوجود شعبه ؛ فهو يحس ألمه لأنه مجتمّع شعوره ، ويدرك نقصه لأنه
محتلى عقله ، ويملك قياده لأنه مظهر إرادته . وهو في سمو نفسه ونزاهة هواه
قد ارتفع عن أوزار الناس وأقذار الأرض ؛ فلا يطمع لأن غرضه أبعد من الدنيا ،
ولا يحقد لأن همه أرفع من العداوة ، ولا يحابي لأن فضله أوسع من العصبية ،
ولا يقول قولاً أو يعمل عملاً إلا إذا وافق الدين الذي يعتقد ، والمبدأ الذي
يؤيده ، والشعب الذي يقوده

ثم هو في ألمعية ذهنه وورصانة لبه وصلابة عوده وبعد همته يعظم على
الأحداث ، ويعلو على الحوائل ، فلا ينضح رأياً إلا أمضاه ، ولا يرمى غرضاً
إلا أصابه ، ولا يروم أمداً إلا أدركه

هذا الرجل الملهم الموهوب هو الذي ترقب ظهوره كل فرقة ، وترصد نجمة
كل أمة . ولقد ظهر أمثاله في بعض الأمم وهي على شفا الهاوية فأعادوها إلى الحياة
وردوها إلى الجادة . ولا تزال الأمة العربية تحدد النظر العبران في الأفق الغائم
ترجو أن تتشق الحجب عن نوره . فهل آن يا أرحم الراحمين وأن ظهوره ؟
إن القطعان المهملة تدخل في عهدة الذئب ؛ وإن القوى المتفرقة تجمع

في حساب العدو ؛ وإن اللائى* المبددة إذا لم يرضها سلك لا ينتظم منها عقد ؛
وإن الأمة التي لا تملك يوم الجِد والفخار إلا أن تقول : كنت وكنت ، لا يزيد
قدرها على قدر الرماد البارد الذي يقول : كنت فيما مضى جمرَةً متقددة !

رباه لقد امتد بنا التيه في مجاهل الأرض إلى قرون ، وفسد في نفوسنا
الإيمان بالحياة حتى تحول إلى ظنون . فمتى نخرج من التيه يارباه خروج موسى ،
وتنبؤاً من صدر الحياة العاملة مكان محمد ؟ اللهم إنا نسألك الراعى الذي يطرد
الذئب ، والنظام الذي يجمع الحب ، والدليل الذي يحمل المصباح ، والقائد الذي
يرفع العلم ، والأستاذ الذي يعلمنا أن نصنع الابرة والمدفع ، ونشق المنجم والحقل ،
ونوفق بين الدين والدنيا ، ونوحد بين المنفعة الخاصة والمنفعة العامة . وكل
أولئك يارباه يجمعهم رجل واحد هو أشبه الناصر بالمهدي المنتظر والإمام المرتقب
والمسيح الموعود !



قلبي لنفسى ...

عجيبُ أمر ابن آدم اليوم !! يكاد لا يعطف بعضه على بعض إلا المادةُ
أو السطوة أو الشهوة ! أما ألفة الجنس للجنس ، ومتعة الإنس بالإنس ،
وإجابة الحس للحس ، فقد أصبحت في هذا الزمان ، من الصفات الأثرية
في الإنسان

كانوا يقولون إن الناس مع الزمان ، يقبلون متى أقبل ، ويدبرون
متى أدبر . فكنا نقول : كان ذلك والزمان كلبٌ يجري وراء سيده ،
ما دام الرغيف في يده . أما اليوم فالزمان إنسان حر مفكر لا يتبع إلا المبدأ ،
ولا يطيع غير الضمير .

ولكن الواقع وأسدنا أن الزمان لا يزال كلباً ، وأن المال لا يزال
رباً ، وأن حكمة الأولين لا تزال صادقة !

لى صديق من رؤوس العراق المرفوعة بالفضل والنبل والكفاية ، كان
وهو في سلطان السيف وعزة القلم مرجع الرأي والهوى والحاجة . فلما نكبتة
في نفسه وأهله السياسة العشواء الجروح ، تجرد كالسيف ، وتفرّد كالأسد ،
وأصبح فإذا الوجوه أقاء ، والأنصار أعداء ، والأحياء في دنياه موتى ؛
فلا رأس ينحنى ، ولا لسان يحى ، ولا يد تصافح . وظل وحده يعالج مرارة
الحزن والحрман والغربة حتى صحا الدهر من غفوته ، ونهض الحظ من كبوته ،
فعاد إلى الوزارة ، وعاد الناس إلى الزيارة ، وقال الوجه الذى عبس وأشاح ،
واللسان الذى ذم ونم : والله يا مولانا لا يعدل حزننا لغيبتك ، إلا فرحنا
بأوبتك ... ثم انعكست الصفات فى الصحف ، فصارت الخيانة أمانة ،
والبلادة زكاة ، والعقوبة شهادة ...

شِعَاعُ الْإِيمَانِ

[٦ مايو سنة ١٩٤٠]

لكل إنسان إشعاع ينتشر عليك من روحه كلما جلست إليه أو دنوت منه . وهذا الإشعاع يختلف في القوة والضعف وفي الكثافة واللفظ باختلاف الروح في أولئك كله . ولكن لرجل الدين ورجل الحكم إشعاعاً عرضياً آخر ينبثق عن العالم ما دام متصلاً بالله ، ويصدر عن الحاكم ما دام متصفاً بالسلطان . فإذا انقطع ما بين أحدهما وبين هذه القوة السماوية أو الأرضية انقلب كسائر الناس يشع على حسب اقتداره واعتباره

تدخل على رجل السلطان أو تلقاه فتفشاك منه مهابة تطأطئ من نفسك وتكسر من نخوتك ، فإذا خرجت من مدار هالته ، أو خرج هو من ملكوت سلطانه ، وجدته في رأيك الحر أشبه بالجدوة الواجعة إذا ما تحوات إلى رماد بارد وتجلس إلى رجل الدين أو تراه فتغمرك منه جلالته تنلج صدرك بالرضا وتنقع نفسك بالسكينة ، فإذا قمت عن مجلسه بقي في بصرك نوره وظل في بصيرتك هدهد . وذلك هو الفرق بين قوة تسيطر بمادة الإنسان وقوة تؤثر بروح الله . كان هذا الإشعاع الإلهي من رجل الدين يفعل فعله في القلوب والأبصار من غير إرشاد ولا وعظ . كان العالم أو شبه العالم إذا دخل قرية أشرقت أرضها بنوره واهتز أهلها لمقدمه ، فيهرعون إليه ويعكفون عليه ويمجدون فيه الدليل إلى الله فمصاحفته عهد لا ينقض ، وإشارته حكم لا يرد ، ودعوته بركة لا تنقطع . وكنا في ذلك العهد أحياناً ننظر إلى الشيخ وهو في بُهرة المجلس

كأنه برهان الله ، يعبر وهو صامت ، ويؤثر وهو ساكن ، والقوم من حوله مطرقون مستغربون قد فرغت قلوبهم من مطامع الدنيا وخلت صدورهم من وساوس الشر . فإذا ترك القرية خلف بها عهد الله يتصل به ما انقطع من الأسباب ، ويقوى عليه ما وهن من المودة

ذلك لأن الشيوخ كانوا يومئذ يسمتون سميت الأنبياء فيجعلون دينهم ودينام وحدة لا تتجزأ ؛ فإذا قالوا وعظوا ، وإذا فعلوا أرشدوا ، وإذا صمتوا كانوا كأعلام البر تدل بالإشارة ، أو كمنائر البحر تهدي بالشعاع . فلما تشوف العلماء إلى زهرة العيش ، واستشرفوا لعزة المنصب ، انطفت من حولهم هالة الورع فأصبحوا كالناس يفعلون فيرمون بالرياء ، ويقولون فيتهمون بالكذب

تعال أقص عليك حديثاً من أحاديث الواقع لا يزال الناس يروونه كلما حلا لهم أن يوازنوا بين عالم يجري دينه على لسانه فيذهب في قوله ، وعالم يجري دينه في قلبه فيشع من مسامه :

كان الشيخ ... فقيهاً من النمط القديم ، قد شغل فكره بالدين ، وقصر جهده على العلم ، ووهب جهوده للأزهر فهو يقضى النهار وطرفي الليل في التدريس والمطالعة والصلاة ؛ لا يكاد يخرج من درس إلا إلى درس ، ولا يترك ملازمة إلا إلى ملازمة . فإذا جاء يوم الجمعة خرج ماشياً إلى زيارة الأولياء في المقابر أو في المساجد ، ثم يعود مع المساء قرير العين مطمئن النفس إلى حجراته الأزهرية ذات الفراش الحسن والضوء الشاحب ليعد درسه الذي سيلقيه في فجر السبت

. وفي ذات يوم من أيام الجمع وقع في نفسه أن يصلي الجمعة في مسجد أبي العلاء ببولاق ، فخرج من الأزهر في ضحوة النهار وأخذ يسأل عن الطريق

إلى ذلك المسجد والناس يدلونه أو يضلمونه حتى دفعه القدر إلى المـكان الرسمي للمومسات !

كان الشيخ يسير في هذا الشارع العاهر بعمته العظيمة وجبته الغضاضة كما يسير الجمل في شارع من شوارع لندن ! كان موضعاً للنظر الساخر وموضوعاً للتنادر البذيء ؛ ولكنه كان يمشي ناكس الطرف مشغول الخاطر ، فلم يفتن إلى شيء . نعم فطن إلى انتقاض وضوئه حين لمست يده بغى من البغايا تريد أن تعبت به ، فاستغفر الله وحوقل ، ثم سأل صبيّاً من صبيان ذلك الحى أن يدلّه على مسجد يجد فيه وضوءه ، فقد كان يكره أن يمشي على غير وضوء . وكان الصبي خبيث الفطرة فاحش الدعابة فدلّه على بيت مومس وقال له : هذه يا سيدى دورة المياه !

دخل الشيخ الدار فإذا فتاة كصورة (القارئة) في متحف (اللُّقْر) قد اضطجعت على كتبها الوثيرة وهى صف عارية . فلما رآها أسبل عينيه وغغم بالاستغفار والدعاء ثم قال لها :

— استرى نفسك يا بنيتى فقد قرّبت الصلاة وأوشك المصلون أن يجيئوا .
فنهضت الفتاة وقد اعتراها نوع من الوجوم ينشأ بين الدهش والعجب .
فوضعت عليها بعض ثيابها وقالت :

— ماذا تريد يا سيدى الشيخ ؟

— أريد أن أتوضأ . نادى أبك يقودنى إلى الحنفية ! أأنت ابنة خادم

المسجد ؟

فأجابت الفتاة وقد أدركت كل شيء :

— بلى يا سيدى أنا ابنته ؛ وسأقودك بنفسى إلى الحنفية . فافتح عينيك

واتبعني فقد لبست

وأرشدت المومسُ العالمَ إلى مكان الطهارة وهو مغسلها الوردى الأنيق ،
فوقف أمامه ذاهلاً يرى أداة الزينة ويجد رائحة العطر ، ولكنه لم يسترب .
ولم يستريب ؟ أما يجوز أن يكون في القاهرة طراز من المساجد لم يره ؟
وفتح الشيخ الحنفية وتوضأ ، وجاءته الفتاة بيشكير أوبر^(١) فأمره على
وجهه فسطعه أريجه ، ثم أقسمت عليه المرأة ليجلسن على الكنبه ريثما تهين له
فنجاناً من القهوة . فجلس الشيخ يذكر الله وجلست هي بجانبه تغلى الكنفكة
وتديم النظر إلى وجهه . فلما تمزق^(٢) الفنجان سألته : إلى أين يذهب ؟ فقال لها :
إلى مسجد السلطان أبي العلا . فخرجت أمام الدار ونادت عربية من عربات
الركوب فأجلست الشيخ فيها ، ثم أعطت الحوذى الأجرة وأمرته أن ينزله أمام
الجامع . ورغبت الفتاة أن تقبل يد الشيخ ، ولكنه أدخلها مسرعاً في ثوبه
وقال : لقد ضاق الوقت يا بنيتى عن وضوء جديد . أسأل الله لك الهداية والمغفرة
قالوا : ورجعت المومس إلى دارها وعليها من الشيخ شعاع نفذ إلى ظلام
نفسها فأشرق بالصلاح والخير . ثم لم تُرَ بعد ذلك اليوم إلا في ثوبها الأسود
قاعةً تخيط أو قائمة تصلى !

(١) أوبر : ذو وبر (٢) تمزق الشراب : تمصصه



مصطفى كامل بعد ثلث قرن

بمناسبة إزاحة الستار عن تمثاله

[٢٠ مايو سنة ١٩٤٠]



كل شيء في مصر ينسى
بعد حين كما قال شوقي ،
وليست مصر بدعاً من الأمم
في ذلك . فإن الرجل أو العمل
لا ينطبع ذكره في الذهن إلا
إذا كان ندى الصوت قوى
الأثر . ومصر في عهدها القريب
إنما كانت تجري في خلاء من
التاريخ لا يكاد يظهر فيه إلا
فقاعة تنفجر أو ومضة تنطفئ .

وليس لهذه أو تلك من الأثر ما يملأ الشعور ويشغل الذاكرة

على أن السائر في الصحراء مهما ضعف وعيه واشتدت غفلته لا بد أن
يذكر المنار الذي دله على الطريق ، والواحة التي أعادته إلى الحياة . وهيمات أن
تعرض القلوب عن ذكر محمد علي ومصطفى كامل وسعد ! وإذا جاز للزمن
العابث أن ينال من رجل الدولة أو بطل الثورة ، فإن مصطفى كاملاً يظل على
تراخي الحقب أنوط بالقلب وأعلق بالذاكرة . ذلك لأن زعامته كانت أشبه
بالنبوة في تهيمته الفطرة وثبات العقيدة وعصمة النفس واختيار القدر . وهو الزعيم

الوحيد الذى لم تلده الظروف ، ولم تبعثه المطامع : لم تلده الظروف ، لأن مصر كانت في إبان حداثته قد استأمنت إلى الجهل والاحتلال فنامت في ظلهما نومة الضائع الأبله . وكانت دعوة الأفغانى قد جمعت من ومضات الأذهان النيرة شعلة أضاءت جانب الطريق فسلكه العراقيون ؛ ولكنهم لم يكادوا يبعدون حتى أدركهم الظلام فى (التل الكبير) . فلا يصح فى العقل إذن أن نقول إن مصطفى كان أثراً للأفغانى وعربى ، كما نقول إن سعداً بعد عبقريته كان أثراً لهؤلاء الثلاثة . إنما أرسل المصطفى على فترة من رسل الوطنية . وكان إرهابه وهو فى المدرسة الثانوية أن الوزير على مبارك باشا زار مدرسته يوماً فسأله فيمن سأل من التلاميذ : ما ذا اعتزم أن يعمل بعد الشهادة ؟ فأجابه مصطفى اليافع فى خطاب طويل : « إن أرفع الرجال شأنًا من يحرر بلاده . وسأكون أنا ذلك المحرر الذى يكتب ويخطب حتى تُرفع الأغلال عن عنق مصر » . وكان إرهابه وهو فى مدرسة الحقوق أن أنشأ مجلة سماها « المدرسة » أشرفت فيها نفسه الكريمة إشراق النفس الزعيمة ، فتهافت على ضوئه طلاب المدارس العليا يؤيدون دعوته ويرددون كلمته ويترسومون خطاه ، حتى نال إجازة الحقوق ففرغ لرسالته وخلص لوطنه . وحينئذ رأيناه يكتب إلى أمه الروحية مدام چوليت آدم يقول : « إننى لا أزال صغيراً ، ولكن لى آمالا كباراً . أريد أن أوقظ فى مصر الشيخة مصر الفتاة . هم يقولون إن وطنى لا وجود له ؛ وأنا أقول إنه موجود بدليل ما أشعر له فى نفسى من الحب الشديد الذى سيتغلب على كل حب سواه . سأنفق فى سبيله كل قواى ، وأفديه بشبابى ، وأجعل حياتى وقفاً عليه . . . »

ثم اضطربت في ذلك الجسد الناحل روح الله فقار فورة الجبارين ،
وثبت ثبات الرسل ، وقام في وحدة النبي وإيمان الشهيد يجاهد الإشرار
بالوطن والكفران بالأمة ، ويقارع الحجب الثائرة الملزمة طغيان المحتل ،
وأمة هذا المحتل كانت يومئذ علة الملل ودولة الدول !

ومصطفى لم تبعثه المطامع ، لأنه أدرك وهو في طرأة الشباب زعامة
الأمة وثقة العرش ورضى الخلافه وخصومة المحتل ، وكان في مقدوره إذا شاء
أن يستغل هذه القوى العظيمة في سبيل الثراء والحكم ؛ ولكنه زهد
في ذلك كله زهادة الحكيم ، فعاش للمبدأ والفكرة ، ومات للقدوة والعبرة
وهل أدل على نزاهة مصطفى ونبل نفسه من نبوءه على عباس وانحرافه
عنه حين رآه يستيئس ويستكين بعد الاتفاقى الودى الذى أبرم بين انجلترا
وفرنسا سنة ١٩٠٤ ؟ لقد كان فى مسيرة الخديوية ومياسرة الاحتلال
ما شاء الطامع من جاه وألقاب وسطوة وثروة . ولكن مصطفى كان يريد
أن يقود لا أن يسود ، ويطلب أن يخدم لا أن يحكم . والزعيم الحق هو
الذى يدافع عن أمته ولا يحاول أن يحكمها ؛ لأنه متى حكمها أدركته حقارة
الإنسان فاستطال وترفع وفاش وطاش حتى يصعب عليه أن يوفق بين رغائب
نفسه وبين مطالب الناس !

وهكذا قضى الصدق فى الجهاد والإخلاص للمبدأ على مصطفى العليل
الواهن أن يحرك ساكن شعبه بوجيب قلبه ، ويدركى خمود جيله بحرارة دمه ،
ويضئ ظلام وطنه بوميض روحه ؛ ثم يموت رضوان الله عليه ميتة الأنبياء ،
لا (عمائر) تحجب سماء المدن ، ولا (دوائر) تشغل أرض القرى

لو أن زعيمنا الخالد كان قد سعى ما سعى لينال كرسياً في (وزارة) أو
مكتباً في (شركة) لما أقنأه هذا التمثال بعد ثلث قرن ؛ فإن الزعيم الذي يجعل
همه السياسي أن ينتفح لعدوده وجيبه لا يمكن أن يعيش في ذاكرة الناس هذا
العمر . ولكن مصطفى عاش كأصغرنا ، وسعى كأقدرنا ، ومات كأفقرنا ، فكان
حقاً علينا أن نقيم تمثاله رمزاً للوطنية التي لا تتاجر ، وللوطني الذي لا يداجي ،
وللزعيم الذي لا يخون



الفكر والحرب

[٢٧ مايو سنة ١٩٤٠]

قال الأستاذ « دومينيك ^(١) » في تحليله البليغ للكتاب القيم الذي ألفه « نيتل هندرسون » سفير إنجلترا في برلين بعنوان (سنتان عند هتلر) :

« إن المتمدنين الذين يعيشون في هذا القرن بإنسانية القرن التاسع عشر ومسيحيته ليقضون من الدهش إذ يرون هذا « الهتلر » يرجع بالعالم إلى عهود الجاهلية القيصرية فيحمل أتباعه على أن يعتقدوا أن الله قد حل به ، وأن ألمانيا قد تجسدت فيه . وإن المفكرين ليفزعون في وسط هذه الزعازع الهوج إلى الله جزعين أن يرتكس الفكر والحضارة في مهاوى البربرية الأولى »

وقال المستر « سمنر ولز » في خطبته الختامية بالمؤتمر العلمي للأمم الأمريكية :
« ليس من الصعب أن تنبأ بنكسة القرون الوسطى في بلد أصبح التفكير الحر مستحيلاً فيه . وأى أمل يبقى للأخلاق بعد هذا الطغيان الذي موّه الباطل على الناس حتي اعتقدوا أنه الحق ؟ » . ثم دعا الولايات المتحدة إلى أن تذود عن المدنية التي تدين لها بأكثر مما تنعم به

وقال صديقنا الأستاذ « الحكيم » في جريدة (الأهرام) :

« إن نذير الدمار المسلط على شؤون الفكر والروح كفيل بأن ينهض رجال الفكر والأدب للدفاع بأقلامهم وقلوبهم عن حضارة ساهم أسلافهم في وضع أحجارها الأولى »

وكلام هؤلاء السادة على اختلاف الموطن والمذهب ترجمة لطائفة من المعاني الخداعة التي قدسها الإنسان الحديث فأقام عليها ثقافة المدرسة ، وراض بها نفسية المجتمع ، وجعل منها خصائص حيوانيته تميزه في زعمه على الإنسان القديم والوحش الأبدي . وليس في منطق الطبع أن يكون أثر الفكر دائماً من الخير المحض ما دام مصدره الإنسان وهو يفسد ويصلح ويخبت ويطيب تبعاً لوحى غريزته وخضوعاً لهوى منفعته . أليس الفكر والأدب والعلم والمدنية التي يدعو الأساتذة الكتاب إلى النضج عنها هي نفسها التي جعلت ألمانيا الهتلرية جحماً يستعر بالظلم والغاز والحجم ، فزلزل الأرض من القطب إلى القطب ، ورمى الدنيا جمعاء بغاشية من الموت الوحى والقلق المميت ؟

لو لم تعتمد النازية على الفكر الألماني القوي الخصب لما استطاع ناسك « برجنوف » أن يفجأ العالم الآمن بأهوال من الشر ينكرها الشيطان ، وأساليب من الموت يجهلها الموت

إن الفكر الفعال في الأرض لا ينفك عنه قصور الإنسان وضلاله ، فهو عاجز عن هداية الناس ما لم يهده الله بنوره . ولا يجرؤ المسكين ابن آدم على أن يزعم أنه استطاع بفكره أن يحل مشكلاته بالمفاوضة ، ويقسم أرزاقه بالعدل ، ويوثق علاقته بالمودة ، ويضع لندياه أنظمة ثابتة تكفل له السعادة الخالصة والسلام الدائم

وإن الأدب الحرك لهوى النفوس لم يستطع الإنسان الأثر أن يسمو به على الأهواء النفسية والأغراض الحزبية والأطماع القومية ؛ فظل في كل أمة خاضعاً لمنهاج المدرسة وسياسة الدولة وطبيعة الشعب لا يتجاوز حدود المكان ولا فصول الزمن ، فكان عاملاً من أشد عوامل العصبية والوحشية والفرقة

وإن العلم الذى ناط به العقل كشف أسرار الكون لفهم الحياة ، وتسخير قوى الطبيعة لخير الناس ، جافاه الضمير فاستبد به الشر وراح يستعديه على نتائج الخير وآثار الصلاح ، فرماها بآلات البوار والدمار من طائر يقذف الشهب وسائر يطلق السموم وزاحف يرسل اللهب !

وإن المدنية التى عمرت بها الأرض ، ونمت عليها الأنفس ، وزخر بها النعيم ، وتبجح بازدهارها الإنسان ، قد سطت عليها المادة القاسية فسلبتها الروح وحرمتها القلب ، فوقعت الجفوة بينها وبين الدين ، وانقطع السبب بينها وبين الحب ؛ فتشتت الألف ، وتباعدت القرى ، وتشعبت الحاجات ، وتنافست المطامع ، وتكاشفت الأحقاد ، واضطرب الناس فى سبل الكدح ، وألهبتهم حوافزهم ، حتى عجزوا بخلقهم وطبيعتهم عن مسيرة الحضارة فسعوا بالطائرات ، وعملوا بالآلات ، ونظروا بالتلسكوب ، وسمعوا بالمكروفون ، وضائق عليهم الأرض برحبها فضربوا فى الآفاق واختصموا على ديار المستضعفين فحكوا بينهم السلاح فكانت هذه المدنية المادية أشبه بسعير الآخرة تنضج الجلود ولا تزق الأنفس ليستمر الاضطراب ويتجدد العذاب ويدوم للطبيعة الخداعة هذا الثوب الأنيق الموشى بفضل هذا الإنسان الأحق الذى يعمل ولا يعرف لماذا ، ويسرع ولا يدري إلى أين !

هذا الفكر العاجز ، وهذا الأدب القاصر ، وهذا العلم المجرم ، وهذه المدنية الفاجرة ، لا تستحق الاحتفاظ بها ولا الزياد عنها يازملاءنا الأعزّة . لقد اشتد بأسها وعظم سلطانها فى ألمانيا (الراقية) فولدت الهتلرية بوحشيتها وعصبيتها وبلاياها ؛ وإن من الخير للإنسانية أن تذهب هذه العقلية

مع الهتلية إلى غير رجعة

إن الفكر الذى نريده هو الفكر المدبر النفاذ الذى يُشرق فى جوانبه نور الله ، فلا يشت به ائتلاف ولا يضل عليه سائر .

وإن المدنية التى نرجوها هى المدنية الإنسانية التى ينبث فى طواياها روح الله ، فلا يولد بها شقى ولا ينجم فيها ثائر

إن شمس المدنية الصحيحة قد أشرقت من الشرق ثم غربت فى الغرب ، ولا بد أن يدور الفلك فتعود إلى مطلعها لتشرق على العالم من جديد



الحرب بين المسن واليوهمر

[١٠ يونية سنة ١٩٤٠]

يقول الأغرار من الناس إن السرعة الخاطفة عبقرية هذا العصر ومزيته . فمن لم يجرِ مرّاً على ظهره المتأخر وغبرّ في وجهه المتقدم . وواجب السرعة أن تعمل ولا تستريح ، وتفكر ولا تتأمل ، وتأكل ولا تتذوق ، وتنام ولا تحلم ، وتموت ولا تمرض . ونحن نقول لهم إن السرعة ليست عبقرية ولا مزية ؛ وإنما هي مس من الجنون أصاب العالم منذ اخترعت الآلة . ذلك أن الآلة مخلوق أَرْضِي جُهِزَه العلم بعشرات الأعضاء ليس بينها اللسان ولا القلب ولا العقل ولا الروح ، فهي تلد ولا ترأّم ما تلد^(١) ، وتعمل ولا تضمن ما تعمل ؛ وهي تكون للشر كما تكون للخير ، وتنتج للموت كما تنتج للحياة . وطبيعة الآلة سرعة الحركة ووفرة الإنتاج ؛ فلم تكّد تسيطر على مجارى العمل في أقطار الأرض حتى دفعت العالم دفعاً عنيفاً إلى الاهتلاك والاستهلاك والتسابق والتنافس والاضطراع والكدح ، فهو دأب لا يفتر ، ونصب لا يستروح ، ونهم لا يشبع ، وعراك لا ينقطع . ولئن سألت المتبجحين بعصر السرعة على العُصر الخوالى كيف يجد الجسم راحته في هذا الاضطراب الدائم ، وأين يلمس القلب سعادته في هذا الجحيم المستعر ؛ وما ذا أدرك راكب السيارة أو الطيارة أكثر مما أدرك صاحب الجمل والحمار أو راكب الحنطور والقطار ، لا تسمع منهم غير جوابٍ أشعب حين أجرى الصبيان إلى الوليمة خادعاً بالخيلة ، ثم جرى هو معهم مخدوعاً بالوهم !

هذه هي الحرب التي عرفها العالم منذ خلق الله آدم وإبليس ، قد انقلبت في عصر السرعة آلية لا تعتمد على فضائل النفس ولا على خصائص الروح ، وإنما تعتمد على سرعة الدواليب في الطيارة والسيارة والدبابة والدراجة والغواصة والبارجة . فأصبح الفرق بين الآلة والسيوف في حصد الأرواح كالفرق بين الماكينة والمنجل في حصد الحنطة !

إن معركة الفلندر التي شبت بين الألمان والحلفاء أهلكت في أيامها المعدودة من الأنفس والأموال أكثر مما أهلكت حرب البلوبونيز التي نشبت ثمانياً وعشرين سنة بين إسبرطة وأثينا ، والحروب الميدية التي اشتبكت أربعين سنة بين الفرس والإغريق ، وحرب البسوس التي اضطرت أربعين عاماً بين بكر وتغلب ، والحروب الصليبية الثمان التي ظل ضرماً يستخدم ويخبو قرناً وثلاثة أرباع القرن بين الغرب المسيحي والشرق المسلم !

اشتعلت هذه الحروب بين المدن أو بين القبائل أو بين الأمم قبل أن يوضع القانون الدولي وتُنشأ عصابة الأمم ، ومع ذلك تكشف عجاجها الأقم عن خلال مشرقة من الفتوة والبطولة والنبيل والإيثار والوفاء والتضحية كانت للأدب الإنساني الخالد مصدراً لا ينقطع رفده ولا يفتُر وحيه

وكانت الحروب الإسلامية على الأخص في الفتوح أو في الفتن تجري على سنن مستقيم من الدين والخلق والأدب لا تزيع عنه . فالقلوب التي تجيش بالغل لا تلبث أن تخضع للصلاة ، والألسنة التي ترتجز بالحماسة لا تنسى أن تتناشد الأدب . وما ظنك بجيش يفرض عليه دينه أن يؤدي الصلاة جماعة في المعركة ؟ أترأه حرياً أن يجاوز الحد إذا قاتل ، أو يجانب الوفاء إذا عاهد ؟ وما رأيك في جيشين يتهادنان ساعة ليحكم فارس بين رجلين اختلفا في المفاضلة

بين شاعر وشاعر ، وكان الحكم من جيش والمختلفان من جيش آخر ؟
 لقد رووا أن رجلين تنازعا في عسكر المهلب بن أبي صفرة في جرير والفرزدق
 وهو بإزاء الخوارج ، فصارا إليه ، فقال : لا أقول فيهما شيئاً ، ولكن أدلكما على
 من يهون عليه سخطهما : عبيد بن هلال ، وهو يومئذ في عسكر قطري
 ابن الفجاءة . فأتيا فوقفا حيال المعسكر ، فدعواه فخرج يحجر رحمة وظن أنه دعى
 إلى المبارزة ، فقالا له : آلفرزدق أشعر أم جرير ؟ فقال : عليكما وعليهما لعنة الله :
 فقالا : نحب أن نخبرنا ثم ننصرف إلى ما تريد . فقال : من يقول :

وطوى القيادُ مع الطراد بطونها طى التجار بحضرموت برودا
 قال : جرير . قال : هو أشعرهما !

فقل لي بربك : أين تلك الحرب التي كان يبرز فيها رجل لرجل
 فيتناولان ويتصاولان على مسمع ومرأى من الجمعين المتقابلين ، حتى إذا
 حميت الصدور واحمرت الحدق ، حمل بعضهم على بعض فيقتل نفر ويحرح
 نفر — من هذه الحرب الميكانيكية التي يقف فيها المليون حيال المليون
 فتغشاهم ظلل من السماء ترسل الشهب والصواعق ، وتكر عليهم قُلل من الحديد
 تقذف اللهب والقنابل ! ثم يُرعد الجو والبر والبحر بآلات الموت والدمار ساعة
 من الليل أو النهار ، فإذا بك لا ترى بعد ذلك عشرات من البلدان عمرتها
 الحضارة في دهر ، ولا ألوفاً من الشبان نشأتهم المدنية في جيل !

لقد اتخذ الفرس يوم القادسية دبابات من الفيلة هولوا بها على المسلمين
 بعض الوقت ، ولكن العرب لم يلبثوا أن أصابوا مقاتليها في الخراطيم فمسحها
 الشهداء بالسيوف ، فانقلبت الفيلة إلى أهلها فعبجنتهم بأرجلها وهي مولية .
 ولكن دبابات هتلر كضمير هتلر لا تحس الوز ولا تحفل الصدام ولا تبالي

العاقبة ؛ فهي تهجم هجوم الجراد الجهنمي على النبت العميم ، فلا تذر من شيء
أتت عليه إلا جعلته كالرميم . فإذا أضفت إلى ذلك الويل أن الذين أوقدوا نار
هذه الحرب حلوا أنفسهم من روابط الدين والخلق والقانون والعرف والشرف ،
أدركت مبلغ ما تعانيه الإنسانية اليوم من يأجوج ومأجوج في أمة بسمرك
ونيتشة وغلوم وهتلر !

ليت للعالم يارباه كرّة إلى عصر الجمل والحصان ، وحرب السيف والسنان ،
ومدنية القلب واللسان ، لينجو من هذا العلم الذي يدمر ما يعمر ، ويخلص
من هذه الحضارة التي تأكل ما تلد !



فرنساتنهار

[٢٤ يونيو سنة ١٩٤٠]

سبحانك اللهم مالك الملك وصاحب القدرة ! أفى أقل من دورة القمر
تخضع باريس محراب الأدب للقوة ، وتخضع فرنسا منجم الذهب للمادة ؟
أفى أسرع من كسرة بولفدة والنرويج وهولفدة والبلجيكا ينهزم أبسل
جيش على الأرض ، وتهدم أرفع أمة فى التاريخ ؟
أبعد القارعة الكبرى ونجاة (فوش) من (فون كلوك) بالمعجزة الفاجئة
يُخلد (بيتان) و (فيجان) إلى الدعة ، ويسترسلان إلى النعيم ، ويطمئنان
إلى الأمن ، ويسالمان الأحداث فى أفياء « ماجينو »^(١) ، ويهملان الشباب
فى أفناء (سان سير)^(٢) ، فلا يهتمان بسلاح ولا يفكران فى خطة ؟
لقد كانت (سيدان) فى جسم الدفاع الفرنسى عقب أخيل^(٣) : جثا فيها
نابليون الثالث أمام بسمرك ، فلم يستطع (تيير) و (غمبتا) أن ينقذا شرف
فرنسا ويفديا عاصمتها إلا ببذل الأكراس واللورين وخمسة مليارات من حر الذهب .
وانخرع فيها جيش (كورارب) فانثغر عندها خط الدفاع الرئيسى فوقعت .

(١) خط دفاعى مسلح أقامته فرنسا على الحدود الألمانية بقوة العلم والمال فلم يغن عنها شيئاً

(٢) سان سير : المدرسة الحربية فى باريس

(٣) العقب : مؤخر القدم ، وأخيل أشهر أبطال الإلياذة غمسته أمه وهو وليد فى
أستكس أحد أنهار « الأنفير » ، وخاصة هذا النهر أن ماءه إذا لمس جسم لإنسان لا يعمل
فيه سيف ولا رمح ، ولذلك كان جسم أخيل معصوماً من الجرح إلا من عقبه ، لأن أمه
كانت ممسكة به حين غمسته ، ومنه كان مقتله

الكارثة التي لا حيلة فيها ولا نجاة منها . وليس يدري إلا الله ماذا يملئ
الدكتاتوران على فرنسا الضارعة من شروط الصلح في (فرنكفورت) الثانية .
فكيف غفل القواد الفرنسيون عن هذا الثغر فلم يحصنوه ويؤمنوه ؟ لقد قال
رئيس الحكومة الفرنسية : إن القيادة ارتكبت أخطاء لا يتصورها العقل ؛
وأشار رئيس الوزارة الإنجليزية إلى تهم لا يرى الوقت ملائماً للإفضاء بها . ونحن
نعيد فرنسا مثل الوطنية العالية ونموذج العسكرية الرفيعة أن تكون ميداناً
لجيش المهترية الخامس^(١) ، فما علم الناس على ضميرها الوطني من سوء ؛ وإنما نعتقد
أن الديمقراطية دهاها ما دهاها من بطر الغنى وغرور الأمان واعتقاد السلامة .
فلو أن الحلفاء يوم صرعوا الأفعى قطعوا ذنبها ورأسها لما تفتحت الجحيم
عن شياطين النازية الذين زلزلوا الدنيا وبلبلوا العالم . ولكنهم دوخوها وسلخوها
وتركوها في فجوة من الأرض تتجوي وتتقوى وتستعد ، وانطلقوا في جنتها الفيحاء
ينعمون ويقصفون حتى أذهلتهم نشوة الفوز عن كيد الموتور وحقن المتهور ،
فأغفلوا الحيلة وأهملوا العدة إلى أن انفجرت عليهم السموم من كل وجه .
والدولتان الحليفتان قد اعترفتا بهذا الخطأ الذي جر عليهما هذه النكبة . فقد قال
المستر تشرشل في خطبته الأخيرة : « لقد انهارت قوى العدو في سنة ١٩١٨
فجأة . فشأت حماقتنا أن نلقيه جانباً ثم نستنيم إلى سكرة الفوز » . وقال المرشال
بيتان في ندائه الأخير : « بعد انتصارنا على الألمان في سنة ١٩١٨ تغلب فينا
مرح السرور على روح التضحية ، وحرص الناس أن يأخذوا أكثر مما أعطوا ،
واستشعروا برد الراحة فأراحوا أنفسهم من عناء الجهد »
لذلك لم يكن بالعجيب أن تعقم فرنسا أم الأبطال فلم تنجب في زهاء ربع

(١) يراد بالجيش الخامس أو الطابور الخامس الخونة والمنافقون ودعاة الهزيمة

قرن من القادة العباقر من يخلف جُـمُـر وفوش ، فاضطرها الأمر أن تلقى بمقاليدها إلى رجال المدرسة العسكرية القديمة كغاملان وبيتان ممن أوهنت السن العالية عواتقهم فلا يقوون على حمل النجاد

كذلك لم يكن بالعجيب أن يفجأهم النازيون بالخطط المبتكرة والأسلحة الحديثة ، فيقفوا حائرين ذاهلين أمام الدبابات التي تقذف اللهب وتعبّر النهر ، والطائرات التي تنقض كالصاعقة وترتفع كالقذيفة ؛ فيذهب غاملان ويحجى فييجان ، ويستقيل رينو ويتولى بيتان ؛ ولكن القدر القاهر فوق الناس يأبى إلا أن يكفر المخطئ ويخسر الغافل

ليت شعري ماذا قال الفرنسي الحزين المهان المحطم حين سمع المرشال بيتان يقول ليلة أمس في أول ندائه : « إننا في قلة من الجنود ، وقلة من الأسلحة ، وقلة من الحلفاء ، ولذلك انهزمنا »

لعله قال : وأين إذن يا مارشالي العزيز السعي الذي سمعته والمال الذي أدبته ؟ إن فرنسا وإنجلترا ومستعمراتهما يبلغون ستمائة مليون نسمة ، فهل يجوز على مثل هذا العدد القلة والضعف لولا أن هناك خطأ من الانسان أو خذلاناً من الله ؟

لقد برهن الفرنسيون في معركتهم الخاسرة أنهم جديرون بمكانهم من ثبت الشرف وتاريخ البطولة . وما غلبوا إلا لأن الديمقراطية التي يعتقدونها لا تفكر إلا في السلم ولا تتسلح إلا بالهود واثيق والقوانين والشرف ، وأن الدكتاتورية التي يعادونها لا تفكر إلا في الحرب ولا تتسلح إلا بالحديد والنار والدعاية والخيانة والكذب

على أن الله عود فرنسا العريقة أن يحفظ عليها الشرف إذا شاء أن تخسر المعركة . وبقاء الشرف ضمان لبقاء العزة . والعزة حافز دائب الوخز يدفع إلى الحياة

بالموت ، ويرفع إلى السيادة بالتضحية

ويعتقدنا أن هذا الصلح الذليل الذى طلبه الفرنسيون العسكريون عارض
من اليأس أصابهم فى حال سيئة . أما سائر الفرنسيين فى القارة وفيما وراء البحر
فسيختارون المنية إذا خيروا بينها وبين المذلة

إن فرنسا المنكوبة ضحية جديدة لجبروت العلم الفاسد . والعلم الفاسد هو الذى
قصده بالغضب فى مقالنا الذى عقب عليه صديقنا الأستاذ العقاد . وهو الذى
عناه المستر تشرشل فى بيانه بقوله : « إننا إذا انهزمنا سقط العالم كله فى عصر
من الظلام سيكون أطول العصور وأشأمها بفضل العلوم الفاسدة »

وفساد العلم أن يضع الإنسان فيه شهواته الدنيا فيجعله شراً خالصاً لا خير فيه
ورجم الله جان جاك روسو فقد أجهد قريحته فى التدليل على أن العلم
يفسد الإنسان^(١) ؛ ولو تنفس به العمر إلى عهد النازية لأيقن أن الإنسان
هو الذى يفسد العلم !

Discours sur les sciences et les arts (١)



بين المهاجرين والأنصار

[٢٢ يولية سنة ١٩٤٠]

كان من أثر الفرقة الشديدة التي نالت الناس من الغارات الجوية الإيطالية أن لجأ سكان العاصمة والثغور ، إلى القرى والعزب والكفور ، يلتمسون الأمن في ظل الريف الوريث ، وينشدون الهدوء في حضن الطبيعة المشبل .
وكان الطيار الذي يحلق ذات صبح من هذه الأصباح المضطربة ، في سماء مصر المشرقة المخوفة ، يرى الطرق الرئيسية تسيل بحاملات الأنفس وناقلات المتاع بين القاهرة والإسكندرية والإسماعيلية وبور سعيد ، فلا يجد نوعاً ولا شكلاً من عربات النقل أو الركوب التي تسيرها الأحصنة الحيوانية أو الميكانيكية إلا جمع لهذه الهجرة التي لم تر مثلها مصر في ماضيها الطويل !
هذه سلاسل من عربات النقل تجرها الخيل أو الحمير فتسير على يمين الطريق وثيدة الكركر تققع عجلاتها مخنوقة في التراب ، وتجلجل أجراسها خافتة في الجو من ثقل ما تحمل من الأثاث و (الكرار) والماعون ...
وهذه قوافل من (اللوريات) المكشوفة والمغطاة موقرة بالأثاث الفخم والرياش الثمين ، تهتلك دروجاً في وسط الطريق المترب فتثير غماماً من الغبار الخانق يحجب وراءه الأشخاص والأشياء إلى مسافة بعيدة
وهذه أرتال السيارات المملوكة أو المأجورة تشرق بمن فيها من النساء والرجال والأطفال ، وهي تنتقل من الوسط إلى الشمال لتخطف طريقها من (الكيونات) العنيدة

ولدى كل نقطة من «نقط المرور»، وعلى كل رأس من رؤوس الجسور، طوائف من القرويين والقرويات، يُلوّحون بالفواكه والمرطبات، فلا يكاد المهاجرون المفزعون يحسونهم لتوزع قلوبهم بين أهوال الحرب المتوقعة، ومخاوف الحياة الجديدة

أشرقت القرى العوايس بألوف من ناشئة النعيم المدني ذوى الوجوه الرفافة والأطراف الناعمة والطرر المصفوفة والبنائى المفوّفة والطرايدش القانية، وألوف من نابذة المطبخ الحضري ذوى الوجوه المظهمة واللغاديد الضخمة والبطون الشحيمة والجسوم الرهلة؛ وازدانت الأكواخ والمصاطب وحواشى البرك وحفافى السكك برواد الكنتننتال والكرسال وسان جمس. واعتري القرى بادى الأمر من التزايل^(١) والانزواء ما يعتري القروية إذا رأت أحد الأفندية على حين فجأة. ثم أدرك القرويون أنهم ملاذ هؤلاء الضيوف فاستشعروا قليلاً من الجراءة، فخالطوهم وباسطوهم حتى ارتفعت الكلفة بين أهل المهجر وأصحاب الدار، وأصبح بينهم من التعاون والألفة ما كان بين المهاجرين والأنصار

وفى سقيفة من شجر الصفصاف وحطب القطن، بين تل من تلال السمار الطرى، ومستنقع من آسن الماء الوَحِل، جلس ذات يوم جماعة من المهاجرين بعد شهر من الهجرة وقد حف من حولهم رجال القرية بين مضطجع فوق الحصا، ومحتب بحضيض التل، ومستند إلى جذع الشجرة. وكان كل رجل من هذه الجماعة قد نال من جسمه الشحوب، وشاع في نفسه السأم، وانتشر على جبينه الأبلج حَبَر^(٢) البراغيث والبعوض! فهو يتكلم من غير شهوة للكلام، ويحجب من غير تفكير فى الجواب، ثم يذهل ذهول شارب الأفيون فلا كلمة ولا حركة.

(١) التزايل: الحشمة والانتقباض (٢) الحبر: الأثر الذى يتركه لدغ البراغيث وما يشابهها

ولكن الشيخ . . . ، وهو رجل أزهرى الثقافة سليط اللسان جرىء القلب ، أراد أن يشفى صدور الفلاحين من هؤلاء المترفين الذين سلبوهم نعمة الله وراحة الدنيا وحق الحياة . فقال فى خبثه المعهود يسأل أحدهم وهو من الملاك الغلاظ المتأهبين :

— لعلك سعيد بجمال الطبيعة وبهجة الحقول وصفاء الهواء وهدوء القرية ! ولم يكد الشيخ يتم جملة حتى تحرك ساكن القوم ، ثم جاشت حركتهم ففارت على ألسنتهم خليطاً من الكلام فيه الضجر والسخر واللام والسب . قالوا :

— أين الجمال وهذه المزابيل والزرائب والخرائب والبرك تقذى الأعين ؟ وأين البهجة وهذه الأجسام الضاوية والثياب البالية والمساكن التى فى بطنها الوحل وعلى ظهرها الروث تقبض الأنفوس ؟

وأين الصفاء وهذه الدور المنتنة والأزقة القذرة والمراحيض المكظومة تسم الأبدان ؟

وأين الهدوء وطنين البعوض والذباب ، وتجاوب الكلاب والذئاب ، ونقيق الضفادع ، ونهيق الحمير ، وصراخ الأطفال ، تؤلف جوقة من الموسيقى الشيطانية تحطم الأعصاب ؟

إن القرية الأوربية خيلة من خائل الفردوس فيها متعة الحس والعقل والجسم . وكان الظن بالقرية المصرية أن تكون قريبة الشبه بتلك . فلما رأيناها أنكرنا أن يكون سكانها من الناس ، لأنهم يأكلون ما تعافه الكلاب فى المدن ، ويشربون ما لا يجوز أن تغسل به الأقدام فى المدن ، ويعانون من مختلف الأمراض فى القرية الواحدة ، ما لا يجتمع مثله إلا فى المستشفيات

المتعددة . فنحن بهجرتنا إلى القرية قد فررنا من موت متوقع إلى موت محقق .
لذلك عقدنا العزم على أن نعود إلى القاهرة . فإن الموت بالشظايا على دفعة ،
أخف من الموت بالجراثيم على دفعات

فما كان جواب الشيخ والذين معه إلا أن قالوا بلسان واحد : الحمد لله الذى
أراكم بعد العمى ، وأنطقكم بعد البكم ! لقد خطبنا حتى نشف الريق ، وكتبنا
حتى جف الخبر ، فلم تصدقوا أنكم عمرتم المدينة وخربتم القرية ، وأبطرتم الباشا
وأفقرتم الفلاح ، واتخذتم من عرقنا ودمنا أفناناً من لذائذ البطن أعلاه
وأسفله ، حتى ضوينا وسمنتم ، وفزعنا وأمنتم ، وكانت بلية كل أولئك على
الإنتاج والدفاع !

ثم افترقوا ، هؤلاء ساخطون ، وأولئك قانطون ! فعسى أن يلتقى هذا
الساخط وذلك القنوط عند معالى وزير الشؤون الاجتماعية !



نَهَايَةُ أَدْرِيَبْ

[٥ أغسطس سنة ١٩٤٠]



في الساعة السابعة من
مساء يوم الثلاثاء الثالث
والعشرين من شهر يولية ،
لفظ البحر على ساحل « جليم »
بالإسكندرية جثة كانت في
رونق العمر وإن بدا على
محاسرها مسحة من شفوف
الهم وشحوب الألم . لم يكد
يلقيها الموج الصاخب المتعاقب
بالرمل المستوى المنضوح حتى

أخذتها عيون الحرس الساحلى ، فظنوها لأول وهلة ضخمة من ضحايا الحرب
لإنجليزية الإيطالية في هذا البحر المسجور بالعذاب والموت ؛ ولكنهم علموا
من بذلة الغريق ومعطفه وسلامة بدنه أنه مدنى سقط في البحر أو ألقى فيه .
فلما قتسه رجال الشرطة ليكشفوا عن هويته عثروا في جيب معطفه على كتاب
منه إلى رئيس النيابة يقول فيه :

« إنه قتل نفسه بالغرق يأساً من الدنيا وزهادة في العيش ، ويوصى بأن
يحرق جسده ويشرح رأسه »

إذن هو رجل من رجال الفكر والرأى ، جعل للحياة مثلاً لم يحققه فهو
 يجتوئها ، ورأى فى العقيدة رأياً لم يرقه فهو لا يرتضيها ، واعتقد أن فى مخه
 عبقرية فهو يرجو أن يظهر بالتشريح خافيا
 فهل تدرى من هو ؟

هو الدكتور إسماعيل أحمد أدهم عضو أكاديمية العلوم الروسية ، ووكيل
 المعهد الروسى للدراسات الإسلامية ، كما كان يخبر عن نفسه . وهو صاحب
 المقالات العلمية والنقدية فى الرسالة والمقتطف ، ومنشط الحركة الأدبية فى
 الأسكندرية وجمعية الثقافة . نجله أبوان مختلفان : تركى وروسية ، ثم غذى
 فى يفاعته بثقافة البحر الأسود ، فتأثر بنفسية الترك الجمهورية ، وعقلية الروس
 الشيوعية . وتزوج أبوه مرة أخرى من مصرية فعاش معه فى الأسكندرية حيناً
 من الدهر تعلم فيه العربية . ثم ترك له بعد موته بيتاً صغيراً كان يعيش على
 أجرته هو وأخته عيش الكفاف الضيق . واعتراه داء السل فكان يراوغه
 بالسكنى فى جفاف « أبو قير » ، ولكنه كان مضطراً إلى أن يشق طريقه فى
 زحمة الحياة بن القلم : فكتب وألف ، حاضر وناظر ، حتى كان له فى كل
 كتاب رأى ، وعلى كل مسألة اعتراض ، ومع كل كاتب موقف . وأعاناه على
 هذا الجهد العظيم قريحة طيبة وبصيرة ناقدة وعزيمة نافذة وطبع عمول . ومع
 ذلك ظل فى عزلة عن القلوب المؤاسية أو المشجعة من جمهرة القراء وقادة الأدب ،
 لأن نشأته اللادينية ، ونزعتة العالمية ، وطبعه الجرىء الحر ، وأسلوبه الجاف
 القلق ، كانت تجعل لسطوره ظلالاً من الإلحاد والمادية والغثاء تبغضها إلى
 صاحب الدين وصاحب الفن . ثم وصل أسبابه ببعض ذوى القلم النابه فاستخدموه
 فيما لا يكسبه المودة والعطف . وجابه قوماً من المتصوفة وطلاب العلم بوقاح الرأى

في الدين فأذوه في بدنه وسمعته . ووجد رضى نفسه وراحة عقله في تسليط الطبيعة على العقيدة ، وتحكيم الفلسفة في الشعور ، فسأت ظنون الناس فيه ، وأرهفت الألسن عليه ، حتى عجز أن يعيش على ثمرات فكره

وكان المرحوم إسماعيل أدهم غفيف النفس يتقنع بميسور الرزق ، ويتكرم عن طلب المعونة ولو كانت جزاء على عمله . وكان مرضه الدخيل المزمن يقتضى وفرة الغذاء وجودة الهواء وراحة الجسد ، ولكنه كان لا يجد الكفاف لضيق مضطربه ، ولا ينال الدعة والجمام لقوة عزمه ؛ فتظاهر عليه الداء والشقاء والإباء واليأس من روح الله حتى زلزلت هذه الحن في نفسه الثقة ، وأذهبت عن قلبه السكينة

ونكبت الإسكندرية الجميلة بالغارات الجوية الإيطالية ، فجلا أكثر الساكنين عن الثغر المروع ، فأفقرت المنازل حتى منزل أدهم وهو مرتزقه الوحيد ، فلم يكن بد من هذه النهاية الحزنة التي انتهى إليها هذا الأديب البأس

كان الدكتور أدهم — غفر الله له — شديد الذكاء أصيل العقل رياضى الفكر واسع الثقافة لا يؤمن إلا بالعلم والمنطق . وقد أضاف إلى ثروة الأدب العربى الحديث جهداً مهماً اختلفت الآراء فيه فإن له قيمته . وكان من الممكن أن يعيش في ظلال أدبه رضى البال مكفول الرزق لو أنه وصل ما بينه وبين الله . ولكنه خضع لسلطان طبيعته ونشأته فعالج الموضوعات الإسلامية معالجة الملحد الخالص الذى يجد سعادته في الكفر ورسالته في التكفير . ولو أنه خادع الناس كما يفعل بعض الأكياس من الأدباء ، لأدرك السلام في الأرض وإن لم يدركه في السماء ؛ ولكنه كان أشبه بشهداء الكفر الذين يجدون اللذة في الألم ،

رحم الله الدكتور أدهم ! حسب أن أرقام العلم وأقيسة المنطق هي كل شيء
 في تقدير المعلوم واكتناه المجهول ، فاعتمد في أدبه على العقل القعيد الذي يرى
 ولا يظير ، واتكأ في فلسفته على الفرض البعيد الذي يظير ولا يرى ، وتحامل
 في مُعتقده على الضمير البليد الذي خبا وجهه بين فتور الخيال وخمود العاطفة .
 ثم غرَّه أن معارضة الدين سبيل من سبل الشهرة فأوغل فيها بعنف حتى انقطع
 في صحراء الحياة عن الله والناس ! فهو لا يملك النور الذي يضيء ظلمة القلب ،
 ولا الرجاء الذي يخفف وطأة الكرب ، ولا الحب الذي يؤنس وحشة الطريق .
 وحكم القدر على السائر في الظلام والوحدة أن ينزلق من صخرة الحرمان إلى
 لجة العدم^(١) ؛ وهناك لا يدركه إلا رحمة الله التي وسعت كل شيء وشملت
 كل شخص !

إن الأدب الملمد قد يعيش في الغرب لأن الظلام يمدّه الظلام ، ولكنه
 لا يستطيع أن يعيش في الشرق ، لأن الظلام ينسخه النور !

(١) إشارة إلى انتحاره بالقاء نفسه في الماء من فوق صخور الشاطئ.



الشتاء

ترجمة صورة



الشتاء ! الشتاء ! وما ذا تفهم من الشتاء يا ابن مصر الضاحية
الضحوك ؟ هل تفهم منه إلا أنه أسابيع من عمر العام لا تدرى
أهى أواخر خريفه أم أوائل ربيعہ ؟ هل تجد فى جسمك غير

دفع النعمة ، وفي نفسك غير بهجة الأنس ، وفي عيذك غير
إشراق الجمال ؟ أنظر الصفحة اليمنى تر الشتاء الغربي الذي
جعل الله شيخوخة الطبيعة ، يسلبها الرواء فلا تعجب ، ويحرمها
النماء فلا تخصب ، ويلقى عليها الهمود فهي سكون خافت
وصمت ثقيل ، ويلفها في كفن من الثلج نسجته ريح بليل ؛
ثم تقشعر الأرض ، وتكفهر السماء ، وتقع الحياة بين القحط
والموت فتئن بالرعود وتتأوه بالأعاصير ، وتساقط على الشجر
السليب والثرى السكئيب والقرى الموحشة همًا في الصدور ،
وبؤسًا في الأكواخ ، ورهقًا في العزائم .

إن الشتاء في غير مصر زمهرير جهنم ، تتنفسه كما تقول
الأساطير فلا يذر من شيء يهب عليه إلا أحرقه بالقر وأغرقه
في الصقيع . أما في مصر فالشتاء في الناس لا في الطبيعة .
والشتاء في الناس برد في الدماء ، وخمود في العواطف ، وقحط في
الأنفس . فلو كان كل من على النيل صافي القلب كسمائه ،
عذب الخلق ككائه ، طلق اليد كفيضه ، ضافى المعروف كأرضه ،
لكان هذا الوادي الحبيب جنة الله في الدنيا ، أزافها لجنس
من خير الأجناس ، خلقه وسطًا بين الملائكة والناس !
ولكن . . . وما أسخف الحياة ما دامت فيها لـكن !

خَواطرُ مُهتَاجِرٍ

[١٩ أغسطس سنة ١٩٤٠]

— ١ —

تقيّاً كعادته كل يوم ظلال الكافورة الغيناء من قهوته المختارة على شاطئ
النيل الجميل في « المنصورة » بلد الشعر والسحر والجمال والفتنة . وكان مجلسه
تحت هذه الدوحة الفينانة أشبه بالعش الناعم قد احتضنه النهر وحفّت عليه
الغصون وتنفس فوقه الماء بالنسيم الرطب فأصبح للحس الشاعر قطعة من رياض
عدن ، أو بقعة من بقاع عبقر ! فإذا أضفت إلى جمال المكان وبهجة المنظر ،
أنس الصديق الخالص ، ورقة الجليس المهذب ، وبشاشة الوجوه النامة عن الود ،
وعطف القلوب المتآخية في الأدب — جمعت في ذهنك صورة مقاربة للحياة
الروحية الوادعة التي يحياها هذا المهاجر في زمن روعت الحرب فيه معالم الأرض
ومجاهلها حتى ما كان ممتنعاً منها على شرور الإنسان منذ الأبد كأجواء السماء
وأباج البحر وقفار البيد !

مال ميزان النهار وأوشكت جمهرة النادين من الأهلين والمهاجرين أن
تنصرف عن مناضد القهوة الحافلة ، فلم يبق إلا جماعة هنا وجماعة هناك من
الذاهبين إلى (رأس البر) أو الآيبين منها ، جلسوا يستروحون من عناء السفر
ليستأنفوه بعد الظهيرة ؛ وسكت النداء عن النُدُل فجلسوا يرفهون عن أقدامهم
على أبواب القهوة ؛ وانقطع الرجاء بمساحى الأحذية وبائى اليانصيب ومحترفي

السؤال فناموا متر بصين على إفريز الطريق ؛ وهمدت الأصوات والحركات حول المهاجر فاتجه بعينه وقلبه إلى النهر الخالد ، وقد ظمى شاطئاه ونش مجراه حتى سحب الملاحون قواربهم على قاعه . هنالك رأى زمر القرويين الوافدين على السوق يملأون الزوارق في المعبر الذى لم يتغير منذ رآه وهو طفل ، فأتبعهم نظره الحالم حتى صعدوا درج الموردة وانسابوا بعصيتهم وأخرجهم فى شارع فاروق . فلما مروا به على قرب رأى لهم صوراً غير التى عهدوا لآبائهم وهو يافع : كان الغاب على آباءهم الجسامة والوسامة والسذاجة والصحة ؛ وكان بين أبدانهم الوثيقة ولحام المرسلة وثيابهم الفضفاضة وعمائمهم الضخمة تناسق عجيب يملأ النفوس مهابة وروعة ؛ فإذا حادثتهم فى شىء من الأشياء ، أو عاملتهم فى أمر من الأمور ، وجدت صفاء القلب مشرقاً فى الحديث ، وأثر الدين ظاهراً فى المعاملة . وكنت تخالط سوادهم أو أحادهم فلا ترى إلا عفة فى القول ، وصراحة فى الفعل ، وقناعة بقسمة القدر ، وزهادة فى مال الناس ، ومساهمة فى تكاليف العيش ، ومواساة فى محن الدهر ، ونية صادقة فى أن تكون القرية للكل ، والكل للقرية .

ذلك لأن الرزق كان أكثر من الناس ، والرضا كان أوسع من الهمة ، والأمل كان أطول من الحياة !

زد على ذلك أن أولئك الأباء السعداء ما كانوا يعرفون عداوة الانتخاب ولا دعاية الأحزاب ولا مكاره السياسة ولا تهاويل الحرب ؛ إلا ما كان يقع فى أسماعهم الحين بعد الحين من أخبار الحروب بين العثمانيين والمسكوف ! أما فلاحو اليوم فهم كما يراهم ضئال الأجسام قصار القدود مبذوو الهيئة ، يتبين الناظر فى وجوههم لوائح المرض ، وعلى مظاهرهم دلائل الفقر ؛ ثم يتمثلهم

وهم في طواقيمهم الحقيرة وجلايبهم القصيرة ، مسوخاً من تشويه الطبيعة ينسجم فيها خبث الطوية مع قبح الصورة !

لم يرث قروى اليوم عن قروى الأمس إلا الجهل . أما سلامة الصدر وسماحة النفس وعفة الطعمة ، فيقولون إنها ارتفعت مع البركة من أرض القرية . فالفلاح يكدح ولا ينجح ، ويسعى ولا يبلغ ؛ لأن عدد الناس زاد إلى الضعف ، وموارده هو ظلت على الضيق ؛ وتشوّفت نفسه إلى متاع الدنيا ويده من محصول عمله أو ملكه صفر اشتره المرابى وطمع المالك ، فاضطر إلى أن يساعد الجهل بالحيلة ، ويرفد الحلال بالحرام ، ويمزج الطيب بالخبيث ؛ وذلك يأخذ من راحته وصحته وخلقه ودينه ما لا يعوضه طب الطبيب ولا وعظ الواعظ

والفلاح لإخفاقه الغالب وحرمانه المتصل بنفس على الناجح ويحقد على الغنى . ولعله يعاني حُمى الحسد أضعاف ما يعاني من تبريح العلة !

ولقد ركبه الغرور باستفحال الجهل فيه ، وألهمه الطمع بإلحاح الحرمان عليه . والجهل إذا طغى خيّل لصاحبه أنه العلم ؛ والحرمان إذا استمر زيّف في ذهن المحروم معنى الحياة ، والشر إذا دأب على معاندة الطبع أفسد في نفس الشرير صلاح الفطرة . فالفلاح يقول الزور ويعتقده الحق ، ويفعل المنكر ويظنه المعروف ، ويعمل مع الطبيعة في استثمار الأرض ولا يتفق معها ، ويعتمد على الله في اكتساب الرزق ولا يتصل به !

والفلاح التام الجهل كالحضري الناقص العلم ، كلاهما ضحية من ضحايا الانتقال الاجتماعي في هذا العصر ؛ لأن القروى المغرور يحاول أن يكون مدنياً ، والمدنى المفتون يريد أن يكون أرستقراطياً ، فيقعده هذا وذاك فشل القدرة دون الغاية ، وعيش المسيخ المشيأ^(١) لا يصلح أن يكون في نسيج السكون لحمة ولا سداة

(١) المشيأ : الذى فيه شئ من كل شئ ،

هذا الفلاح المزيف لا يصلحه تنظيم قريته ولا تجميل داره ؛ إنما يصلحه
 تربية ذوقه وإرهاق حسه . فإن صاحب الذوق يبني الدار الجميلة ويخطط الحديقة
 البهيجة ؛ أما فاقدته فخليق به أن يجعل القصر زريبة والبستان مزبلة . ووسيلة
 إصلاح الفلاح التعليم ولا شك . ولكن التعليم وسيلة بطيئة وإن كانت مضمونة .
 فإذا أردتم سرعة الإصلاح فلم لا تجربون مع التعليم أن تجعلوا مكان العمدة
 (كنسبيلات) تكون لهم عجرة الترك وعقلية الإنجليز ؟ إن هؤلاء خلقاء أن
 يُعلموا الفلاح الجاهل بالفعل كيف يعيش ؟



- ٢ -

كأنما أقبل فيضان النيل في هذا الموسم متلصكاً منزوراً ليوانم طبع هذا العام في خصومة السلام وعداوة الخير !
 وكأنما كانت كل سنة من عمر الدنيا نشيداً من ملحمة القدر تتألف أبياته من تفاعيل الخير أو من تفاعيل الشر ليصح منطق السكون فيما ينتج من أفعال الناس ومنطق الطبيعة !

كل شيء من الأشياء قد انحرف اليوم عن وضعه أو خرج عن مداره ؛ لأن زلزلة الشر للأرض ، وانفجار الدواهي على الناس ، لا بد أن يحدثا الفساد في كل معنى ، ويبعثا الاضطراب في كل ذات . فمن توقع في هذه السنة النازية الجهنمية خيراً أو سكينه كان كمن يتلمس الصلاح في عمل الشيطان ، ويتحسس الطرب في لحن الحزن !

يُحْيَلُ إِلَى وأنا أقرأ أنباء الحرب وأطالع أحوال الناس أن وشائج الإنسانية قد تَقَطَّعت بين بني آدم فوقعوا في فترة منكورة من فترات الوحشية الأولى ، فلا وفاء بين الآحاد ، ولا ثقة بين الأمم ، ولا حجاز بين النفوس ؛ وإنما يعيشون على الترصّد والغيلة في فزع لا يغبّ وحذر لا يغفل . فإذا أخلف النيل هذا الإخلاف — وهو في رأى مترجمه « إميل لدوج » معروف بخصائص الإنسانية العليا من الوفاء والسخاء والعدل — فإن ذلك لا يتنافر مع هذه القوضى العامة المهلكة التي أصبح فيها الكذب سلاحاً مشروعاً يسمى الدعاية ، والغدر سياسة مرسومة تسمى الوقاية ، والخيانة خطة مدبرة تسمى الطابور الخامس !

على أن النيل أوفى منذ أيام فطى وزخر ! ففي ذات بُكرة من بُكر
 لمنصورة الغريقة في النور والفتور والهدوء والعطر ، رأيت من مشرف القهوة
 اطئيه الظامئين قد شرفا من فيضه بدم الحياة أو بذوب النضار ، فهما يفهقان
 كما يفهق اليهودى ذو الربو الهرم ! وأبصرت الزوارق التى كانت تُجرّ بالأمس
 على رمال القاع قد غدت على صفحته الذهبية المتموجة أشبه شئ بالحمام الطائر
 على حقول القمح إذا استحصدت ، أو بافراش المبثوث على رياض الشقائق
 إذا توردت . ثم صوّر لى أن المدينتين المتقابلتين على ضفتى النهر المقدس
 لخالد قد صغتا إليه بوجوههما وقلوبهما كأنهما تؤديان إليه تحية العرفان ،
 وإلى الله صلاة الشكر ! حتى الكافورة بانغت أغصانها الشامية فى التدلى حتى
 وشكت أن تقبل أمواجه المسلسلة وهى تنساب فى ظلها الظليل شادية بالثراء
 والغبطة !

حينئذ وجدتني على الرغم منى عانى الوجه له مستغرق افكر فيه ، يتردد
 فى خاطرى ما يردده الحيوان والشجر من تقديسه وتمجيده . ثم قرّ فى نفسى
 أن بينى وبين هذه الشجرة اقربية وذلك الرجل البعيد قرابة شابكة ، لأننى
 شعرت أن بينى وبين من يسقيه النيل إخاء من رضاع الماء كما يكون بين الولد
 والولد إخاء من رضاع اللبن ! ووضح فى ذهنى الآن معنى ما يقول الناس من أن
 علاقة الفرد بالأمة هى علاقة الأخوة ، وعلاقة الأمة بالوطن هى علاقة الأمومة .
 وكما يتجه فى لحظات الصفاء الروحى ففكر الأخ الممنوح إلى أخيه المحروم ،
 اتجه فكري فى هذه الجلوة النفسية إلى ثرانا المكرب وأكبادنا الحرى
 فى صحارينا الشرقية والغربية . فقلت لنفسى وأنا أردد الطرف الساهم فى تيار
 النهر الجارف وداراته المدوّمة ولججه الفائرة : كيف خفّ على ضمائر ذوى العلم

والرأى فى وزارة الأشغال أن يدعوا هذا الفيض الحيوى العظيم يتدفق أربعة أشهر فى لهوات البحر الأبيض دون أن يجبسوه بحيلة من حيل الفن الهندسى ليحيوا به موات الناس والأرض !

لو كان لمهندسى الرى فى بلدنا مطمحٌ تُشرف نفوسهم عليه غير أن يكونوا موظفين يسجلون المناسيب و يضبطون المناوبات ويتعهدون الجسور ويترقبون العلاوات ، لوصلوا ما انقطع من أبحاث « ولكوكس » و « سِرِّى » حتى يبلغوا بها الغاية التى يكون بعدها كل سهل واحة وكل تل غابة . ولكن مهندسينا كسائر أهل الفكر فىنا لا يعملون إلا للعيش ؛ فإذا ضمنوه هدهدوا كسلهم الرخى اللذيد على كرسى العمل الدوار فى المكتب ، أو على كرسى الهضم الهزاز فى المنزل !

قالت نفسى وقد ساءها أن آتهم العلماء والمفكرين بقلّة الوفاء بعهد الضمير :
لعلمهم لا يوفون بعهود الوطن والفكر إلا إذا قدّمت الأمة إليهم العرائس كما كانت تقدمها إلى النيل من قبل

فقلت لها : لا جرم أن العرائس أو الجوائز هى أقوى الحوافز لقرائح العلماء والأدباء والفنانين ، لأنهم خلّقوا لأنفسهم قبل أن يخلّقوا للعلم والأدب والفن ، فإذا لم يجدوا الجزاء على ما يبذلونه للناس ضمنوا به أو أنزروه ، ولكن النيل خلق لغيره كما يخلق النبى المرسل والزعيم الملهم ؛ فوجوده أن يفيض ، وعمله أن يعطى . ومن ذلك كان أصدق خلاله الوفاء والكرم ، فهو منذ اتصلت منابعه بعيون السماء ، وانشقت مجاريه فى صدور الأرض ، لا يزال ينى بوعدده ويوجد برفده على القدر الذى يريده الله لا يملك زيادته ولا نقصه . وما كان الوفاء

والسخاء غريزتين في المصري الحر إلا لأنه خلق من غرين نهره الحبيب ومائه .
فهو لا بد موفٍ بما عاهد عليه وإن تناقل . والتناقل مشبَّط عارض ينشأ من غفوة
الضمير أو من كلال الذهن ، فمتى نبه الدين الضمير وشحذ العمل الخاطر ، عادت
النفوس إلى جوهرها الخالص فسخت بما تملك ؛ ويومئذ لا تجددين عالماً يكسل ،
ولا غنياً يبخل ، ولا سياسياً يكذب ، ولا زعيماً يخون ، ولا صانعاً يغش ،
ولا عاملاً يهمل ؛ وإنما يجري أبناء النيل على أعراق النيل ، ينشأون أطهاراً ،
ويشبون أحراراً ، ويعملون أخياراً ، ثم يذهبون أبراراً ، كما يذهب هذا النهر
العظيم بعد أن يُخصب الجذب ويُنبث الحب ويرفع الحضارة ويقر السلام .



أخذت نوافح الخريف الأولى تتنفس منذ أسبوع على وجه المنصورة رخيّة نديّة . وللخريف على شطآن النيل الشرقى وهو فى عنفوان الفيضان سحر لا يبلغ كنهه الشعور ولا تعبر عن تأثيره اللغة . فللسماء اللازوردية على صفحاته ألوان وأحوال ، وللسحب الرقاق البيض على حواشيه أطياف وأظلال ، واشمس الأصيل على مويجاته المرتعشات الحمر انكسارٌ يخطف البصر ، كأنما ذاب قرص الشمس فهو يتدفق من السماء على الماء ، أو انبجست على النهر من الأفق الغربى عين من ذائب الماس لم يدخل علمها فى الكيمياء . وللأبكار والعشايا أنسام طيبة الشميم كأنما تنقل عن رياض الفردوس . والطبيعة الريفية عطار حاذق يعرف كيف يفتق الطيب من سنابل الرز وأمطار الذرة وأقناء الفخيل ونوار التيل ولوز القطن ومما يذبت على حفاى الترع والطرق من أشات الرياحان والبقل . وللمنصوريين والدقهليين على الجملة صباحة ووداعة يزيدنها الخريف حلاوة وشاعرية . وإن بينهم وبين طبيعتهم المشرقة الجميلة من التآلف والتجاوب ما لا تجده بين الناس والطبيعة فى مكان آخر . والناظر فى أخلاق هذا الإقليم ومزايه يرى أن مثله بين أقاليم مصر كمثل أوربا بين قارات الأرض : تميز كما تميزت بالنبوغ والمدنية والجمال ، وتآلف تاريخه القديم والحديث من فصول وضاء فى الوطنية والعبقرية والبطولة

ففى الحروب الصليبية كان للمنصورة وإقليمها شرف القضاء على حملتها الأخيرة . وكان الجيش المصرى قد ارتد إليها مهزوماً ؛ وامتنحنه القدر القاسى فمات ملكه الصالح وقتل قائده نحر الدين ، فانتشر الأمر على جنوده ، واستبهم

الرأى على قواده ، وكاد الرجاء من نجاة مصر ينقطع لولا أن نهض الظاهر بيبرس بالمليك ونهض معه أهل المنصورة ، فأقاموا المتاريس فى الطرق وجعلوا من دورهم قلاعاً يرمون من نوافذها الفرنسيين بالأحجار والقذائف ، حتى قتلوا الكنت القائد « أرتوا » ، واستأصلوا فرقته ومزقوا الفرق الأخرى ؛ ثم كانت الهزيمة الحاسمة فى فارسكور ، حيث أبعد الجيش العدو وأسر الملك القديس سجين بيت ابن لقمان ومضروب الطواشى صبيح

وفى الغزوة النابوليونية كان المنصورة وإقليمها فضل الجهاد السابق الصادق ، فقد ثاروا يوم السوق على جنود القائد « دوجا » ، وأعملوا فيهم السلاح حتى أفنوهم . وسجل التاريخ فى ثبت الخلود من أسماء القادة فى هذه الثورة : الأمير مصطفى كبير محلة دمنة ، وعلى العديسى شيخ القباب ، وحسن طوبار زعيم المنزلة وفى الثورة المصرية على الاحتلال كان للمنصورة وإقليمها فى البطولة الوطنية مواقف سارت مثلاً مضروبة فى الإيثار والتضحية ، ولا تزال أسماء الشناوى والجيار وعبد النبى والأتربى عناوين لفصول خالدة من كتاب الجهاد الوطنى المقدس

على أن المزية الظاهرة للدقهلية هى انطباع أهلها على الأدب والفن حتى العامة والسوقة . وإنك لتتبين أثر ذلك فى كل ما يصدر عنهم من ثمار العقل والقلب حتى فى القانون والسياسة . وحسبك أن يكون من نوابغها فى الأدب : على مبارك ، ولطفى السيد ، وحسين هيكل ، وعوض إبراهيم ، ومحمد العشماوى ، ومحمد عوض محمد ، وإبراهيم رمزى ، وعبد الله عنان ، وصالح جودت الكبير . وفى الشعر : إسماعيل صبرى ، وعلى محمود طه ، والهمشرى ، وكامل الشناوى ،

وصالح جودت الصغير ، ومحمد عبد الغنى حسن ، والوكيل . وفى الغناء والموسيقى :
 أم كلثوم ، ورياض السنباطى ، ونجاة على ، وسعاد زكى ، والدكتور الحفنى .
 وما اقتصرت على من ذكرت إلا لأنهم عُرفوا بالأسماع فى أقطار العروبة
 فلا يضعف بهم المثل . والواقع أن فى كل بلد من بلاد هذا الإقليم الفنان هيكلاً
 لعطارد تغاديه نفثات الأولب ، وتراوحه نفحات عبقر !

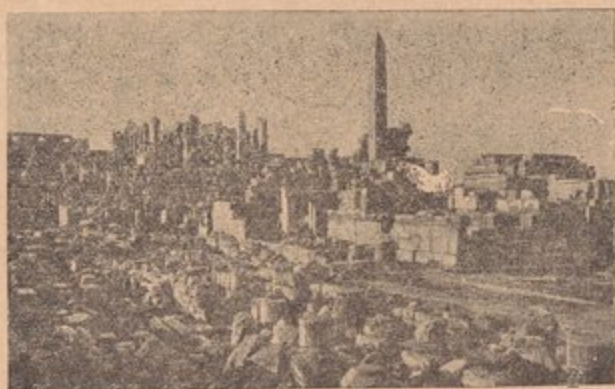
أقامت جريدة الإصلاح فى السنبلاوين لجملة الرسالة حفلة تكريم وترحيب ؛
 وشاء زميلنا الكريم صاحب الجريدة أن تكون حفلته مظهرًا من مظاهر
 الأدب الإقليمى فى صورة من صور العطف الجميل ؛ فدعا إليها جمهرة من أدباء
 البلد المختلفين فى الجنس والزى والثقافة ، فأسمعونا على موائد الشاى الحافلة أفانين
 من النثر المشرق الأسلوب ، والشعر المحكم الأداء ، والزجل البارع النكتة ،
 فعجبنا أن تجتمع هذه الجملة المختارة فى هذا البلد المغمور ؛ ثم علمنا أن فى كل بلد
 من بلاد الدقهلية عكاظاً يتبارى فيها صاغة القوافى وحاكة الفقر !

يا لله للريف المسكين ! لقد غبنته المدينة فى كل ما ينتج من مادة وأدب :
 ففلاحه يكد ولا ينال القوت ، وشاعره يغنى ولا يجد السامع ، وصحفيه يجاهد
 ولا يلقي الجزاء !

سجرتنى مفاتن الخريف والريف فى المنصورة فما ينفك ناظرى وخاطرى
 يسبحان فى جو مشرق عبق من حاضرها الجميل وماضيها المجيد . وكنت الساعة
 أتتبع بالخيال كتائب الصليبيين وهم يسرون على ساحل النيل الأيمن من دمياط
 إلى المنصورة ، يقود الحملة الأولى « جان دى بيرين » ، ويقود الحملة الأخرى
 « لويس التاسع » ، حتى رأيتهم على الثرى الخصب الحبيب جزراً للسيوف

وطعاماً للوحش . وسرعان ما انتقل ذهني إلى ساحل البحر الأبيض ، فرأيت
 أحفاد أولئك الصليبيين^(١) يزحفون من السلوم إلى الإسكندرية في زى غير الزى
 وسلاح غير السلاح وعدد كأرجال الجراد ! فقلت لنفسى وهى تضطرب بين
 الرجاء والخوف : إن رب السكناة يا نفسُ عَسَى أَنْ يبعثَ (صلاح الدين)
 فى هذا العصر ، وأن يجعل فى (السلوم) السلامة كما جعل فى (المنصورة)
 النصر !

(١) إشارة إلى الحملة الإيطالية الألمانية على مصر



— ٤ —

سار (موكب الرؤية) ^(١) من (مركز البندر) في صفيين طويلين من الجنود المشاة تتقدمهم فرقة الموسيقى في شتى آلاتها وشاراتها ، وتتلوهم طوائف الصوفية في مختلف هيئاتها وإشاراتهما ، وعشاق شهر رمضان محتشدون على جوانب الطرق وفي طنوف المنازل يحتلون الموكب المهيب ووجوههم يشرق فيها السرور كأنما يستقبلون وافداً من الملاء الأعلى سيغمروهم بالسرور ويطهرهم بالنور ويزكيهم بالبركة . فلما أتم الموكب خطاه الوئيدة الموزونة تفرق ، واجتمع الناس على شاطئ النيل يرتقبون بشرى المحكمة الشرعية بطلعة الهلال الوليد ! ولشهر رمضان في رأى الريفين هلال غير أهلة الشهور ، يولد من نور الجنة ، ثم يدرج في رياض الشفق دروج الطفل المدلل الموموق ، حتى إذا أبدر واستحار شبابه تردد كل يوم بين المشرق والمغرب في موكب ذاكر من كرام الملائكة ، يختلط فيه تسبيح القائمين بذكر الصائمين ، ويمتزج به سليل النور بسليل الطين ؛ وتلك هي الأيام المباركة التي تتصل فيها السماء بالأرض من كل سنة

وهلال شهر رمضان في لغة الريفين هو رمضان نفسه . لذلك يتخيلونه رجلاً له حياته وعمره وأجله . فإذا لم يبق منه إلا ربعة الأخير تمثلوه في محفته السماوية محتضراً يعالج غصص الموت بين أناشيد الحور وصلوات الملائكة ، فيندبونه في البيوت والمساجد ، ويرثونه على السطوح والمآذن ، ويبكونه يوم الجمعة اليتيمة أحر بكاء !

قصفت المدافع المصرية في كل محافظة وفي كل مديرية في لحظة واحدة

(١) - رؤية هلال شهر رمضان ، ولها احتفال تقليدى معروف

وعلى فترات محددة ، فافتقر البشر على الشفاه . وجرت التهنئات على الألسن ، واستولى على المنصورة شعور نقي هادئ خاشع لا يصدر عنه إلا السكيم الطيب والعمل الصالح . وشهر رمضان يرجع المسلم الصادق نقياً كقطرة المزن ، طاهراً كقطرة الوليد ، لا ينغمس في منكر ، ولا يخف إلى شر ، ولا يلغو في حديث ، ولا يبغى في خصومة . ومن ذلك كان كل حي سعيداً في رمضان ، ما عدا الرومي والشیطان !

كان في كل طلقة من طلقات المدفع المبشر تنبيه إلى فضيلة من فضائل الصوم . فالؤمن حين دوى في سمعه صوت البارود تيقظت في نفسه نوازع الخير ففكر في توثيق ما وهن بين القلب والدين ، وتقريب ما بعد بين الغنى والمسكين ، وتأليف ما نفر من القلوب المطمئنة ، ووصل ما انقطع من الأرحام الشابكة . ولكنه وأسفا لم ير في هذا العام المآذن تتلأأ في أجيادها قلائد النور ، ولا فوانيس الأطفال تخفق شموعها في الشوارع والدور ، فتذكر أن هناك على سواحل البحر الأبيض وشواطئ بحر المانش مدافع غير هذه المدافع ، تنطلق لتطفي كل نور ، وتظلم كل قلب ، وتخرّب كل عامر ، وتقتل كل حي ، وتقطع كل سبب ، وتغشى أجواء السماء بدخان من البوار والدمار لا يقوم تحته قائم ولا ينسم فيه حي !

ليت الذي حوّل لوثر هتلر ، ومسوخ في هتلر الإنسانية نازية ، جعل في كل ركن من هذا الجحيم الأوربي رمضان بحكمته وطبيعته وعقيدته ! إذن لكان كل مدفع للسلام ، وكل مصنع للخير ، وكل مخترع للحياة ، وكل مؤد للناس ! « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولكن لا يزولون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم . وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة

والناس أجمعين ! »

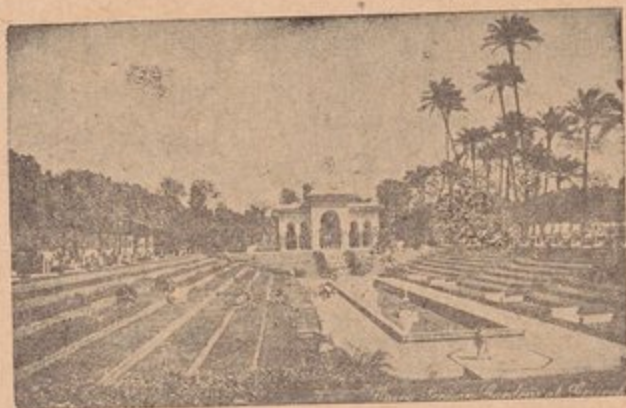
إن الفرق بين مدافع رمضان ومدافع هتلر ، كالفرق بين القرآن و (كفاحي)^(١) . كتاب الله دستور الخالق لجميع خلقه ، فهو خير مطلق وأمن شامل ، وكتاب هتلر نزع من الشيطان للألمان ، فهو شر محض وفزع دائم . فأننا حين أسمع مدافع شهر رمضان في الغروب أو في السحر ، أعتقد أن جياعاً سينالون القوت ، وضللاً سيجدون المثوى ، وجوارح ستكف عن اجتراح الإثم ، ونفوساً ستتراض على مكاره الفضيلة ، وأممًا في جميع بقاع الأرض سيغمرهم الشعور السامي الجميل . بأنهم يسرون إلى غاية الوجود قافلة واحدة ، ممتزجة الروح متحدة العقيدة متفقة الفكرة متشابهة النظام متماثلة المعيشة

وأنا حين أتصور مدافع هتلر أعتقد أن كتائب من الشباب الغريز قد صهرتهم النار فهم حم على وجه الماء ، أو مزقتهم الشظايا فهم مرقق على أديم الثرى ؛ وأن آلافاً من الدور الأنيسة قد نبتت مراقدها فهي حبوس ، وخذت مواقدها فهي رموس ، ثم دكتها القنابل فهي أنقاض على أشلاء ، أو أحرقتها الصواعق فهي غسيلين على فحم ؛ وأن ملايين من الأطفال قد حرموا عطف الأب وحنان الأم ، فهم يعانون في مطارح الغربة غصص الحرمان ومرارة اليتيم ؛ وأن ألوفاً من الأيامي والشكالي أصبحن بغير عائل ولا مأوى ولا أمل ، فهن يمشين في ثيابهن السود بين الأطلال والخرائب كأنهن الأطياف الحزينة تجوس في الليل خلال المقابر ؛ وأن ملايين من العمال والصناع أدركهم التعطل وقعد بهم الكساد فظلوا يكابدون حسرة الحاجة

(١) كتاب ألفه هتلر ذكر فيه خطته وسياسته

في أنفسهم ولوعة الهم في أهلهم ، وباتوا يضطربون بين البؤس واليأس اضطراب
القنيص لا يجدون مخلصاً للحياة ولا للموت

إن الحرب في تاريخ الديمقراطية الإسلامية لم توقد نارها إلا دعاء إلى
سبيل الله ، أو ابتغاء لخير الناس ، أو ذيادة عن سلامة الوطن ؛ أما أن تنهب
الممالك لأنك تريد أن تأكل ، وتسحق الشعوب لأنك تريد أن تنتقم ،
وتخضع الدول لأنك تريد أن تسود ، فذلك ماضي البربرية الحمراء ، وحاضر
الطفيان الأسود !



في مخبأ الفيشاوى

[٢٨ أكتوبر سنة ١٩٤٠]

جاست أنا وصديقي شاعر الجندول في قهوة «الفيشاوى» عشية يوم الأحد الماضي نتجسسى أقذاح الشاى العنبرى الهنىء ، بعد إفطار من طهُور رمضان الدسم المرءى ؛ وكان الظلام قد هب يتموج لطيفاً بين المصابيح الزرق كأنه ظلال الأجنحة الخفاقة فى جو بنفسجى قائم ؛ والحركات الهامدة والأصوات الخاشعة قد أخذت تتخلص رويداً رويداً من فترة الصيام وسكرة الطعام ، فهى تنتعش فى البيوت ، وتنتشر فى الشوارع ، ويقبل الناس على المقاهى فيلقون ثقل بطونهم على مقاعدها ليعالجوها بالأفاويه المنبهة والأشربة الهاضمة . وكان صديقي الشاعر قد طفق بعد شايه يكركر فى شيشته الأعجمية وقد انمحنى من خياله السباح جندول البندقية وخمرة الرين وبحيرة كومو ، فلم يعد يشعر إلا بعطر الشرق وسحر الشرق ونور الشرق ، وتراءت له من خلال ما يحلوه الحى (الحسينى) على عينيه من مختلف الأجناس والألوان والصور ، بقايا الملك الإسلامى العظيم ، ودلائل المجد العربى الخالد ، فلم يتمالك أن قال فى لهجة تنم على الأسى والأسف :

— يا ضيعة الشعر ويا ضلة الشاعر إذا لم يُسجّل هذا الملك فى ديوان ،
ويُخلّد هذا المجد فى ملحمة !

وكان شعورى فى تلك اللحظة يجرى مع شعوره من غير تنبيه ولا توجيه ،
فقلت له على الفور :

— لو أن شعراءنا فى الماضى والحاضر قد خلصوا كما خلصت أنت الساعة

من أنانية الفكر وفردية الشعور لوجدوا في حضارتنا الزاخرة وتاريخنا الحافل
أفانين عجيبة من الشعر القصصى توحد شتات الهوى وتكمل نقص الأدب ؛
ولكنهم كانوا وما زالوا ينقلون عن ذاتية غالبية وطبع أثر . فالقصيدة عواطف
الشاعر لا تكاد تخرج عن دوائر نفسه ومدارج حسه ، والأغنية لواعب
المغنى فلا تعبر عن المعانى العامة ولا تهتف بالأمانى المشتركة . ولعل (ملاحك
التائه) يُرسيه القدر الهادى على شطآن الشرق الجميلة فيقبس من شمسها نور إيمانه
وأمانه ، ويأخذ عن إلهامها سحر أوزانه وألحانه !

غصت القهوة على عاداتها في ليالى شهر رمضان بالسامرين من كل لون ومن كل
طبقة ، وكان القمر يضرب بأشعته الباردة الرخية في ضوء المصابيح الداخلية
فيشعشه ويقويه ، والمذياع على جدار القهوة ينقل الأغاني المسنومة في فرقة
وصخب ، والجالسون يتجادلون في السياسة أو يتحدثون فى الأدب ، والنذل
يذهبون ويحيئون وألسنتهم لا تفتر عن ترديد هذه الجمل : « واحد كشرى
مظبوط . . . فلوسك يا محمود . . . أيوه حاضر . . . ولّعه لمن ؟ . . . واحد
ساده ، مستوى زياده . . . »

وعلى حين فجأة سكت المذياع وانطلقت صفارات الإنذار تردد نعيها
المتقطع ، فأطفىء النور ، وأخذت الناس زلزلة من الفزع ، فنهضوا وتجمعوا
ودخل بعضهم فى بعض كما تتداخل خراف القطيع إذا دهمتها العاصفة ؛ ثم
تدافعوا متدافقين فى داخل القهوة وهى قبو مظلم مسلوك تحت بيت ضخم من
البيوت القديمة ؛ وعلى جانبي هذا القبو حجرات ضيقة من غير أبواب للخلو
أو للعب ؛ فدخلت أنا وصديقي إحداها فوجدنا فيها شيخاً هادئاً يكركر ، وشاباً

مضطرباً يثرثر ، وآخرين قد ألجمهم الذعر فهم في وجوم ذاهل . ثم أنصت
الناس ونظروا ، فلم يسمعوا رعداً يقعقع ولم يروا برقاً يلعلع ، قساير عنهم
الخوف ، وتذكروا أن القدر لا مفر منه ، والقضاء لا حيلة فيه ؛ فأخذوا
يتنادرون على الصفارات والغارات ، ويجددون ما أريق من الأكواب وأطفئ
من الشيشات . والمصرى أربط الناس جأشاً في الخطوب متى زایلته بوادر
الجزع ؛ لأن إزعاجه لقضاء الله يكسر حدتها عنه ، وأخذ المكاره بالمزاح
يضعف أثرها فيه ، وهو في ذلك كالإنجليزى ، إلا أن ثبات المصرى يرجع إلى
حرارة يقيمه ، وثبات الإنجليزى يرجع إلى برودة طبعه : هذا يبلد ثم يجلد ،
وذاك يتفرق ثم يتماسك .

ليت الذى صبغ وجوه المصاييح باللون الأزرق^(١) استطاع أن يصبغ به وجه
القمر ! لقد كان أجدادنا القرويون يقولون : « لم يبق من ليالى الهناء غير ليالى
البدر » . فهل يصح هذا القول إذا قلناه اليوم ؟ إن بزوغ القمر أمسى نذيراً
بالغارة ، ودليلاً للجارة إلى قتل الجارة . فمن يزعم الآن أن الليل لا يزال لباساً ،
وأن الناس لا يزالون ناساً ، فقد جهل أن العالم الحاضر يسوسه الشياطين ، فهو
يرتكس ليستقط ، وينتكس ليموت !

قال لى صاحبي وقد أعلنت الصفارة بصوتها المتصل زوال الغارة الأولى :
قم بنا نتلمس الطريق إلى مكان آخر نتنفس فيه من كربة الحر والحرب
فقلت له وأنا أحبسه على كرسيه : هنا يا صديقي نجباً هيأته لنا وقاية الله ؛
فإذا تركناه وأدركتنا غارة أخرى فأين نختبئ ؟

(١) صبغت المصاييح العامة باللون الأزرق في زمن الحرب تسمية للطائرات المغيرة

ليس في القاهرة ولا في غير القاهرة مخبأ حصين يعرفه الجالس في بيته أو السائر في طريقه . ولا أدري أى ضرب من ضروب الغفلة أطبق على مصلحة الوقاية المدنية فلم تقم بإنشاء الخبائي الصالحة على وضعها الصحيح ! هل أخذوا على الدهر عهداً بالأمان ، أم حسبوا أن بضعة أخايد في أمكنة متباعدة مجهولة تعصم سكان القاهرة وهم في المنازل أو في الطرق من شظايا القنابل ؟

ليس من صالح الرأي يا صديقي أن تجهز قصور السراة و د ر الحكومة بالخبائي المسلحة المريحة ؛ ثم يقال للشعب المسكين تبرع بالقروش لنشق لك لحدوداً في ظاهرها الحمام المنقض ، وفي باطنها الزحام المهلك !

فقال لي الشاعر وهو يتمكن في مجلسه : إن سياسة الملاح التائه لا تزال هي سياسة الحكومة في كل أمر . فاسأل الله وحده أن يجعل لهذه الأمة مرفأً في كل عاصفة وملجأً من كل غارة !



أمة الوحد تتحد

[١١ نوفمبر سنة ١٩٤٠]

قالت الأهرام في عدد يوم الجمعة الماضي : « إن هناك بحثاً يدور الآن في بعض الدوائر العربية حول تكوين حلف عربي يواجه به العرب الظروف الحاضرة التي يجتازها العالم اليوم . والمفهوم أنه إذا انتهى هذا البحث التمهيدى فستدعى الحكومة المصرية رسمياً إلى الاشتراك فيه . أما الدول التي يشملها هذا الحلف فهي : مصر وسورية وفلسطين والعراق والحجاز . وقد يتسع نطاقه فيشمل إيران وأفغانستان »

هذا التفكير على أى شكل كان يدل على تيقظ الروح الهاجد في الجسم العربي ، ويدشر بتجمع القوى الشتيتة في أعضائه ، ويطمئن قلوب الأحرار الأبرار الذين تتفارطهم الموم^(١) على مستقبل العرب والإسلام والشرق . وكان من أعجب العجب أن يرى العالم العربي الخطوب تتوالب على جوانبه ، والنوازل تتفاقم في أحشائه ، ثم تظل كل دولة من دوله سادرة في مشاعب هواها تتلهى بالنظر الغرير إلى حركات زعمائها وهم يتصارعون على المناصب ويتنازعون على الحكم ، كأن السلامة والسلام أمران يجريان من حياتها مجرى الأمور الطبيعية كالنوم واللذة والضحك ، فهي لا تشغل بهما البال ولا تدبر عليهما الفكر !

ولقد قلنا منذ عام حين تحلبت أشداق النازية على حدود الدول الصغيرة :

(١) تفارطه الموم أصابته في الفرط أى الحين ، وقيل تسابقت إليه

إن الدويلات الضعيفة كان لها فيما مضى من الزمن السعيد حارس من سلطان الدين وحكم القانون وعرف السياسة ؛ فكانت تعيش في ظلال الخلق الإنساني العام حرة آمنة ، لا تجد من جاراتها الكبرى إلا ما يجده الصغير من عطف الكبير ، والفقير من عون الغنى ؛ فلما كفر النازيون والفاشيون بشرائع الله وقوانين الناس أخذوا العالم بسياسة السمك ، ففسد النظام واختل التوازن ، واضطربت الحياة ، وذل الحق ، وأفلس المنطق . فليس لها اليوم من عاصم إلا أن تنضوى إلى الديمقراطية التي تجاهد في سبيل السلام والحرية والمدنية بجانب جهادها في سبيل نفسها ؛ حتى إذا انتصرت على هذا الطغيان المسلح الكافر نظرت هي في يومها وفي غدها ، فتعالج ضعفها بما تعالج به الطبيعة ضعف النمل والنحل والقروء ، وهو التجمع والتعاون ، فيكون بين البلاد المتجاورة كشعوب الإسلام الأربعة عشر شبه ما بين الولايات الأمريكية الثماني والأربعين : من اتحاد السياسة الخارجية ، والدفاع العام ، والدستور المشرع ، والرئيس الحاكم . وإذن لا يبقى على الأرض أمة صغيرة يقوم على استعمارها النزاع ويميل من جراها ميزان السلامة

إن من يستمع إلى الإذاعة العربية من بلاد الحور يرتعد فرقا من هذا الإخلاص الإيطالي للإسلام وذلك العطف الألماني على العرب . ومن شقاء العقل أن نحمله على أن يسيغ هذه الدعاية الغريبة التي اتخذت وأسفاها ألسنتها من بعض العرب الذين فتنهم المال الغرور لتقول : إن فيالق (الدتشي) وكتائب (الفوهرر)^(١) لم تحشد في صحراء مصر وجبال البلقان إلا لتنقذ العرب والمسلمين من

(١) الدتشي لقب موسوليني ، والفوهرر لقب هتلر

عذاب الديمقراطية البريطانية !

ليت شعري من الذى حملهم هذه الرسالة وأوجب عليهم هذه التضحية ؟
 لسنا إخوتهم فى الجنس ولا فى العقيدة ولا فى المنفعة حتى يكون لما يبذلون
 فى سبيلنا من الأموال والأنفس مسوغ . ولسنا من السذاجة والغفلة بمكان
 القطيع الذى حالف الذئب الجائع الطامع على الكلب الحارس الأمين . إنما
 نحن شعب مختار حكم العالم فى ماضيه ، وتمرس بالشدائد فى حاضره ؛ فله من
 بصيرته الموروثة نفاذ إلى صميم الخديعة ، ومن تجاربه الأليمة سداد فى مزالق الفتنة ؛
 فلا نجعل أننا نحن الغنيمة التى يحتربون عليها ، والطعمة التى يختصمون فيها ؛
 وكلما أرسلوا الأمواج من مذابيح (بارى) و (برلين) تحمل إلينا منهم الشوق المبرج
 والحذب الشديد ، تضامنا من الفرع ليتقى بعضنا ببعض سهام كيوييد^(١) الأثيرة !
 هذا التضام هو التكتل الذى يصير إلى الوحدة . والوحدة التى يقتضيها
 الدفاع عن النفس ويدعو إليها الخوف ، أوثق وأصدق من الوحدة التى يوجبها
 النزوع إلى الأناس ويبعث عليها الأمن

لقد كان العرب والمسلمون فيما غبر متواكلين متخاذلين ، لأنهم كانوا وهم
 على هذه الحال يستطيعون فى حمى الديمقراطية السمجة أن يعيشوا بوجه من
 الوجوه ؛ ولكن ماذا عساه يصنعون وهذه الدكتاتورية الباغية تزحف
 شعبتها إلى الشرق عن طريقين مختلفين : شعبة تبغى استغلال البلاد لأنها
 بطبيعة أرضها فقيرة^(٢) ، وشعبة تريد استعباد الناس ، لأنها بطبيعة عنصرها على
 زعمها سيدة^(٣) . وإذا دهمك من اليمين ومن الشمال الجائع السلاب والمتكبر

(١) كيوييد أو كوييدون : إله الحب عند الرومان

(٢) أريد إيطاليا

(٣) أريد ألمانيا

الغلاب فقدت وجودك المادى والأدبى بين السلب والغلب ! ثم لا تدرى أى
شئ تكون بعد ذلك !

فاتحاد الأمم العربية أمام هذا الخطر الهاجم ضرورة خلقتها غريزة حب
الحياة . وفى اعتقادى أن الأمر فى هذا الاتحاد لن يقف عند مناقشة الفكرة
ومواضعه الرأى ؛ ولكنه سيتعداهما إلى إمضاء العزيمة وإنجاز العمل . ذلك
لأن كل أمة من هذه الأمم تشعر فى وسط هذه الكوارث الداجية بما تشعر به
الشاة الشاردة عن القطيع . وإن أسهل على الطبيعة أن تعيد اتحاداً ألفه الله
من صلة الدم ونسب الروح ، من أن تبتدىء اتحاداً ألفه الشيطان من النازية
والفاشية والوثنية ؛ فإن هذه النحل المجرمة أضداد تنسجم فى الباطل
وتتنافر فى الحق ، ولا بد أن يدركها داء البغى فتخر ضارعة صريعة أمام قوى
الخير والعدل ولو بعد حين !



انجلترا هي المثل

[٢٥ نوفمبر سنة ١٩٤٠]

قال شوقي : « وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت » ... فقال تشرشل : صدق ،
وانجلترا هي المثل ! وكأنه حين قال : « فإن هم ذهبوا أخلاقهم ذهبوا » قال
بيتان : صدق ، وفرنسا هي المثل !

ولكن الذى يضع القاعدة بالقول لا يستوى هو ومن يطبقها بالفعل .
وشتان من يطبقها على وجه السلب ، وبين من يطبقها على وجه الإيجاب !
إن تحريك اللسان فى الفم أسهل على المرء من تقليب اليد فى العمل . وإن
رجل التجربة والخبرة ، أصاح للحياة من رجل النظر والفكرة . وإن تنشئة
الفرد على حب الفضيلة أدخل فى إمكان المربي من بناء الأمة على أساس
الخلق ... ذلك لأن تهذيب النفس عمل البيئة والقذوة والعادة ، وتهذيب
الجنس أثر الانتخاب الطبيعى والدهر الطويل . ومن الكثير الغالب أن تجد
واحداً يصلح فيه كل غريزة ، ولكن من القليل النادر أن تجد شعباً يصلح
فيه كل واحد . ولعلك لا تجد فى عمر الإنسانية شعباً سلم جمعه بسلامة آحاده
غير الشعب العربى فى الماضى والشعب الإنجليزى فى الحاضر . ومرجع ذلك
فما نظن إلى انعزال العرب فى الصحراء ، وانعزال الإنجليز فى البحر . والعزلة
فى مثل هذه الحال تنفى خبث الاختلاط عن مزايا العنصر الأصيلة فتنتزع
وتخلص كما ينتزع الدر اليتيم فى قاع البحر ، ويخلص الحجر الكريم فى جوف
الأرض . فلما خرج العرب للفتح ، ثم خرج الإنجليز للاستعمار ، ضيع بنو

الصحراء خصيصة لهم لأنهم انما عوا في الشعوب الأخرى بالمصاهرة ، وحفظ
 بنو الماء مزيتهم لأنهم انقبضوا عن الناس وترفعوا عن الأجناس فظلوا في عزلة
 كان الناس يقولون إن إنجلترا أدركتها أعراض الهرم من دوام النعيم
 وطول السلامة ، ويعجبون مع ذلك أن تملك سدس العالم وتستمكن فيه ،
 والإنجليز في كل أرض قلة ، ووسائلهم في تملق القلوب ومداهنة النفوس
 قاصرة ، والتمويه والخداع والاستغلال والمصادفة والحظ عوامل قد تساعد على
 الغلب ، ولكن فعلها لا يجوز على كل الناس ولا يدوم على طول الزمن .
 فلم يبق إلا أن يكون في هذا الشعب العجيب سر من أسرار الطبيعة تنبجس
 عنه حياته الدفاقة الخلاقة كما تنبجس الحيوانات الدنيوية بمظاهرها وآثارها
 عن الروح المجهول

فلما أخذت العالم هذه الرجفة النازية ووقعت إنجلترا بقوتها وسطوتها
 وثروتها ووجودها في سكير الحنة ، استعلن في حلك الخطوب ذلك السر فإذا هو
 الخلق ، ولا شيء غير الخلق . ولم تسفر الأيام عن أصدق من هذا المثل الإنجليزي
 الحاضر لقدرة الخلق العظيم على حيطة الدولة ووقاية الأمة وخلق المعجزة التي
 تحيل القنوط أملاً والضعف قوة

كانت أوروبا في العام المنصرم من طول ما هوّلت عليها الهتلرية الباغية
 قد وقفت صفوفاً متلاصقة متلاحقة من الشباب والحديد والنار ترابط على الحدود
 لشياطين الصليب الأعقف^(١)؛ وكانت إنجلترا من وراء البحر تمدّها بالمال والرجال
 والأسلحة لا تدخر لجزرها شيئاً منها ، ولا تكاد تُخَطِر على بالها أن العدو سيجد
 من بين هذه الصفوف المرصوفة ثغرة يقهجمها ليرميها عنها . ولكن هتلر هجم

(١) الصليب الأعقف : رمز ألمانيا النازية

على أخلاق أوربا قبل أن يهجم على جيوشها ؛ فهتك أستار الدول بالجواسيس ،
وبلبل عقائد الناس بالدعاية ، وشرى ضمائر الساسة بالمنى ، وبث في دخيلة كل
أمة دعاة الهزيمة وسماصرة النفاق يزيفون الوطنية في كل نفس ، ويميتون الحمية
في كل رأس ، حتى تركوا القوم تماثيل من غير خلق ولا روح ؛ ثم أرسلوا
على هياكلهم النخرة الجوفاء الدبابات كما ترسل على هشيم الحنطة آلة الحصاد .
فلم تك إلا أيام تضيق عن فناء القطيع بالوباء السريع ، حتى استكان الضعيف ،
واستخذى القوى ، وانبسط ظلام النازية على ممالك كانت بالأمس مسارح
للسلطان والمجد ، فأصبحت اليوم سجوناً للأحياء وقبوراً للموتى ، ووقفت انجلترا
وحدها أمام أوربا الضارعة المصروعة ، وقد فرغ لها الطاغيتان وسلطان عليهما
في الغرب والشرق وفي الجو والبحر كل ما ادخره وأرصداه من آلات الدمار
والبوار في بضعة سنين

كانت خطتها في الدفاع قائمة في أكثر ميادين البر على عاتق فرنسا ؛ فلما
وهى هذا العائق وانحل سقطت هذه الخطة على خلاء . فكان على انجلترا بعد
نكبة جيشها في الشمال وانهيار حليفها المفاجئ أن تجدد العدة وتسد الخلل
وتدفع الموت الهاجم على أرضيها وبنيها من الجهات الأربع ؛ وكل ذلك كان
يقتضي أن يكون لها في كل أرض جيش ، وفي كل بحر أسطول ، وفي كل
سماة أسراب . فلو أنها استجابت لهذه الجدود العوثر ونكلت نكول فرنسا
لما خالف ذلك منطق الحوادث

ولكن هنا ظهرت المعجزة ، وما المعجزة إلا خلق هذا الشعب المختار !
تجرد هذا الشعب عن فرديته ، ونزل عن حرите وثروته ، وجعل ملكه وجهده
وروحه في يد تشرشل ينفقها حيث يشاء وكيف يشاء ؛ وانكب هو على العمل

الدائب ليل نهار ، لا تعوّقه الأخطار ولا تضعضعه السكوارث ، حتى رأيناه
 في أقل من خمسة أشهر يفسد على الفوهسر خطة الغزو ، ويفوّت على الدتشي
 فرصة الهجوم ، ويشد على أنفاس أوربا بالحصر ، ويلجئ الطغاة العتاة إلى
 استجداء المعونة من الأقل ، وابتغاء النصرة من الأذل ! ذلك ولم نسمع خلال
 هذا الصراع الجبار وذلك الخطر الموءس أن جندياً عبث ، أو قائداً خان ،
 أو وزيراً غش ، أو حزباً نفس على حزب ما نسميه نحن نعمة الحكم
 إن الله أمدّ الإنجليز بجيوش لا تقهر من الصدق والصبر والثقة بالنفس
 والإيمان بالله والحرية والديمقراطية والإمبراطورية

فيا ليتنا حين حالفناهم على السياسة والدفاع ، حالفناهم كذلك على الآداب
 والخلق ! لقد كنا بأخلاق القرآن قدوة للأقوياء ، فأصبحنا وأسفاه بضلالات
 الأذهان عبرة للضعفاء !



الأخلاق وهذه الحرب

[٩ ديسمبر سنة ١٩٤٠]

جلست ساعة إلى المذيع أقلب مفاتيحه على أفواه المذيعين المختلفين في أقطار أوروبا المجنونة ، نخيل إلى أنى انتقلت إلى عالم آخر من خلق الشيطان تقطعت بينه وبين خلق الله وشائج الآدمية ؛ فلا الأيدي تستند في أفعالها إلى العدل ، ولا الألسن تعتمد في أقوالها على الحق ، ولا النيات تتجه في غاياتها إلى الخير ؛ وإنما هو زياط وعياط^(١) من الأضاليل السود والأراجيف الحمق والأفاعيل النُكْر يحملها الأثير إلى النفوس الآمنة الرخوة فترتاع ، وإلى القلوب المؤمنة الساذجة فتشك ، وإلى العقول الراجحة الوزينة فتدهش

رباه ! ماذا جرى لأوروبا العاملة العاملة المتمدنة حتى انقلب كل كلامها كذباً لا يستحى ، وكل سياستها خداعاً لا يستتر ، وكل قاتلها تدميراً غاشماً أهوج لا يفرق بين المحارب والمسلم ، ولا بين الشاكي والأعزل ، ولا بين الرجل والطفل ، ولا بين الحصن والكنيسة !؟

كانت الحرب في العصور الخوالى نظاماً من البطولة الإنسانية له سننه وآدابه وعرفه : لا يقاتل القوى من ضعف أو قل ، ولا ينازل الحكى من هان أو ذل ، ولا يطعن الفارس خصمه طعنة الغدر ، ولا يعطى المتعهد من ذمته عهداً إلا جعل من ورائه دمه وماله . ثم دخلت الحروب في سلطان الدين فنظمها بقيوده وحدوده تنظيمه للشر الذى لا بد منه ، حتى غدت سلاحاً من أسلحة

(١) الزياط : اختلاف الأصوات . والعياط : الجلبة والصياح

الحق يظهر بها على الباطل . ثم انشعب من نظامها المذهب أنظمة أخرى كالفروسية والفتوة والرابطة والكشف وما يدخل في بابها مما يقوم على المروءة والشهامة والشجاعة والإيثار والوفاء والعفة . وجرت المدنية الحديثة في تنظيم الحرب على سنن الدين والخلق ، فكفكت طغيانها بالقوانين ، وفلتت عدوانها بالعهود ، ووقفتها لدى الحدود التي رسمتها الطبيعة للدفاع المشروع والجهاد المقدس

وفي الوقت الذي طمحت فيه الإنسانية الأوربية إلى قطع أسباب الحرب بالمجالس التحكيمية والمحاكم الدولية والعصبة الأمم ، انبثت من ركنين متجاورين من أركان التمدن الحديث مسيخان دجالان فاستوحيا الشيطان دينين جديدين يجعلان الآخرة للدنيا ، والأمة للفرد ، والعقل للهوى ، والعلم للشر ، والحضارة للدمار ، والحياة للموت . ثم خرجت هاتان النحلستان من الكهوف والمواخير وانتشرت في أجواء برلين وروما انتشار الظلام المضل والغاز الخانق ، فعميت عيون كانت ترى ، وغبيت قلوب كانت تفقه ، ورمت النازية والفاشية جوانب الأرض وخوافق السماء بالموت الوحشي في شتى أشكاله وأهواله ، حتى أصبح أكثر أوربا الجميلة خليطاً من الأنقاض والأشلاء ، ومزيجاً من الدموع والدماء . وأشد ما أصاب العالم من هذه الحرب الغشوم ضياع ما ورثته المدنية من حر الحلال وكريم الأخلاق ، فإنها القبس الإلهي في الإنسان تصدر عنه الألفة والثقة والاطمئنان فيكون لكل كلام معناه ولكل عقد أثره . ومن المستطاع تجديد ما دُكَّ من البيوت وأغرق من السفن ، وتعويض ما أزهق من الأنفس وأنفق من الأموال ؛ ولكن تجديد ما انهار من البناء الأخلاقي وهو عمل الأديان المختلفة والحضارات المتعاقبة على كر الدهور أمر لا تتعلق به طاقة الخلق

افتح المذباغ على أبواق الدعايات الأوربية واصبر نفسك على مكاره
 الفجور قليلاً تسمع الأعاجيب من فحش الكذب وسوء البغى : هذا يتبجح
 بما أحرق وأغرق ، وذلك يتمدح بما راع وأجاع ، وذلك يفيش بما أسر وقتل ؛
 وكل أمة إنما تبدأ الكلام وتختمه بلعن أختها ورميها بما تبرأ هي منه من التزيد
 والافتراء والخور والدس واستغلال الضعف في الشعوب الصغيرة . وكل شيء
 تسمعه من المذباغ إلا الصدق والحق والرحمة . ومن كلال الحس وبلادة الضمير
 أن يصك المذيع مسمعيك بأخبار الدمار والبوار في كل أمة وفي كل مدينة
 وفي كل أسرة وفي كل نفس ، ثم يرسل إليك في خلال ذلك أفاكيه
 الغناء وأفانين الموسيقى ؛ كأنما فناء الشباب وثكل الوالدين وحرمان اليتامى
 وشقاء الأيامي وخراب الأرض أصبحت من توافه الأمور التي لا تنبه الوجدان
 ولا تمس القلب !

من كان يصدق قبل انهيار الأخلاق في الأمم الدكتاتورية أن روسيا
 تحارب بولونيا وفنلندة ، وألمانيا تهاجم بلجيكا وهولندة ، وإيطاليا تغزو ألبانيا
 واليونان ، وكل أمة من هذه الأمم الثلاث تستطيع أن تحشد من الجنود
 ما يزيد على عدد السكان في كل فريستين من فرائسها الست !

إن الدكتاتورية تدير هذه الحرب على غير قانون ولا خُلق . ومن الصعب
 على العقل السليم أن يفرض القانون والخلق فيما يعقب هذه الحرب من سلم ويقوم
 عليها من نظام . وإذا كانت الأخطاء لا يتألف من مجموعها صواب ، والآثام
 لا تنشأ من جملتها براءة ، والأباطيل لا ينتج من تعددها حق ، فإن نزو النازية

وفياش^(١) الفاشية لا يمكن أن يؤديا إلى عدل شامل وسلام دائم . ولا يزال في الديمقراطية المجاهدة رجاء الحق المضاع والخلق الصريع ، لأن السلطان القائم على دستور الحق ، يساعدك على الانتصاف لنفسك منه بمنطق الحق . والنصر مكفول للديمقراطية لا ريب فيه ، فإن الديمقراطية هي الصحة التي انتهى إليها جسم الإنسانية العليل ؛ أما الطغيان والبربرية فهما نكسة المرض ؛ والنكسة خلل عارض لا يلبث بحسن علاج الطبيب وصدق إيمان المريض أن يزول !

(١) النزو : الوثوب وفياش : كثرة الوعيد في القتال من غير فعل



خواطر مريض

[٢٠ يناير سنة ١٩٤١]

عقدني « الروماتزم » شهراً بالسريـر لا أتورك ولا أتحرك . وكانت دنياي في هذه الفترة الفاترة قد انحصرت في غرفة المرض كما تنحصر دنيا الطائر السباح في القفص ، أو حياة المخاطر الطامح في السجن . فالنشاط الحيوي الجياش بالعمل والأمل ينقلب في المريض والسجين نوعاً من الهدوء الفلسفي الصوفي ، يرد كل ثورة إلى السكون ، ويروض كل رغبة على الرضى ، ويزيل عن البصر والقلب غشوات الباطل ، فيرى المرء كل شيء على طبيعته ، ويدرك كل معنى على حقيقته

أين القفص الضيق الحاصر من جو السماء يسبح فيه الطائر ملء جناحيه ، فيرى في كل دوحة عشاً لحبه ، وفي كل روضة مسرحاً لغنائه ؟ ولكن البلبل الأسير يعرف بعد قليل كيف يطوى جناحيه على الصبر ، ويختصر سماءه وهواءه وأرضه وروضه في هذه الأسلاك المعدنية الباردة يغرد بينها ويثب فوقها ويستقبل الصباح بمرح النشوان ، والمساء بهدوء الخلى

وأين السجن الموحش المظلم من رقعة الأرض يضرب فيها المغامر طليق العنان حر الإرادة ، يفترس مع القوة ، ويختلس مع الضعف ، ويجمع فيشع ، ويطمع فيهتك ؛ ولكن أشعب السجين يعرف كيف يرد طماحه ، فيرى في جدران السجن حدود مطامعه وغاية دنياه ، فيسخر من كيد المنافسة وبغى الخصومة ، ويخطو بأنفاسه الرخية إلى أجله وهو زهيد العين مطمئن الجوانح

كذلك أنا : وجدتني بعد معركة رابحة على أمر من أمور الدنيا دارت
ثلاثة أشهر بين العجز والفقر يقودها الحق الهيوب في صف ، وبين القدرة والغنى
يؤيدها الباطل الجريء في صف آخر . وجدتني بعد هذا الجهاد المجهود على سريري
كما يكون الميت في نعشه ! غير أن الميت فقد الحس والوعى فلا يتألم ولا يتكلم ؛
أما أنا فكنت قوى الشعور بالألم ، شديد الرغبة في الكلام ، أبصر في كل
صباح حواجب الشمس تنفذ إلى من خلال الزجاج رخية لينة ، فتغمرني
بالدفء ، وتُشيع في سر الحياة ، وتُسكت عني صوت المرض ؛ ثم تتركني
لتعطي الدنيا الكبيرة ، ما أعطته دنياي الصغيرة ، وأظن أنا محدود الآمال
مردود المطامع لا يصلني بحياة الناس غير طُنفٍ مقابل تتمثل عليه طول النهار
صباحة الشباب في أفواف الربيع . والشباب الجميل لا يعنيه إلا أن يُعجب
ويجذب ويلذ

تلك هي حياتنا الدنيا ! أراها من وراء المرض على لونها الأصيل ووضعها
الحق : ظاهرة متغيرة من ظواهر الطبيعة المتجددة ، مثلها في الإنسان كمثلاها
في الحيوان ، تعيش بالغذاء إلى أمد مأمود ، وتبقى بحفظ النوع إلى أبد محدود .
ولو لم يتدخل الإنسان بعقله وعلمه في نظم الطبيعة لجري تيار الحياة دفاقاً مستقيماً
في مجراه المرسوم المحتوم كما يجري في النبات والحشى والحيوان الآبد . ولكن
آدم جعله الله خليفة في الأرض فلا بد أن يكون كل ما فيها خاضعاً لتدبيره
مسخرأً بأمره . وكان أمره وتدبيره على الرغم من اعتماده فيهما على دين الله
وفلسفة العقل لا يخلصان من سلطان الهوى وطغيان الغريزة ؛ ومن أجل ذلك
كانت حياة الإنسان وحدها عرضة للتعقد والارتباك والتناقض

ومن أعجب أمور الإنسان أنه هو وحده الذي فطن عن طريق العيان والبرهان

أن حياته على هذا الكوكب الفانى موقوتة ؛ ومع ذلك كان هو وحده الذى استعمر هذه الأرض على أنه باق وهى خالدة ؛ فهو يكدح حتى ما يعرف طعم الراحة ، ويجمع حتى ما يدرى معنى الإنفاق ، ويسلب أخاه أو وديده حق الحياة ونعمة السلام ليزيد فى ماله الضخم قطعة ، أو يضم إلى أرضه العريضة رقعة . وقد سول له غروره أن يتبجح بأنه سخر الطبيعة لخدمته ، وذلل قواها لمشيئته . والحق الذى طمسته الكبرياء فى ذهنه أن نوعه هو الوحيد فى أنواع الحيوان الذى استخدمته الطبيعة ليعمرها بعمله ، وينظمها بعلمه ، ويزخرها بفضله ، ويهيئ لها أسباب الازدهار والاستمرار والنمو بما يتكرر من وسائل ، ويسن من نظم ، ويؤثل من مال ، ويدخر من رزق

والطبيعة كما تستخدم الإنسان فى البناء لاطراد العمران ، تستخدمه فى الهدم لحفظ التوازن ، فهي تستعين بحروبه الطاحنة كما تستعين بالبركان والفيضانات والموتان على قطع الفاسد ، وحذف الزائد ، وتجديد البالى ، وتعديل القوى ، وكفكفة الباطل

هؤلاء الذين يجمعون ما لا ينفقون ، ويبنون ما لا يسكنون ، ويدخرون ما لا يأكلون ؛ وأولئك الذين زعموا لقومهم سيادة العالم ، وأجازوا لأنفسهم قتل الشعوب ، ووقفوا على شهواتهم طيبات الأرض ، قد استقلتهم إرادة الطبيعة القهارة التى لا تعرف اليوم ولا المكان ولا الفرد ، وإنما تعمل للأبد والسكون والجنس

الغذاء والماء والهواء والمأوى وصلات الجنس هى النعم المبدولة لكل حى بحكم وجوده ، فلو كان مما ينفع الطبيعة ويصلح الأرض سلامُ الناس وهدوء العيش لألهمتهم القناعة وعودتهم الرضى وجنبتهم الأثرة ، ولكن فوضى

الطبيعة هي نظامها المطرد ، وفسادها الظاهر هو صلاحها المضمّر . والفرد هو
 الأضحية المحتومة لبقاء الجنس ، والحاضر هو القنطرة المهدومة لعبور المستقبل !
 في المرض يزداد يقين المرء بأن الدنيا زائلة ، فهو يأسى على ما جنى ، ويندم
 على ما جمع ؛ ولكنه حين يصح تمتد آماله وتتشعب مطامعه ويعود عبداً للطبيعة
 يعمل لأنها تريد ، وينفذ لأنها تحكم ! فليت شعري إذا عقل كل الناس فعمل
 كل امرئ ما يلزم ، وقنع بما يقوت ، وكف عما لا يحل ، فماذا يشتغل قضاة
 المحاكم وقواد الجيوش وصناع الأسلحة ورؤساء الأحزاب ؟

أوشكت يدي من برّح الألم أن تتقف ! فعسى الله أحكم الحاكمين أن يبتلى
 الدكتاتورين الكبير والصغير بروما تزم العقل والقلب فتقف رحي الحرب وتغلق
 أبواب جهنم !

الشمس تجمع هلاهل نورها على المنازل العالية لتهرب من رؤية الأكداس
 المكدسة من جثث الإنسان على عُدّوقى البحر الأبيض ؛ وفتاة الظنّف الحسنة
 تلم غسيلها المنشر لتغلق عليها الباب من البرد القارس . وليل (طوبة) الطويل
 يقترب بأوصابه رويداً من المريض المسكين ! فاللهم حنانيك ورحمك !



بين اللاتينية والجرمانية

[٢٤ فبراير سنة ١٩٤١]

كان بعض المولعين بتصنيف الناس من علماء الأجناس يقولون إن الله اصطفى الآريين على الساميين بمواهب العقل الأصيل فآتاهم الحكمة ؛ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي العلم والحكم وهيء بفطرته لملك الأرض وتمدين العالم . واستغل المستعمرون هذه الفكرة فسرقوا بها ملك العرب ، ونسوا أن العرب وهم ساميون ، كانوا خلفاء الله ووراث المعرفة في الدنيا . واستغلها النازيون آخر الأمر فسرقوا بها مال اليهود ، ونسوا أن اليهود وهم ساميون ، كانوا الرأس الخلاق واليد المصرفة في ألمانيا

ولعل هؤلاء المصنفين خلق الله يشغلون بالهم اليوم بما يتجلى من الفروق بين اللاتينية والجرمانية وهما شعبتان من الآرية ، ليعلموا أن من عوامل البيئة والتربية وطريقة العيش ما لا يقل أثراً في اختلاف العقل وتغير الخلق عن عوامل الجنس والوراثة . ولئن كان في فكرة الآرية والسامية أكثر الكذب الذى يسنده الغرض ، فإن في فكرة اللاتينية والجرمانية أكثر الصدق الذى يؤيده الواقع . وإذا كان الغربيون قد انتفعوا بفكرتهم في أن يسودوا ، فإننا حريون أن ننتفع بفكرتنا في أن نتحرر .

لأمرٍ ما تنهار اللاتينية وتماسك الجرمانية وقد مسهما من هذه الحرب الطحون عذاب لا يختلف !

هنا الديمقراطية الواحدة تتمثل في دولة جرمانية هي إنجلترا ، ودولة لاتينية هي فرنسا . وهناك الدكتاتورية الباغية تتمثل في دولة من الدول الجرمانية هي ألمانيا ، ودولة من الدول اللاتينية هي إيطاليا . فما هو إلا أن امتحنت الحرب بنارها معدن الفريقين حتى ذابت فرنسا هنا وتفككت إيطاليا هناك ، وظلت الأمتان الجرمانيتان ثابتتين ، تتصارعان بعقريات الذهن ، ومبتكرات العلم ، ومهلكات المادة ، والعالم كله يشهد هذا الصراع العنيف الخفيف وهو من هوله الهائل لا يتقارُّ ولا يتما لك . وسيكون النصر ولا ريب للفريق الذي يحالفه الحق والصدق والصبر ؛ ويومئذ تنقسم الجرمانية كذلك إلى سكسونية تعتمد على قوة الخلق ، وتوتونية تعتمد على سعة الحيلة

ليت شعري من أين أُتيت اللاتينية حتى انخرعت فما تقوم ، وانماعت فما تناسك ؟ لم تُتوت يا زعماء الشرق إلا من جهة خصائصها التي تبججت بها حيناً من الدهر ، وهي الإفراط في الأدب والفن والكلام ، حتى غلب فيها النظر على العمل ، والحفظ على التفكير ، والخيال على الواقع ، وقاعات التمثيل على أندية الرياضة ، فمن المعقول ألا يقام لها وزن مع الجرمانية التي كان من أظهر خصائصها الممتازة أن ألَّفت ثقافتها وحضارتها من عناصر معلومة المقادير مضبوطة النِّسب ، من كل ما يتصل بالمادة والأدب ، ريدخل في غذاء الجسم والروح ، فلا يطغى معنى على معنى ، ولا يجور شيء على شيء . ثم هي لا تفهم الفرد إلا بالأمة ، ولا العلم إلا بالتطبيق ، ولا العمل إلا بالتجويد ، ولا رياضة العقل إلا برياضة البدن ، ولا غاية الآخرة إلا بطريق الدنيا . وكل ما يصدر عن الجرمانية من نتاج الفكر واليد موسوم بسمات القوة والدقة والجد

ماذا عسي أن نصنع يا زعماء الشرق العربي وهذه اللاتينية المتخلفة العجفاء قد غلبت علينا لوجودنا على البحر الأبيض المتوسط ، واتصالنا بشعوبها المختلفة في العمل والتجارة ، واعتمادنا على رسلها الدينيين في التربية والتعليم ، فأخذنا من أهلها حب الكلام وشهوة الجدل . فقادتنا كتاب ومحامون ، وجيشنا هتاف ومتظاهرون ، وعدتنا أحزاب وصحف ! وإذا لم يكن زعيمنا من صاغة الكلام وراضة المنابر انصرفت عنه الأسماع ونبت عليه النفوس ولو كان ملء سكوته العمل المثمر !

من صفات اللاتينية فينا أننا لا نزال نتعلم بالحفظ ، ونتقدم بالحجابه ، ونعمل بالواسطة ، ونقنع بالشكل ، فلا يهمننا من النظام إلا أن يبقى مظهره وإن ذهب جوهره

ومن مظاهر اللاتينية فينا أن ضعف إيماننا بالمثل الأعلى والخير الأعم . فالأمة معناها : أنا أكون ، والوطنية مغزاها : أنا أعيش . فإذا تناقضت منفعة الفرد ومنفعة الأمة ، وتعارضت رغبة النفس وإرادة الوطن ، وقع الضمير الاجتماعي في غشية ثقيلة لا يبالي المرء فيها أن يخون أو يسف أو يسقط

ومن بلايا اللاتينية فينا ، أننا نسرف في الوعود ، ونزيد في الحديث ، ونداجي في النصيحة ، ونكابر في الحق ، ونجاحش في النقاش ، ونركن إلى شعبذة الحظ ، ونستكين إلى معايشة القدر ، ونستأمن إلى مخادعة السلامة

فإذا شئنا أن نتقى العواقب المحتمومة لهذه التربية الفاشلة ، فلنطهر قلوبنا من رواسبها المتراكمة ، ولنهيء نفوسنا لحياة جديدة تنكشف عنها هذه القيامة القائمة . فإن مما لا شك فيه أن الحياة الحاضرة بمذاهبها ونظمها

تنصهر الآن فى نار هذه الحرب لتصوغها يد الخالق المصور صياغة أخرى
تتفق مع تقدم الإنسانية فى سبيل الخير المحض والسكالم المطاق . ومتى
خلصت العقول من الهوى ، وبرئت النفوس من الأثرة ، وطهرت القلوب من
الحقد ، عاد الناس إلى شريعة الحق الخالد فى الشرق والغرب ، ويألف
الأحمر والأسود ، ونطمع الأمم والشعوب أن يعيشوا فى عالم من الإخاء والرخاء
جديد ، وهل ذلك على الله بعيد !



يومان من أيام الرسول

[٣ مارس سنة ١٩٤١]

يومان من أيام الرسول تضمنا سر النبوة كما تتضمن النواة سر النخلة ،
ولخصا تاريخ الإنسانية كما يلخص الجنين تاريخ الإنسان . ذاك يومه الخائف
المجهود وقد خرج مهاجراً إلى المدينة ، ويومه الآمن المشهود وقد رجع ظافراً
إلى مكة !

كان يومه الأول خاتمة لثلاثة عشر عاماً من الحن الشداد والآلام الفواتن ،
تظاهرت على الإيمان والصبر حتى قال الرسول وهو يلوذ بحائط من حوائط
ثقيف : اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ...
وكان يومه الآخر فاتحة لثلاثة عشر قرناً من النصر المؤزر والفتح المبين ،
خنس فيه الشرك واستخذت الجهالة وذلت قريش حتى قال الرسول وهو واقف
بباب الكعبة : لا إله إلا الله ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ،
وهزم الأحزاب وحده !

وإذا كان للرسول في تاريخ الإسلام يومان لا تزال العقول تقع منهما
كل يوم على سر ، فإن مصدر هذه الأسرار معجزتان لله لا تزال الأنفهام تكشف
فيهما كل حين عن آية : معجزة الرسول في خلقه ، ومعجزة القرآن في بيانه .
وقد انكسر القرن الرابع عشر على هاتين المعجزتين والأذهان البصيرة الموالية
والمعادية تدرس آثارهما وتستبطن أسرارهما ، فما بلغت من ذلك كنهها ولا غاية
كان محمد في يوميه العظيمين مثل الإنسانية الأعلى : حمل رسالة الله وحمل

أبو جهل رسالة الشيطان ، واستحالت مكة المشركة جبلاً من السعير سد عليه طريق الدعوة ، فكان يخطو في طرقها وشعابها على أرض تمور بالفتون وتتسعر بالعذاب . وتفجرت عليه من كل مكان سفاهة أبي لهب بالأذى والهون والمعاناة والمقاطعة . وكل قريش كانت يومئذ أبا لهب إلا من حفظ الله . وافتن شياطين مكة في أذى الرسول ، فعذبوه في نفسه وفي قومه وفي أصحابه ليحملوه على ترك هذا الأمر فما استكان ولا لان ولا تردد . وحينئذ تدخل الشيطان بنفسه في (الندوة) فقرر القتل ، وتدخل الله برؤحه في (الغار) فقدر النجاة . وانطلق محمد وصاحبه ودليله وخادمه على عيون المشركين في الطريق الموحش الوعر إلى يثرب . وكأن هؤلاء الناجين بدين الله لم يكادوا يدخلون في غيب الطريق حتى انشقت الصحراء عنهم فإذا هم عشرة آلاف من جند الله يجرون الحديد على النياق الكوم والخيول الجرد ، والرسول في كتيبته الخضراء من المهاجرين والأنصار لا يظهر منهم وراء الدروع غير الحدق ، وإذا أبو سفيان زعيم قريش قد اشترى حياته بإسلامه ، ثم وقف مع العباس بمضيق الوادي يشهد جيش الفتح وهو زاحف إلى مكة ويقول : هذا والله ما لا طاقة لنا به ! لقد أصبح ملك ابن أخيك يا أبا الفضل عظيماً . فقال له العباس : يا أبا سفيان ، إنها النبوة ! ثم نجا أبو سفيان إلى مكة فصاح بأعلى صوته : يا معشر قريش ، لقد أتاكم محمد بما لا قبل لكم به ، فساموا تساموا

* * *

أهذه مكة الطاغية التي لبثت إحدى وعشرين سنة تغور بالسفه والحقن والإفك والضعينة والمعارضة على محمد ودين محمد وأصحاب محمد ؟ ما بالها خشعت خشوع الجناح الكسير ، وسكنت سكون المقبرة المهجورة ؟ لقد باتت ليلة من

ليالى يناير الباردة الطويلة وقلبها يرجف من هول الغد وانتقام الفاتح . ثم أصبحت مكة الساهدة فإذا أهلها بين قابع فى منزله ، أو عاُذ بيت الله ، أو لائذ بدار أبى سفيان ؛ وإذا فرق الجيش الحمذى الظافر تنحدر من (ذى طوى) مكبرة مهلة إلى جهات مكة الأربع . فلما ارفضت المخاوف عن الناس خرج القائد الأعظم من قبته المضروبة بأعلى مكة يؤم المسجد الحرام ، وعلى جوانب الطرقات ألسنة المسلمين تذكر ، ومن وواء الحجرات عيون المشركين تنظر ، والرسول الكريم قد طأطأ رأسه على رحله حتى كاد أن يمس قادمته ؛ فلم يجر على باله أن هذه الأرض التى طورد فيها وسال دمه عليها قد أصبحت ملكه ، وأن هؤلاء الناس الذين قذفوه بالأحجار ورموه بالأقذار قد أصبحوا أسراه ، حتى دخل المسجد فطاف ؛ ثم أقبل على الأرسقراطية الصاغرة وهى تتطامن من القلق والفرق وقال لأهلها الذين أفرطوا عليه فى البذاء والإيذاء : يا معشر قريش ، اذهبوا فأتتم الطلقاء !

كان يوم الهجرة وما قبله تشريعاً من الله فى حياة الرسول للفرد المستضعف إذا بغى على حقه الباطل ، وطغى على دينه الكفر ، ليعرف كيف يصبر ويصابر ، وكيف يجاهد ويهاجر ، حتى يبلغ بحقه ودينه دار الأمان فيقوى ويعز . وكان يوم الفتح وما بعده تشريعاً من الله على لسان الرسون ويده للأمة إذا اتسعت رقعتها واجتمعت كلمتها واستحصدت قواها لتعلم كيف تنسى الضغائن إذا ظفرت ، وتحتقر الصغائر إذا كبرت ، ثم لا تحارب إلا فى الله ولا تسالم إلا فى الحق .

كانت المدينة وحدها بعد يوم الهجرة مجالاً لسياسة الرسول يضم شتات

الجماعة ، ويوثق عقدة الدين ، ويجمع أهبة الحرب ؛ فألف بين الأوس والخزرج ،
وآخى بين المهاجرين والأنصار ، وعاهد بين المسلمين واليهود ، حتى تكتَّب
فى يثرب جيش الله الذى فتح الدنيا بفتح مكة !

ثم كان العالم كله بعد يوم الفتح مشرقاً لوى الله وهذى الرسول ، فظهره
الإسلام من الأرستقراطية بالمساواة ، ومن الرأسمالية بالزكاة ؛ ثم علم الناس حكم
الشورى ، وألزمهم قضاء العدل ، حتى أخرجهم من الوطنية المحدودة إلى
الإنسانية المطلقة

ذانك يومان من أيام الرسول تضمنا أسرار نفسه ولخصاً أطوار حياته .
فهل تطمعون يا من تظنون أن الزعامة تجوز من غير صدق ، والجهاد يفوز من
غير صبر ، والحياة تصلح من غير إيمان ، أن تكون لكم فى رسول الله
أسوة حسنة ؟



العصبية في أوقات الموروث

[١٧ مارس سنة ١٩٤١]

كنا ستة في أحد مجالس القطار السريع الصاعد إلى القاهرة . وكانت غريبة الغرائب أن يجتمع في هذا المجلس الطائر القلق ثلاثة ينتسبون إلى ثلاثة أحزاب سياسية ، واثان ينتمي كل منهما إلى فرقة دينية ؛ وكنت أنا وحدي المستقل فيما بيني وبين الله والناس . وكان مما ليس بُد منه أن يتراعى بهم الحديث إلى ذكر ما يشغل الخواطر من شؤون الدين والسياسة والحرب ؛ فكان لكل منهم هوى لا يتابعه هوى ، ورأى لا يشايه رأى ، حتى انقلب الحديث اللطيف جدلاً صخباً لا حيلة فيه إلا للإشارة العنيفة والحنجرة الصلبة

حينئذ ابتلعت لساني ودخلت في نفسي وتركت هذه الأفواه يقذف بعضها في وجه بعض ، ثم أخذت أفكر في هذه الصدعات التي مزقت الكلمة وفرقت الدين ، وجعلت بعضنا يبني وبعضنا يهدم ، وأحدنا يسوق والآخر يعوق ، فلم أجد لها مصدراً تشتق منه إلا العصبية !

تصورت في هذا المجتمع الصغير ، صورة ذلك المجتمع الكبير ، فعجبت كيف يتسنى في هذا الجمع الشتيت أن يتفاهم لسان ولسان ، ويتآلف قلب وقلب ، وتعاون يد ويد ، حتى يجوز أن تنتج من اتحاده قوة ، وأن تنشأ من آحاده أمة !

الفرد في نفسه هو كل الناس ، وشيئته في عينه هو كل شيء ، ورأيه في عقله هو كل رأى . وذلك داء موروث من أدواء العصبية التي أفسدت كيان

العرب وأوهنت بناء الإسلام بما يلازمها من حب الإستئثار وشهوة الرياسة
لم تمت العصبية من حياة العرب إلا فترة موقوتة بحياة الرسول . فلما
استعز الله برسوله انبعثت في (السقيفة) بين المهاجرين والأنصار تقول : منا أمير
ومنكم أمير . ثم سلطها الشيطان على الخلافة ، فانقسم العرب إلى هاشمية
وأُموية ، ثم إلى قيسية ويمينية ، ثم إلى علوية وعباسية ، ثم إلى عريية
وشعوبية . وأغراها بالدين فانشعب المسلمون إلى اثنتين وسبعين فرقة ، تتقاطع
بالضلال ، وتتعادى في الباطل ، وتزعم كل فرقة أنها هي وحدها الناجية !
ولو كان تحزب العرب وتشعب المسلمين لمبادئ تصلح الدنيا وتعز الدين ،
لكان ذلك أخلق بمن جعلهم الله أمة وسطاً ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ،
ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويسارعون في الخيرات ؛ ولكنهم
اختلفوا تعصباً للنفس أو الجنس أو الرأي ، وتوسلاً لبلوغ الحكم أو خضوع
الخصم أو فتون العامة

وحب الرياسة وشهوة الحكم هما شر أدواء العصبية وبالأشدّها استفحالا
في الشرق القديم والحديث . ولو ذهبت تستقرى عوامل الشقاق والانشقاق
بين العرب في جميع الأطوار والأقطار لما عدوت ما رُكب في طباعنا من حب
الظهور ، ورغبة التفرد ، ورذيلة الحسد

إذا جاء الأمة خير لا نصيب لي منه ولا سلطان لي عليه ، جماعته شرّاً
يستعان على درئه ببدع تتسم بسمة الدين ، وخدع تستر بستار الوطن . وإذا
نهضت في الأمة جماعة للإصلاح ولم يكن لي موضع الرياسة فيها ولا مرجع
الفائدة منها ، أشعت حولها الريب ، وأطرت فوقها الظنون ، حتى يستوحش
من ناحيتها الناس فتفشل

تنازع زعيمان عظيمان من زعمائنا على الرياسة أو ما يشبه الرياسة ، فقسما الأمة بنزاعهما قسمين متعارضين لكل منهما آراؤه وحججه ومبرراته ؛ وكاد يدخل على الناس أن هناك مذهبين في سياسة البلد : أحدهما يصل والآخر ينقطع ! وكان مبعث الأمر كله عصبية الرأي وشهوة الرياسة

واجتمع أعضاء مجلس الإدارة لجمعية المعلمين في بغداد يوم أنشئت لينتخبوا من بينهم رئيساً فلم يفز أحد من الثلاثة عشر عضواً إلا بصوت واحد ! ذلك لأن كل عضو منهم أراد أن يكون الرئيس فانتخب نفسه !

أحزابنا السياسية وجماعاتنا الدينية أسماء وأزياء لا تجدد وراءها مسمى يتميز من مسمى ، ولا جسماً يختلف عن جسم . وإن طالب الثقافة ليستطيع أن يذكر لك في يسر ووضوح جملة الفروق في الوسائل والغايات بين اليسوعية والماسونية والشيوعية والنازية والفاشية ، أو بين حزب وحزب من الأحزاب البرلمانية في جميع الدول الدستورية ؛ ولكنى أتحدى أستاذ الجامعة أن يذكر لي فرقاً أو شبه فرق بين الوفديين والسعديين والدستوريين والمستقلين والوطنيين والشعبيين والاتحاديين ؛ أو بين الشبان المسلمين ، والإخوان المسلمين ، والأخوة الإسلامية ، والهداية الإسلامية ، وشباب الإسلام ، ومجد الإسلام ، ومن لا علم لي به من هذه الجماعات . فليت شعري ماذا يمنعهم أن يضموا الشتات ويوحدوا الكلمة ويحددوا الغاية ما داموا إخوة في الوطن أو في الله ؟ ولكن العصبية هي داؤنا الموروث لا يحسمه عنا إلا ظبابه الذي عاجله به الله ورسوله : محو الفروق بالحرية والشورى ، وشفاء الصدور بالأخوة

والمساواة ، ورفع النفوس بالإيثار والتضحية !

ويومئذ يحيا فينا الضمير الاجتماعي فنعمل مرءوسين ومجهولين ، أصدق
 مما كنا نعمل رؤساء ونابهين ، فنخلص للأمة كما نخلص للأسرة ، ونحب لعامة
 الناس كما نحب لخاصة النفس ، ونخرج من حدود العصبية إلى آفاق الوطنية ،
 سالكين سبيل القانون إلى غاية الحق ، كما يسلك هذا القطار صراطه المستقيم
 إلى غايته المعلومة !



هل انبعث الأزهر

[٢٨ أبريل سنة ١٩٤١]

يغلب في ظني أن الأزهر انبعث فسمع فرأى ففكر ! انبعث كما ينبعث
الربيع في أوائل مارس ، تراه سليلب الشجر جديب الأرض مقررور النسيم ،
ولكن أسرار الحياة تكون — من وراء بصرك — قد انبثت في الثرى ،
وجرت في الأصول ، وسرت في الجو ، فلا تلبث أن تستعلن فتسعد الأرواح
بجميل الزهر ، وتمتع الأجسام بطيب الثمر

هؤلاء هم شباب الأزهر الجديد أساتذة وطلاباً ، قد جلت نفوسهم ثقافة
العصر ، وصقلتها مدنية الحاضر ، فأشرقت عليها أشعة النبوة ساطعة بعد ما حجبتها
الغمام والقتام حجباً بعد حجب . فهم وحدهم الذين يدركون مسافة البعد بين روح
الأزهر وحياة الناس ؛ وهم وحدهم الذين يملكون تزييف الأباطيل المقدسة التي
اتسمت بسمة الحق ، وتسمت باسم الدين ؛ ولكنهم حول هذا الهيكل البالي
أشبهه بالأغصان الخليفة التي تنبت نضيرة على أصل الدوحة العتيقة ، ثم لا يتسنى لها
الغلظ والسموق لأن الجذور الشيخة لا تمدّها بالغذاء كله ، والفروع الميتة
لا تمكّنها من الهواء كله . فإذا لم يرسل الله رسول الإصلاح ويؤتته ما آتى
أولى العزم من الرسل ، فيقطع من أعالي هذه الدوحة ما اعوج ، ويجتث من
أسافلها ما ذبل ، ويكشف عن جذعها الواهن ما التف عليه من طفيلي النبت ،
بغى الجفاف على هذه الأفنان النواشى فتذوى في زهرة العمر وبكرة الربيع .

دفعني إلى تعجيل هذه البشرى وتسجيل هذه الظاهرة في هذا الوقت الذي
 شغل الأذهان بوحوش النازية الهاجمة ما قرأته للأستاذ شلتوت اليوم ، وللاستاذة
 المدني والبهي والشرقاوي من قبل ، وما سمعته من صفوة من أولئك الأساتذة
 الأزهريين الشباب ضمهم مجلس من مجالس الرسالة ؛ فلقد كنت - علم الله -
 أدعو إلى إصلاح الأزهر وفي نفسي خابجات من اليأس ؛ لأن أهله الذين وقفوا
 عقولهم عند حد النقل ، وقصروا جهودهم على درس القديم : يشرحونه ، أو
 يحشونه ، أو يقررونه ، أو يختصرونه ، أو ينظمونه ، حتى قرأ في نفوسهم
 أن القديم أفضل من الجديد ، والماضي خير من الحاضر ؛ فالقرن الأول خير من
 الثاني ، والثاني خير من الثالث ، وهلم جرا حتى يجعلوا القرن العشرين شر
 القرون ، وعلماءه أجهل الناس ، فلا يجوز لفهم أن يبتكر ، ولا لعقل أن يعترض ،
 ولا للسلطان أن يقول : إن في الإمكان أبدع ما كان . أولئك لا يستجيبون لدعوة
 الإصلاح ؛ لأن الإصلاح تغيير أو إبداع ؛ وقبول التغيير محال ما لم يتغير ما بالنفس ،
 وإجازة الإبداع باطلة ما لم يتضح معنى البدعة . ومن أجل ذلك كان لكل
 مهدي « عlish » ، ولكل محمد عبده « رفاعي »

أجل ، كان يخالجنى اليأس من نهوض الإصلاح قبل أن أتصل عن طريق
 الرسالة بهذه الطبقة الممتازة من الأساتذة الشباب وتلاميذهم الأنجاء في كليات
 الأزهر الثلاث . فلما عرفتهم وفهمتهم انبثق في صدرى الأمل في أن الأزهر
 سيعود ويقود ، وأن الإسلام سيحكم ويسود . والأمر رهن بدفن الرميم وكسح
 الهشيم وانفساح المجال وتحرر العقلية العامة

أعجبني من الأستاذ شلتوت وأصحابه خلوص الدين في قلوبهم ، ونصوع
 فكرته في عقولهم ، وفهمهم إياه على أنه دين هذا العصر وشرعية هذا الناس ،

فنحن أبصر بموقع الحكمة فيه ، وأجدر باستنباط الرأى منه . والدين كالشمس لا هى تراث ولا هى أثر . وإنما الشمس للحاضر لا للماضى ، وللحى لا للميت ؛ يستفيد منها الفرد بعد الفرد ، والجيل بعد الجيل ؛ ثم يقتضى اختلاف النظر وتقدم العلم أن يختلف فيها العلماء ، وتتعارض فى نظامها الآراء ؛ ولكن رأى فيثاغورس أو بطليموس لا يجوز أن يوازن برأى نيوتن أو هرشل

هذه هى المرونة البصيرة التى توجهها سنة الحياة ولا يكون بدونها إصلاح ولا تطور . ولم يُصب الأزهر بهذا الجمود إلا لأنه فقد هذه المرونة ، فلم يبال بفعل الزمن فى الدنيا وفى الناس . لذلك لم يعلم التاريخ جامعة من جامعات الأرض بقيت فى القرن العشرين على ما كانت عليه فى القرون الوسطى غير الأزهر !

كان الأزهر أسبق الجامعات الباقية فى الدنيا إلى الوجود . أنشئ عام ٩٧٢ م وأنشئت جامعة بولونيا عام ١١٠٠ م ، وجامعة باريس سنة ١١٥٠ م ؛ ثم تتابعت بعدهن الجامعات فى أوربا وأمريكا وكانت كلها تنحى منحى الأزهر فى النظام والمنهاج والطريقة ؛ إلا أنها ساءت الزمان وأطاعت التطور واستجابت لداعى الحاجة ، حتى أصبحت مورداً ومراداً لأسمى ما بلغه العقل الإنسانى من الثقافة والمعرفة . ولبت الأزهر وحده حيث كان ، يمزج كلام السلف ، ويردد لغو الألسن ، ويعمل ضلال الأقلام ، ويصم أذنيه عن أصوات العالم وحركات الفلك ، حتى أصبحت المدارس الأولية أدنى منه إلى طبيعة العصر ، وأفهم منه لمعنى الحياة !

لسنا اليوم بسبيل البحث فى علل هذا الجمود المزمّن المحزن ، فذلك شئ . تقصّل أسبابه بما انتاب المسلمين من ضلال العقيدة وشيوع الجهالة وفساد الحكم .

وبحسبنا أن نسجل نهاية هذا الجود بما بدا على بعض الأساتذة وأكثر
الطلاب من الطموح إلى السبق والنفور من التخلف والزراية على نهج
المعلم وطريقة الكتاب . ومن تفاعل في نفسه القلق والاشمئزاز والسخط
لسوء حال أو فساد أمر ، شق عليه الاطمئنان إليه والاحتفاظ به .
وتغير النفس إيدان بتغير الحال ، والشعور بالنقص أول مراتب
الجمال !



ما خلفته أثينا ورومة

[١٢ مايو سنة ١٩٤١]

أهل رومة الأولون قومٌ بناهم الله بنية وثيقة ، فنشأوا عظامَ التجاليد أشداء العضل أقوياء العصب ، يعطون البهيمية من نفوسهم ، أكثر مما يعطون الإنسانية من قلوبهم . ووثاقة البنية وسورة الهوى تحركان في المرء شهوة الغلب وحب الأثرة ؛ فبغى الرومان على الناس بحدة القلب وبأس الحديد ، فلكوا أم البحر المتوسط ملك الرقيق ، واستعانوا على تدبير هذا الملك العظيم بالسيف واللسان والقانون ، فتهيات لهم بذلك مملكة أصيلة في الحرب والخطابة والتشريع ، وحرمتهم جبلتهم فنون النفس الرفيعة فكانوا في الأدب والفلسفة والفن حميلة على الإغريق . فلما أذن الله لدولتهم أن تدول سلط عليهم الترف والفسوق فتدفقوا في اللهو و(الأرجى)^(١) حتى ترهل من لحومهم ما اكتنز ، وهش من عظامهم ما صلب ، وانسرق من قواهم ما اشتد ، وذهب بذهاب سلطانهم ما شرعوا من قوانين وسنوا من نظم وألقوا من خطب ؛ وأصبحوا لا يد تطول ، ولا لسان يقول ، ولا فكرة تجول ؛ ثم بادوا ولم يتركوا لأخلافهم على تعاقب القرون إلا ما يُعقبه السلطان الزائل من الغرور والتبجح والفيش ، وإلا ما يورثه اللهو الباطل من الغناء والموسيقى والرقص

وأهل أثينا الأقدمون قوم صاغهم الله صيغة حسنة ، فكانوا مثلاً للسكالم الممكن في الإنسان الأعلى . سمت فيهم ملكات العقل والقلب واللسان والجسم

(١) L'orgie موائد كانت حافلة بالطعام والخمر والفجور والرقص تحدت إلى الرومان المترفين من أعياد باكوس إله الخمر

سَمَوًا لَا شَبِيهَ لَهُ فِي شُعُوبِ الْأَرْضِ ، فَأَبْدَعُوا فِي نَوَاحِي الْفِكْرِ وَالشُّعُورِ وَالْبَيَانِ مَا رَأَوْا بِهِ أَنْ يَكُونَ مِنْ صَنْعِ الْإِنْسِ فَنَسَبُوهُ إِلَى أَرْبَابٍ مِنْ خَلْقِ أَنْفُسِهِمْ .
 ثُمَّ تَعَاقَبَتْ عَلَى الْمَدَنِ الْإِغْرِيْقِيَّةِ أَطْوَارُ الْحَيَاةِ الْعَقْلِيَّةِ لِلْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ تَامَةً غَيْرَ مُخَدَّجَةٍ^(١) : فَمِنْ الْغِنَاءِ الْفَرْدِيِّ فِي الْمَعَابِدِ إِلَى التَّمَثِيلِ الْجَمَاعِيِّ فِي الْمَسَارِحِ ، وَمِنْ الْحَيَاةِ الْأَبْوِيَّةِ إِلَى الْحَيَاةِ الْنِيَابِيَّةِ ، وَمِنْ شِعْبَةِ الْكَاهِنِ إِلَى فِلَسْفَةِ أَرِسْطُو . وَلَمْ يَبْدِ فِي سَائِرِ الْأُمَمِ إِلَّا ظَوَاهِرُ لِبَعْضِ هَذِهِ الْأَطْوَارِ تَقَلُّ أَوْ تَكْثُرُ عَلَى قَدَرِ نَصِيْبِهَا مِنْ كَمَالِ الْخَلْقِ ، ثُمَّ تَضَعُفُ أَوْ تَقْوَى عَلَى نِسْبَةِ حَظِّهَا مِنْ مَحَاكَاةِ الْإِغْرِيْقِ .
 فَكَأَنَّمَا هَذِهِ الْبَقْعَةُ وَأَهْلُهَا لَمَّا جَمَعُوا مِنْ شَتَّى الْمَزَايَا صُورَةَ مُصَغَّرَةٍ لِأُمَمِ الْعَالَمِ ، وَنَسْخَةً مُخْتَصِرَةً لِتَارِيخِ الْإِنْسَانِ

فَلَمَّا أَصَابَهُمْ دَاءُ الْأُمَمِ فِي مُلْكِهِمْ فِي مَلَكُوتِ الرُّومَانِ ، وَلَكِنْهُمْ انْبَثَوَا فِي عَقُولِ النَّاسِ وَحَضَارَاتِ الْأُمَمِ وَثَقَافَاتِ الشُّعُوبِ ، فَكَّرَ لَا يَأْفَنُ ، وَفَنَاءٌ لَا يَبْلَى ، وَأَدَبٌ لَا يَقْدُمُ ، وَفِلَسْفَةٌ لَا تَبْطُلُ ، وَنِظَامٌ لَا يَفْسُدُ ، وَعِلْمٌ لَا يَذْهَبُ ؛ فَكَانَ الْفِكْرُ الْيُونَانِيَّ أُسَاسًا قَائِمًا لِكُلِّ حَضَارَةٍ ، وَلِقَاحًا مُثْمِرًا لِكُلِّ ثَقَافَةٍ .
 ذَلِكَ أَثَرُهُ فِي النَّاسِ عَنْ طَرِيقِ الْاِقْتِبَاسِ ؛ أَمَّا أَثَرُهُ فِي أَعْقَابِ بَرْكَلِيْسِ وَالْإِسْكَندَرِ فَعَنْ طَرِيقِ الْوَرَاثَةِ الْمُتَحَدِّرَةِ فِي الدِّمَاءِ حَامِلَةً مَجْدَ السُّلْطَانِ وَالْقَلْبِ ، وَعِظَمَةَ الْفِكْرِ وَالرُّوحِ ، وَعِزَّةَ الْمَلِكِ وَالْقِيَادَةِ ، وَمِزِيَةَ الْإِبْدَاعِ وَالْخَلْقِ ، وَفَضِيلَةَ الْجَمَالِ وَالْحَقِّ ، وَسُمُوَ الْإِيمَانِ وَالْعَقِيدَةِ ؛ فَكَانَ يُونَانُ الْيَوْمِ كَيُونَانِ الْأَمْسِ مِثْلًا مُضْرِبًا فِي مَهَامَةِ النَّفْسِ وَشَجَاعَةِ الْقَلْبِ وَحِمَاةِ الْأَنْفِ وَصَدْقِ الْوَطَنِيَّةِ وَالضَّرْبِ فِي الْأَرْضِ مِنْ أَفْقٍ إِلَى أَفْقٍ

أُولَئِكَ أَعْقَابُ رُومَةٍ يَتِمَثَّلُونَ فِي الطَّاعِيَةِ (مُوسُو) ؛ وَهَؤُلَاءِ أَخْلَافُ أَثِينَا

يتمثلون في الرئيس ماتكساس . هناك الرأس الخواء ، والقلب الهواء ، والصلف البغيض ، والغرور العريض ، واللسان الطائش . وهنا العمل الصامت ، والقول الثابت ، والدماء التي تغور بمزايا الجنس ، والقلوب التي تنبض بحب الوطن . ويشاء الله عزت حكمته أن يخرج العبرة للناس في هذه الكوارث المؤسفة من تراث وتراث وجيل وجيل ، فسلط نُعْرَةً نيرون على أنف الدتشي فوقف على ماسورة مدفع ضخمة ، ثم رفع أنفه إلى السماء ، وبسط يده في الفضاء ، وأرسل أمره الأرعن إلى عديده وحديده أن يحترقا حدود اليونان وهم في إغفاء الفجر ينعمون تحت الكلال بأواخر الأحلام السعيدة . فسالت من ألبانيا فرق الجيش الايطالى بسياراته المصفحة ، ودباباته المسلحة ، وطائراته الموقرة بالقذائف والرصاص ؛ وعلى رأس الطليعة المزهوة قائد جهنم الوجه ، كثيف اللحية ، غليظ الألواح ، يحمل إلى الجيش اليونانى المضطرب المهالع شرط الهدنة وصك الأمان !

يا سخر القدر ممن زعم أنه يصرفه ! ويا عار (سيزار) ممن ادعى أنه يخلفه ! ما باله يرمى فترمييه أبابيل من طيور العذاب ، ويهجم فتصدده حصون من سواعد الشباب ، ويصيح بأبطال الألب ، فلا يجيبه إلا صناديد الألب بالهجوم الجارف والضرب الدراك والقصف المزلزل ، فذوو القمصان السود كالأرانب يتوارون في أخاديد الأرض ، ويلوذون بجلاميد الصخر ؛ فإذا أعجلهم الفرع عن التماس النجاة ألقوا السلاح صاغرين واستأسروا !

حينئذ تصبب الزعيم الشقيم عرقاً لا ندري أمن الكلال هو أم من الخجل ، فأقسم ليحشدن الامبراطورية كلها أمام الجيش اليونانى الصغير الفقير الذى يقاتل الطائرات بالحجارة ، وينازل الدبابات بالسلاح الأبيض ، ويزوده بالميرة

والذخيرة النبء والشيوخ والأيفاع فى شعاف الجبال وبطن الأودبة ، فكانت أفواج الجيش تذوب أمامه ذوبان الشمع ، وأمواج الحديد تتكسر دونه تكسر الهشيم ، والأكياس الحازمون من قواد الفاشية وجنودها يتقهقرون حتى ارتدوا عن اليونان ، وكادوا يجلون عن ألبانيا ، لولا أن استغاث الدتشى بالفوهرر ، فكانت الفاجعة التى لا ينصل عارها من تاريخ الألمان أبد الدهر !

* * *

أرأيت ؟ ! هذه هى الفئة القليلة التى يصيح فى دماؤها وأعصابها تاريخ أثينا بأسره . وتاريخ أثينا ليس كتاريخ روما مسارح دارسة لصراع الثيران ، وآثاراً عافية من مغامرات الفرسان ، وأسفاراً ميتة من شرائع جستينيان ؛ وإنما هو ومضات الضمير التى لا تحبو ، وآيات العقل التى لا تموت وتلك هى الفئة الكثيرة التى تنتفخ بالهواء كالفقاييع ، وتعيش بغير مثل كالجراد ، وتحارب بغير إيمان كالمرتزقة . لذلك تراهم يستأثرون بجانب الهزيمة فى هذه الحرب ، ويؤثرون وسائل الحقارة فى هذه الجريمة . وإذا كان فى انتصار اليونان وانكسار الطليان عبرة ، فهى للعرب الذين يتميزون على الإغريق بوراثة القرآن الخالد الذى لا يتبدل ، واكتساب الإيمان الصادق الذى لا يحول



الأمسك

« إذا كانت الحياة وردة ، فإن الأمل كالمها »



الأمسك

سمعت دانا أجوبيا الوادي عصفيرا
 بفتى في عتقه
 لقد ماتت صفاره في الليل
 وفي البجر قام يتدور بفتى
 فبأيتها النفس المحزنة لا تبكي إذا
 فقدت كل شيء وفالده صباك وكافيك
 الله في السماء ولا في الأرض

أجل يا صديقي (مُسَيِّه): الله في السماء والأمل في الأرض! وبين رَوْح الله

المؤاسى ، ومدد الرجاء الآسى ، تندمل الجفون القريحة ، وتلتئم القلوب الجريحة ،
وتنتعش الجدود العائرة

السكران يموت فرخه فى المساء وفى الصباح يرقص ويصيح ، والشاة
يذبح حملها فى الحظيرة وفى المروج تنغو وتمرح ، والقلب يُقطع من القلب ،
والروح تُنزع من الروح ، ثم يعيش الحب بعد حبيبه ، والوالد بعد ولده ،
كما يعيش النهر الناضب فى ارتقاب الفيضان ، والروض الذابل فى انتظار الربيع !
لله على الناس نعمتان لا يطيب بدونهما العيش ولا يُبلغ إلا عليهما العمر :
النسيان والأمل .

ماذا كان يصنع الآسى بالقلوب الواهة إذا لم يمح النسيان من الذهن صورة
الحبيب الراحل أو الهاجر ؟ تأمل حالك يوم فجعت الموت فى عزيز عليك ، أما كنت
تجد لبيب الحزن متصلاً يوقد صدرك من غير خبؤ ، ويذيب حشاك من غير هدنة ؟
تصور دوام هذه النار على نياط القلب وأعصاب الجسد ، ثم قدر فى نفسك
الحياة على هذه الصورة . على أنها والحمد لله لا تدوم ؛ فإن الجبار الذى سلب
الألم على الروح ، هو الرؤوف الذى سلب الزمن على الألم . فالزمن لا ينفك
يسحب الأيام والليالى على الصور والآثار حتى تنطمس المشابهة ، وتعفو الرسوم ،
ولا يبقى من المفقود إلا صورة لا تنطق ، ولا من الجرح إلا ندبة لا تحس
وما ذا كان يفعل اليأس بالنفوس المكروبة إذا لم يفتح الأمل أمامها فرجة
فى الأفق المطبق وفسحة من الغد المجهول ؟

يا ويلتا للفقير يعتقد أن فقره يدوم بدوام الحياة ، والمريض يرى أن مرضه
ينتهى بانتهاء الأجل ! يا بؤس للحياة إذا لم يقل المأزوم والمحروم والعاجز : إذا
كان فى اليوم قنوط فى الغد رجاء ، وإذا لم تكن لى الأرض فستكون لى السماء !

الى السيدة ليلي

[٩ يونية سنة ١٩٤١]

لم تعدي الصواب يا سيدتي حين قلت في كتابك الرقيق المدرج في مقالك
البليغ : إن لكل من الشباب والشواب معاييب ومطالب قد تعاونت على خلق
مشكلة الزواج ؛ ولكن السبب المباشر والمصدر الأول هو المادة

وتصديقاً لقولك أسوق إليك قصة سمعتها من بطلها الدكتور « م . ش » .
والدكتور « م . ش » يا سيدتي فتى سوى الخلق كامل الثقافة ، يملك البصر
والسمع بروعة منظره وبراعة حديثه . نشأ في بيت من أوساط البيوت ، ولكنه
تعلم في أوربا ، وتقدم في الوظيفة ، فنجا منحى الأوربيين في العيش ، وسمت
سمت الأرستقراطيين في المظهر ؛ فهو يلبس كما يلبسون ، ويجلس حيث
يجلسون ، ويلح بالسرف على مرتبه الكافي حتى يضيق بشهواته فيتمزق عند
منتصف الشهر ، ثم يكون في النصف الآخر حميلة على والديه

حسبك يا سيدتي من وصفه هذا ، فإنني لأخشى أن يكشف فيعرف ؛
ومعرفته تجر إلى معرفة المتانين اللتين ضحى بهما لهواه . وإذا علمت أسرتهما
أنهما ذكرا في موضع العبرة ، كان ذلك أشد على نفوسهما من ألم المصيبة
قال الدكتور ذات مساء بلهجة المقترف المعترف النادم ونحن نتناقل
الحديث عن جنسك الذي لا يفتر عنه الحديث ولا يمل :

« كنت مصروفاً عن الزواج لأنني لم أجد في نفسي حاجة إليه ولا في رأيي
فائدة منه . إن كان يطلب للمتعة الطبيعية فقد يسرتها المرأة الطليقة ؛ وإن

كان يطلب للراحة المنزلية فقد هيأتها الأسرة الشفيقة ؛ وما دام الأُنس بالمرأة والأسرة موفوراً ، فعلام يُحتمل عنت الزوجة وهم الولد وتكاليف البيت ؟
 ولكن سرفى وترفى وقلة مرتبى وضيق ثروة أبى نهتني إلى أن الزواج يطلب
 لأمر ثالث : هو الثروة . فرغبت إلى أمى أن تستعين بالأقارب والصواحب
 والخواطب على أن تجد لى (بغلة العشر) فقلّبن على عيني أشتاتاً من العبقريات
 الحسان يملكن كل شىء إلا ما أريده ، حتى وصلتني إحدى الخاطبات بفتاة قالت
 إنها أكثر مما أطلب . ثم خلى أهلها بينها وبينى ، فتلاقى عيناها ، ثم فكرنا ، ثم
 قلبنا ، فما أنكرت منها خلقاً ، ولا ذمت لها صحبة : ملاحه شرقية تغترق البصر ،
 وثقافة عصرية ترضى العقل ، ورشاقة رياضية تملك النفس ، وشهوة جامحة
 يعيش المترفين تصور لها بالألوان السحرية أى قصر ستسكن ، وأى حلة ستلبس ،
 وأى سيارة ستركب ، وأى حفلة ستقيم ، وأى أسرة ستدير ؛ فرأيت فى رغباتها
 وحياتها صورة رغباتى ونمط حياتى ، كأما خلقها الله رضى لهواى وتحقيقاً
 لمنأى وتماماً انفسى . ثم توثقت بيننا على جلوات الربيع وخلواته عرى الحبّة ،
 فتساقينا كؤوس الهوى فى كل حديقة وعلى كل نهر ، وأخذنا نهدهد حبنا

الوليد على أناشيد الأمل انتظاراً ليومنا الموعود وعيشنا المرتقب !

على أن وحدة الخلق وجمعة الأمل وألفة الهوى لم تنسنى السؤال عن المحبوب
 الأول والمطلوب الأولى وهو المال . ولشد ما كانت خيبتى حين تكشفت لى
 غناها عن دين فادح لا ضمان له ، ورياء فاضح لا حيلة فيه . حينئذ تغير النظر
 وتبدل الرأى واختلف الغرض ، وأصبحت الخطيبة الحبيبة كعشرات الأوانس
 اللائى عقدتُ بهن أسبأبى ، وأذقتهن ضلال نفسى وعبث شبأبى . إذن فما معنى
 أن أجمع بين طمعى وطموحها ، ثم لا أملك لى ولا لها تحقيق أمل ولا قضاء نهمة ؟

مشيت معها مشى الشباب المعروف أعدّها وأمنّاها، والخواطب الموعودات
 يغشين الدور ويقتحمن الخدور باحثات عن الثراء الضخم في أى فتاة كانت ؛
 حتى اهتدين إلى ابنة المرحوم « م . باشا » وكان من الأغنياء المذكورين ،
 فلا مساع للشك في ثروته ، ولا وجه للسؤال عن ملكه . وكان العجب أن
 تظل ابنته مغمورة حتى تكشف عنها الخاطبة ، ولكن أعجب العجب أن
 يشترط أهلها عقد الزواج من غير رؤية ، وتعجيل يوم الزفاف من غير مهلة .
 وكان لا يمناني أن أسأل الخاطبة عن حلية الخطيبة ، فإنها إن تكن جميلة
 ظفرت بالحسنين ، وإن تكن دمية كان لها معى بحكم زواجها بيت ،
 ولى مع غيرها بفضل ثروتها ألف بيت !

وفي الحق أنى تمثلتها حين دخلت بها كومة عالية من اللحم والشحم أضفوا
 عليها أفواف الوثى وشفوف الحرير ، وفي ذروة الكومة نتأ رأس كرأس
 أبى الهول طوقوا أسفله بالذهب ، وتوجوا أعلاه باللؤلؤ . ولا تسل عن الذراعين
 والساقين فإنهن قوائم فيل أو أساطين هيكل ! ولكنها على بدانتها — شهد الله —
 خفيفة الظل عذبة الروح . وحسبى منها ألا تكون هولة^(١) تقضى العين وتؤذى
 النفس في الساعات القليلة التى ألمّ بالبيت فيها

أطلقت يدى فى ثروتها ، على الرغم من معارضة أسرتها ، فعشت عيش
 الأمراء السفهاء ، أنفق باليدين على خليلاقى وندامى وهى تنظر وتغضى ، وتسمع
 وتسكت ، كأنما وازنت بين جماهن وجماها ، وقارنت بين حالى وحالها ، فلم
 يسعها غير الرضا بهذا النصيب . وكنت قد خدعت خطيبتى الأولى عن نفسها
 بقوة النقود ، الوعود فحضعت لى خضوع المنومة . ثم ركض بى فى طريق الغواية

(١) الهولة : ما يخوف به الصبي

فرس الهوى الجموح ، وخلفت فى غبار النسيان حليلة يذيقها فقد زوجها ومالها
فتموت ، وخليلة يدها ضياع أملها وشرفها فتجن !

لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الأبصار . ما كان حديثاً يُفترى ؛ ولكنه
الواقع يا سيدتى يثبت لك أن المال إذا جعل غاية للزواج كان شقاء لمن وجدته
ولمن فقدته على السواء . فهل سمعت حديثاً كهذا الحديث ، أو رأيت خبيثاً
كهذا الخبيث ؟؟



من البكاء الى الضحك

[٧ يولييه سنة ١٩٤١]

لا تزال طوائر المنون تحلق في سماء الإسكندرية فترسل الصواعق والشهب على أهلها الغافين في أكناف الأمان ، فتدك المنازل ، وتطحن الأجساد ، وتخسف الطرق ، وتقذف الرعب في قلوب الناجين فيخرجون من دورهم هائمين على وجوههم ، في مدارج السهول ومسالك الحقول وأزقة القرى ؛ حتى إذا أرفض عنهم الهلع واستقر بهم الفرار ، نظروا في أنفسهم ، فإذا هم على أرصفة المحطات ، أو على حواشي الطرقات ، أو تحت أفياء الجدر ، في ملابس النوم ، أو في مبادل البيت ، لا يملكون ما يمسك الرمح ولا ما يستر الجسم ؛ ثم نظروا إلى من معهم ، فإذا زوجة تصحب غريباً وهي تظنه بعلمها ، وأم تحمل مخدة وهي تحسبها طفلها ، وولد ينادى أمه فلا يجاب ، ووالد ينشد أسرته فلا يجد . وحينئذ ينبجلي الذهول ، ويتضح الخطب ، وتعيد الذاكرة إلى المشاعر تهاويل المنايا السود في هوادي الليل المقمر ، فيذكرون انقضاض القنابل على المدينة ، وانهيار المنازل على الناس ، فيعاودهم الفرق فيذهلون ، ثم يساورهم القلق فيرحلون ، وهم لا يدرون أين ينزلون ، ولا من أين يأكلون ، والناعمون على سرر الذهب وحشايا الديباج ينظرون إليهم ، كما ينظرون إلى أسرى الطليان في طريقهم إلى المعتقل ، أو يسمعون بهم كما يسمعون بجرحى الألمان في طريقهم إلى الموت !

أربعمائة ألف أو يزيدون أخرجهم القدر القاهر من ديارهم وأموالهم ، ثم تركهم عاجزين في ذمة الوطنية والإنسانية . وإذا علمت أن الوطنية في عُرفنا

لفظ لا يذكر إلا في دعاية لحزب يريد أن يحكم ولنائب يريد أن ينتخب ، وأن الإنسانية في رأينا معنى لا يفهم إلا في عمل تحته شهرة أو وراءه لقب ، أدركت السبب في وقوف بنى قارون من المنكوبين موقف تماثيل المسرح من المأساة ! إذن لم يبق للمهاجرين إلا أكواخ الفقراء ، وعتبات الأولياء ، وهبات الحكومة . فأما مواساة الفقراء لهم حق ، وأما معونة الحكومة إياهم فيقين ، وأما ضيافة الأولياء فبقيت كضيافة الأغنياء موضع الشك !

كتب إلينا مهاجر أديب بطنطا يقول : « أيا سني الأمراء والأغنياء من رزق الله ، فلجأت بعيالي إلى مقام سيدى أحمد البدوى في الغربية ، فلم ألق منه ما لقي اللاجئون إلى مزارع جنا كليس في البحيرة ؛ فهل التوسل بالأولياء عبث ، والالتجاء إليهم في الخطوب باطل ! ... »

أنا يا سيدى المهاجر أعلم الدين ، والحمد لله ، علم الفقيه المجتهد ، ولكنى لا أزعم لنفسى درجة الإفتاء . على أن بين يدى الآن شيئاً يشبه الفتوى صدر عن أحد مفتى الديار المصرية في عهد مضى ، أقدمه إليك لعل فيه بعض الغناء ، في موضوع هذا الاستفتاء !

وقع في نفس المفتى أن شيخ الأزهر إذ ذاك سعى هو وحزبه بين الخديو وبينه حتى أفسدوا حاله عنده ، فاستعدى عليهم سيدى أحمد البدوى بقصيدة رفعها إلى مقصورته الشريفة ، بعد أن قدم لها هذه المقدمة الطريفة . ودونك المقدمة والقصيدة^(١)

« التجاء واستنجاد ، رجل الفتوة طويل النجاد ، وإمام الأولياء ،

وسراج الأصفياء ، الغوث الأوحـد ، سيدى وولى نعمتى البدوى أحمد ، دامت
إمداداته ، وعمت فى الدارين بركاته

آمين آمين لا أرضى بواحدة حتى أضـم إليها ألف آمينا»

أرضيك يا غوث الورى وإمامهم	غـبينة أهل الحق والحق ظاهر
تعدى لئيم القوم واشتد بغيه	وجاء بكل الحقد وهو يجاهر
أتى بالمعاصى مُعلنًا وهو يدعى	مكانة دين قيم ، وهو فاجر
وساعده حزب على شكله سعوا	بكل فساد أوضحته الكبائر
فضّلوا جميعاً عن طريق رشادنا	وأزهرنا منهم غدا وهو صاغر
نجّنا حماكم نرفع الأمر سيدى	ونطلب دين الله والله ناصر
وأتم إمام الأولياء ولا مـرّا	وأنت غياث الملتجى وهو حائر
إذا كان يامولاي أزهر ديننا	تدور عليه فى الضلال الدوائر
فأين يكون الدين يا سيد الورى	وأين يكون العدل والعدل عاطر
فها قد بسطنا بعض شأن يزيد	وثم أمور قد حوتها الضمائر
فنها دخول فى البقا وهداية	لأقوم طرق الله وهى المفاخر
وصحة جسم للذين أحبهم	كذلك لى فى العز والعمر وافر
ونصر على الأعدا وجاه مؤبد	وفوز مبين دائماً يتقـاطر
وتيسير ما أرجوه من كل مطلب	وسكنى جنان الخلد حيث الأكابر
ورؤية خير الخلق جهراً بسرعة	فها قد مضى عمرى وقل التناصر
فقل يا طويل الباع ها قد أجبتكم	لكل الذى ترجون والله جابر

وصل على المختار ربى مسلماً كذا آله ما قام بالذكر ذاكر

كتبه عبد الأحسان الواقف بالباب

الراجى سرعة الجواب :

... ..

مفتى الديار المصرية

فأنت ترى أن فضيلة المفتى غفر الله له لم يقنع باستعداد السيد البدوى (سيد الورى) على خصومه ، وإنما دفعه الطمع فى فضله إلى أن يسأله الهداية وطول العمر وصحة الجسم له ولمن يحب ، والنصر على الأعداء ، والجاه المؤبد ، وتيسير كل مطلب ، ودخول الجنة . ورؤية النبی جهرة . فإذا كان سيدى أجد البدوى قد استطاع أن يستجيب هذه الرغاب ، فليس أسهل عليه من أن يمن عليك برغيف وجلباب . ولكنى أفهم من أسلوب استفتائك أنك ستقول : سبحانك ربى ! هذا شرك عظيم . ولعلك تمنع فى إنكارك فتزعم أن ما أصاب الإسلام من قبح القالة ، وما حل بالمسلمين من سوء الحالة ، إنما يرجع إلى ما ران على القلوب والعقول من أمثال الرسالة العليشية^(١) ، والقصيدة الصدفية . ولكنى أعيذك بالله أن تسرع فى الحكم فتخطىء الصواب . والخير لى ولك أن نعلن سؤالك إلى العلماء وتنتظر الجواب

(١) رسالة ألفها الشيخ محمد عlish المالكى فى تحريم السفر إلى أوروبا وطلب العلم فيها ،

وقد نشرت ملخصة فى الرسالة



من أحاديث القهوة

[١٨ أغسطس سنة ١٩٤١]

— ١ —

المنصورة بلد الطبيعة الساحرة والطبع الشاعر هي الآن مصيف ومهجر هي مصيف ، لأن موقعها على ملتقى النهر الصغير والنهر الكبير جعلها كـرأس البر على ملتقى النيل والبحر ؛ والفرق بينهما أن (رأس البر) رملة من رمال الصحراء ، والمنصورة روضة من رياض الجنة . وهي مهجر ، لأن بعدها عن الأهداف الحربية والثغور البحرية صرف عنها لحظات المغيرين والغير ومن جملة المصطفين بها والمهاجرين إليها تتألف في القهوات والندوات جماعات في الأدب والسياسة والتجارة واللاهو والفضول ترتسم من مجموعها صورة مقاربة لمجتمعنا العام تصلح للتأمل والدرس . ومن جعل الله ديدنه وصف ما يبصر ، وتسجيل ما يسمع ، لا يملك أن يشاهد هذا العالم الصغير دون أن يعرض بعض أحاديثه للبحث ، وبعض حوادثه للنظر

تتفياً القهوة التي نجلس فيها الدوح الباسق والشجر الوريث بين شارع الكرنيش وشاطئ النيل . فهي تنظر عن اليمين فترى في الطريق أخلاطاً من الأجناس أكثرها الإغريق ، وأنماطاً من اللباس أغربها القلانيس ، وصوراً من الحسن أبدعها الأوانس ، وهولاً من القبح أشنعها المتسولون والباعة . وتنظر عن الشمال فترى في النهر زوارق العبور تنساب حابسة في شرعها طلق الهواء ، أو ضاربة بمجاديفها وجه الماء ، وشباك الصيد يطرحها الصيادون

في المكان الضحل فلا تصيب إلا صغار الحصى أو شبار السمك ، وخواطف الطير تحلق فوق الصائد فتخطف ما ثار أو تأخذ ما ترك

يندو إلى هذه القهوة طوائف من الناس ألقت بينهم وحدة الحرفة أو مصافقة المودة أو مبادلة المنفعة : فهنا المعلمون قد تكوفوا^(١) على بعض المناضد القاصية ، يجادلون بالصوت الجهير في الحرب والأخبار ، أو يخوضون في حديث المفتشين والنظار ، ومذباتهم التقليدية تتحرك آلياً في أيديهم فتزود الغبار عن الثياب والذباب عن الأوجه . وهناك التجار يتعاقب على مناضدهم الوسطى سُكول من السماسرة والمنتجين فيقيمون في حدودهم الضيقة سوقاً تصطرع فيها طباع المتسوقين من الإغراء والإباء ، والصخب والغضب ، والمشادة والملاينة ، والمسارة والمسايرة ، ثم ينجلي الأمر عن صفقة من الشعير أو الرز . وهناك في أقصى الشرق مناضد يُسَـطت عليها أغطية من القماش المَقَوَّف وقد أحاط بها عقائل من حسان الروم يفسرهن شباب منهن ، قد أنقذهم من نار الحرب سلام النيل ، وأفرغ عليهم وضاءة النعيم خير مصر ، وضمن لهم عيش الأمان سماحة المصريين ؛ فهم يتساقون أقداح الزبيب ، ويتناقلون أحاديث الأنس ، ويتطارحون أضيائكم الحياة ، كأن شعبهم لم يُذَل ووطنهم لم يُحتل ومملكتهم لم يشرّد !

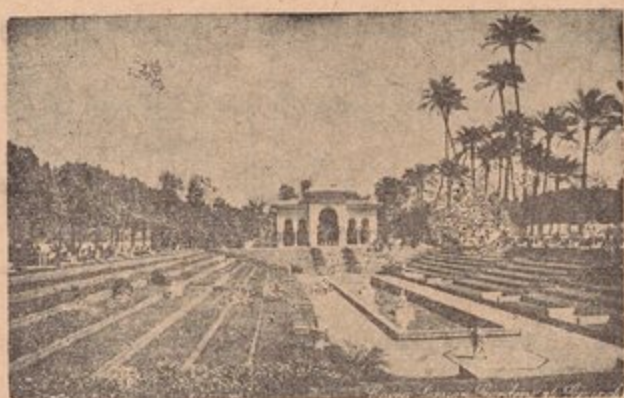
وفي خلال هذه الزُّمر ترى شاعراً وسنان الحركة نشوان الحس يقرأ على ضفحة النهر الوردية أشعار الطبيعة ، أو طارئاً من ضخام القرويين لم يطق صبراً على عبث النسيم فنام على كرسيه أثقل النوم ، وغط في نومه أقبح الغطيط . وعلى حفاقي القهوة ومماشيتها تهافت أفناء من ذباب البشر يقولون إنهم من رعايا وزارة الشؤون الاجتماعية ، فيهم المعتوه الخفيف ، والمريض المقدي ، والشيخ المتهدم ، والشمطاء الخاوية ، والناشي الصرير ، وكلهم يسأل بالحاف ، أو يبيع

بسماجة ، أو يحتال في سخف !

وتحت الدوحة الكبرى وفي مكان لا يكاد يتغير تجلس جماعتنا طرْفُ
النهار وزُفْفاً من الليل . وهذه الجماعة من تأليف الحب وحده . تقارب في أفرادها
الذوق والرأى والهوى فتمكننت بينهم الألفة ، واستكمل بعضهم من بعض
ما نقص من عوامل أنسه ومباهج نفسه . وأحسبني لا أعدو الحق إذا قلت إنها
كثيراً ما تُشقق الحديث في شجون من الأدب والتاريخ ، وفنون من السياسة
والنقد ، وشؤون من التجديد والإصلاح ، إذا هي سجلت في الرسالة علي إحياء
الخطر وإملاء الطبع كانت نوعاً من الإنتاج الأدبي له قيمته وأثره . ولعلني
أستطيع أن أنقل إليك الحين بعد الحين مقطعات من هذه الأحاديث تجد فيها
لوناً طريفاً من ألوان المعرفة

واسطة عقد الجماعة رجلان كلُّ منهما طراز وحده في مناقلة الحديث
ومبادهة الرأى : أحدهما الأستاذ محمد توحيد السلحدار ، والآخر الأستاذ الزناتى .
أما صديقنا السلحدار فكنز مدفون لم يشأ الله أن يُعرف : نفس كريمة لا تخلق
إلا في ملك ، وحس مرهف لا يكون إلا لشاعر ، وذوق سليم لا يوهب
إلا لفن ، ورأى حصيف لا يختمر إلا في حكيم ، وثقافة شاملة لا تجتمع
إلا لعالم ، وخبرة واسعة لا تهياً إلا لأريب . درس الأستاذ توحيد وقرأ ، ثم
رحل وشاهد ، ثم ذاق وجرب ، ثم عايش النبلاء بحكم نشأته ، ولابس الدهاء
بحكم وظيفته ، وأعانه على الإفادة من كل أوائك أسرة غنية ويد سخية ونفس
طلعة . فأنت لا تسكاد تبدأ الحديث أو تلقى السؤال في ناحية من نواحي الأدب
أو الفن أو السياسة أو التاريخ أو الطب أو الطعام أو الشراب أو اللهو إلا بادرك
بقول تظنه لصوابه تفكير يومه ، أو بادرك بجواب تحسبه لسداده اطلاع ساعته .

وأما أخونا الزناتي فحديث حسن المنطق عذب الأسلوب جامع لطائفة مختارة من أخبار العلماء والأدباء ورجال الحكم شهدها بنفسه ، أو سمعها من أبيه ، أو قرأها في مخطوط من نواتره ؛ ومن هذه الأخبار ما لا تجده في كتاب ولا تسمعه من أحد . وللزناتي تطلع الجبرتي وملاحظته ، فهو يستقصى أطراف الخبر ، ويستوعب أحوال الأشخاص ، ثم يخزن ذلك في حافظة واعية ليؤديه متى شاء لا يند منه حرف ولا وصف . ولقد اقترح أحد الأصدقاء على الأستاذ توحيد أن يطرف قراء (الرسالة) بأحاديث « من جانب الذاكرة » ، وعلى الأستاذ الزناتي أن يمتعهم بنواتر « من فيض الحافظة » ؛ فعسى أن ينزل الأستاذان على مقترح الصديق ، وأن يعجلا إلى القراء الظماء بهذا الرحيق !



أصبحنا فإذا النيل الجليل يقبل نقاحاً بالخير فيأحاً بالنعيم ، تتريع^(١) شطآنه
الخضر بالعسجد الذائب ، وتدفق مجاريه الفيح بالكوثر العذب ، وتنفس
أمواجه الصُّهْبُ بالتحيات والبركات على بنيه الخلص الذين خلّقوا من طينه الحر
ومائه الطهور ، وعاشوا على نائله الجم وخصبه الوفور ؛ وكأنا تنفرج كل موجة
عن سؤال من هذه الأسئلة التي اعتاد أن يلقيها كل عام على أهله :

— ماذا صنعتم يا بني بالذهب الذي نثرته على أرضكم في العام الذاهب ؟
هل قسمتموه بينكم على شريعة الله ، وأنفقتموه فيكم على منفعة الوطن ؟ أم هل
بقيتم على طباع الوحوش الأواد ، تتفارسون بالغيلة أو بالحيلة حتى لا تدع
الخالب والمجاريف ، شيئاً للفقر أو للضعيف ؟ ألا تزال الأمة مقسومة إلى باشوات
و (دلاديل) ، والسياسة قائمة على بهلوانات وتمائيل ؟

ألا يزال أربعة الأخماس من أبنائي ، يعيشون مجهودين على فضلات الخمس
من أغنيائي ، وخيري الفياض لم يدع في مصر كلباً جوعان ولا ضفدعاً عطشى ؟
أى شيء صار مائي السماوي الفرات في دمائكم يا ساكني الوادي ؟ أموتاً
وقد أحييت الصحارى ؟ أم ذلاً وقد أعززت الفراعين ؟ أم جهلاً وقد خلقت
الحضارة ؟ إلى متى يا بني تقابلون برّي بالعقوق ووفائي بالغدر ، وتقبلون
من أوليائكم أن يدعوا مائي وثراني يذهبان في عباب البحر كما تذهب النفحة
الرخية في ثورة العاصفة وثراني مكروب وشعبي جائع ؟

ولكن أسئلته الأبوية السنوية تذهب في الهواء كما يذهب فيضه

في البحر ، فلا أذن تعي ، ولا لسان يجيب !

أخذنا مجلسنا المعتاد من القهوة ، وكان الزادون المعتادون قد راعهم ما رأوا من جمال النيل وجلال الفيضان فسكنت ثرثرتهم بعض السكون ، واتجهوا بمشاعرهم إلى النهر الطامى يقابلونه بالهشاشة ويبادلونه التحية . وملكنا نحن أيضاً روعة المنظر فذهلنا ذهول الشاعر المستغرق ؛ وتراءت على مُرهفي الحس منا سماتٌ من جلوة الخطر وطلاقة النفس ؛ وكاد الدهول ينقلب نشوة والحديث يتحول شعراً ، لولا الذباب الذي يقع في الكأس فيكدر الصفو ، أو المتسول الذي يسقط في الحديث فيقطع الأنس ! والمتسولون في المنصورة كالذباب في رأس البر ، لا يدعون للجالس مشغلة إلا بالاستعاذة والطرء . وكان الذي صرفنا عن المنظر الساحر والحديث العذب نوع من هؤلاء المتسولين طريف : رجل كفيف البصر ، وثيق التركيب ، مربوع القامة ؛ على جسمه جلبابٌ محكم التفصيل ، وعلى رأسه عمامة حسنة التكوّر ، وفي يده هراوة صلبة العود ؛ كان يقود نفسه على طوار الشارع وهو يقول بصوت جهير رزين ، ولهجة مترنة أمّرة : « طالب من الله : أفطر ، وأشرب القهوة ، ونصف ريال ، وواحد يلمه لي » !

لم يكد هذا الرجل يُبدى ويعيد ، ويذهب ويحجى ، حتى نهض إليه الجالسون بالقرش بعد القرش حتى أعلنهم أنه استوفى حقه . ثم انصرف عنهم إلى غيرهم دون أن يجود عليهم بما تعود المتسولون أن يسرفوا فيه من مبتذل الدعاء والشكر !

قلت لصاحبي وقد بدا عليه ما بدا على من العجب العاجب ؛ هذا المدسول

واحد من هؤلاء الأوزاع المتبطلين الذين يلحون على الناس بالضراعة والوضاعة ،
ويلح الناس عليهم بالنهر والقهر ؛ فما السر الذى حمل القوم على أن يفردوه
بهذه المعاملة ؟

السر فى رأى هو القوة التى برزت فى هيئته ولهجته . والإنسان منذ كان
يعجب بالقوة ويخضع للقوى بدافع من فطرته ؛ لأن القوة دليل الحياة الصحيحة ،
ووسيلة العيش العزيز ؛ وهى معبودة منذ كانت فى تهاويل الفلك وأفاعيل
الطبيعة وتعاجيب الناس . ولولا سلطانها الفطرى على القلوب لما عبد صنم
ولا قدس طاغية

ربما يتفق لك أن تجادل بعض الناس بالحسنى وتحاجه بالمنطق ، فيركب
هواه ويصر على غيه ؛ فإذا فجأه بالصيحة الغاضبة استكان وسلم . وإنك لتجد
كثيراً من خلق الله يصفقون لهجمات هتلر ، ويصفرون لخطب رزفلت ! وأولئك هم
العامة وأشباههم ممن غلبت على نفوسهم عبودية القوة فأمنوا بالحيوان وكفروا
بالإنسان ، وانقادوا للعاطفة وغفلوا عن المنفعة !

الديمقراطية كما تعلم وليدة المدنية العليا . وما كان لمدنى سليم النفس
والفكر والإرادة أن يعود إلى عيش القطيع فيلقى مقادته إلى رجل مثله يجوز
عليه ما يجوز على البهيم من غلبة الشهوة وظغيان الأثرة . ولكن النفس البشرية
على ما بلغت من المدنية والثقافة لا تزال فى سرائرها بقايا من نوازع القوة
تفسد بها وتصلح . فهى فى السلم الطويلة والرخاء الوارف تناع فلا يمسكها غير
الشدة ؛ وفى الحكم الصارم والسلطان الغشوم تذلل فلا يعزها غير الهوادة . لذلك
كانت الديمقراطية يا صديقى كاللحم : كلما اعتل الجسم واختل نظامه ، كان

أول ما يشير به الطبيب على المريض ترك اللحم . كذلك كلما انحل الشعب واسترخت قواه واضطرب أمره ، كان أول ما يأمر به الزعيم نسخ الديمقراطية . ذلك ما كان في روسيا وإيطاليا وألمانيا وأسبانيا ، ثم كان أخيراً في فرنسا وطن الجمهورية ومعبد الحرية ومعقل الدستور ! كأنما خلق الإنسان آكل عشب فاللحم دخيل على طعامه ، وكأنما فطر على الجبر والإكراه فالحرية غريبة عن نظامه !



حبسنى عن ندامى « الكافورة » عوادٍ من الشغل والمرض فلم أعد إلى
الأنس بهم إلا بعد حين . وهذا الحين على قصره كان كافياً أن يجعل الحال غير
الحال ، ويبدّل الجو غير الجو

هذه طلائع الخريف الباكر قد هيمنت على الأفق : فالرياح السوافى تنوح
على عذبات الشجر الوريق فيرتعد فرّاقاً من نذير الجفاف والموت ؛ والغمام الرقاق
تتجمع غبراً كحمل النعام ، أو تتفرق بيضاً كمندوف القطن ، فيتعاقب من تجمعها
وتفرقها الظلام والنور والظل والحرور على صفحة النهر ووجه الأرض

وطلائع الخريف تبكر فى الريف فتحدث فى نظام الطبيعة قليلا من
الفوضى . ذلك أن الفيضان يشارف غايته المقدورة فى أوائل سبتمبر ، فيترع
النيل كل القنوات ، ويغمر أكثر الحقول ، ويكون من جراء هذا الرى الطافح
أن يفتقر الحر ، ويرطب الهواء ، وينعقد بخار الماء سحباً فى السماء ، وأنذية على
الأرض ، فلا تجد أواخر الصيف مناصاً من الرحيل . وفى رحيل الصيف على
هذه الحال الفاجئة اضطراب فى حياة الناس والزرع . فالقطن يعوقه احتجاب
الشمس عن اكتمال النضج فيفسد لوزة ، والإنسان يُعجله تغير الجو عن اتخاذ
الحيطة فيميل اعتداله

سكنت الريح بعد هبة حمقاء هصرت غصون الشجر ، وكشفت أغطية
المناضد ، وقلبت وجوه الحداث وأجلّاس فقطعوا سلاسل الحديث ، واسترجعوا

رسل النظر . وكان إخواننا المصطفون قد نابهم من ثورة الريح ما ناب الناس ؛ فانزوى كل امرئ عن أخيه وانطوى على نفسه . فلما سكنت عن الريح الغضب عادوا يستقبلون أنفاس الموج ، ويستروحون أنسام الزروع ، ويستمعون إلى الأستاذ نجيب ، وكان يتحدث عن مشكلات التموين ومخزيات الإدارة . والأستاذ نجيب مدرس بكلية الآداب ، قضى أسابيع من عطلته عند أهله في سمود ؛ وكان له بجانب ذهنه معدة كعد الأحياء لا تفتأ تطلب القوت . والقوت اليوم بفضل الطاغية « هتلر » لم يعد كما كان مبذول المنال يأتيك على اغماض وأنت وادع ؛ إنما أصبح عزيز الدرك لا تناله إلا ببطاقة أو صداقة أو شفاعنة . فكان يلقي كتابه من يده ، ثم يخرج ومعه بطاقة التوزيع يسأل عن القمح فلا يجاب ، ويبحث عن البترول فلا يجد .

نظام البطاقات محكم دقيق يضمن لكل بطاقة رصيدها ، ولكل مستهلك نصيبه ؛ فمن أين جاء الحرمان والخير موجود ، وكيف سيطرت الفوضى والنظام قائم ؟ كان الأمين الذي جعلته الحكومة على خزائن التموين قد قضى أن يكون مع بطاقة التوزيع تصريح منه لا يظفر به إلا ذو المال أو الجمال أو القربى ؛ وصديقنا الأستاذ لم يؤته الحظ شفاعنة من هذه الشفاعات المجابة ، فبقى في جبهة الفقراء يحتشدون كل يوم على باب الأمين يسألون فيه غير مجيب ، ويسترحمون منه غير راحم . قال الأستاذ وقد نبض من الغيظ نابضه ، فارتجفت شفتاه وتهدج صوته :

كان مئات من ذوي الضعف والمسكنة يتركون بيوتهم صفراً من القوت والوقود ، ويظلون النهار كله على باب هذا (الحاكم) قياماً وقعوداً وبأيديهم القفف والأكياس ، وفي جيوبهم البطاقات والنقود ، يسألونه التصريح مرة

بالدعاء ومرة بالبكاء ، فلا يجيبهم غير الجنود بعصيتهم الملهبة ، وكلماتهم الغليظة ؛
حتى إذا أمسى المساء انصرف المجدودون بتصاريحهم إلى تاجر بعينه يكتالون
بالسعر المقرر ، وانقلب المكدودون بأوعيتهم إلى التاجر نفسه يكتالون بالسعر
المكرّر . ومن عرق البائسين ودموع اليتامى تنتفخ جيوب وتسكتظ كروش ؛
وبأمثال هذا الموظف وذلك التاجر تدول دول وتسقط عروش !

قلت : وما يدريك يا نجيب ؟ لعل الحال في بلدك هي الحال في كل بلد !
لقد فجر التجار وهوّدتهم^(١) المطامع ، فاحتكروا السلع ، واخترنوا الأرزاق ، وعموا
عن طريق الحق ، وصموا عن نداء الضمير ، ولم تزعهم خشية الله ولا سطوة
الحكومة ؛ لأن الله يمهّل ، ولأن الإنسان يمهّل . والقانون من غير تنفيذ ورق
مطبوع ، والتنفيذ من غير خلق ظلم مسلّح

إن في مخازن الأغنياء ومخابئ التجار من الأقوات ما لو عرض للبيع
المشروع لأعاد إلى الناس عيشهم الأول ؛ ولكن الفقدان والحرمان سيدومان
ما دام للطامع يد وليس له قلب ، وللحكومة لسان وليس لها عين

إن الحكومة قد أيقظت وعيها ورأيها لشؤون الوقاية والتموين ؛ وفي
سبيلهما تستطيع أن تبتكر الأسلوب البارِع وتسن النظام المحكم ، ولكنها
لا تستطيع أن تبعث النور في الحس المظلم ، ولا الشعور في النفّواد المصمّت

هذه انجلترا تمون ملايين الجنود من نهر النيل إلى بحر قزوين ، ومن
أقصى المحيط الغربي إلى أقصى المحيط الشرقي ؛ فهل تجد مع ذلك جندياً في البر
أو في البحر أو في الجو يزعم أن نصيبه الوفور من الطعام والشراب والفاكهة
والخمر والحلوى والعتاد والسلاح والذخيرة لم يدركه في مواعده الموقوت على أكمل
نظام وأعدل قسمة ؟ وهل كان هذا العمل المعجز ممكناً لو لم يكن بإزائه خلق

يعين على قضاء الحق ، وضمير يحث على أداء الواجب ؟

قال الأستاذ على : وهل عطل الأنظمة ، وعوّق الإصلاح ، وأوهن العلائق ، وشتت الوحدة ، وأشاع البؤس ، غير فساد الأخلاق ؟ إن ما أصابنا من نكد العيش وذل النفس وحبوط العمل ، نتيجة محتومة لما أصبنا من فحش الجور وقبح الأثرة وسخف الذمة (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة) . فقال الأستاذ توحيد : إن التعبير هنا بالدابة من معجزات البلاغة القرآنية ؛ فإن الفاس إذا زاغوا عن طريق العدل ، وخرجوا على منطق العقل ، لا يصدق عليهم غير هذا اللفظ

وعادت الرياح الباردة تهب هبوب الخلق الشموس فقطعت الحديث ، وقوضت المجلس ، وأنذرت القوم أن يهجروا الكافورة حتى يعود الربيع



— ٤ —

كأننا حين كنا نجلس في حلق القهوة على شاطئ النهر كنا نُشرف على مسرح من مسارح الفكر والشعور لا يقع في صفوه كدر من أوزار الناس ، ولا قدر من أضرار المادة . فلما دفعتنا بواكر الخريف إلى داخل القهوة أحسنا الدنيا بصخبها وشغبها ، وجدها ولعبها ، وصدقها وكذبها ، وفشلها وغلبها ؛ واستشعرنا ثقل الحياة وضعة الناس وسخف الرواية الإنسانية تمثل على أسلوب واحد كل يوم في أى مكان من الأرض صغير أو كبير ، وبأى عدد من الناس قليل أو كثير

مسرح الحياة في القهوة ضيق المجال ضئيل العدد قليل الشهود ، ولكنه صورة مقاربة لمسرحها في الوجود الأكبر : ثلاث سلاسل من المفاضد الرخامية امتدت في ثلاثة أروقة ، قد جلس عليها هواة النرد والدومينو والشطرنج والورق : فأما النرد ، ومثله الدومينو ، فيمثل مذهب الحظ والتهويز في ابتغاء الربح ؛ فلاعبه لا ينفك طياش الحلم ، جياش الدم ، يصك الخانة بالقشاط ، ويربك الخصم بالعياط والزياط . وأما الشطرنج ، ومثله الورق ، فيمثل مذهب الروبة والأناة في محاولة الكسب ؛ لذلك ترى لآعبه ساكناً ساكناً كتمتال الحكمة ، تحسبه من طول تفكيره لا يعمل . ومكسب العقل أو الشطرنج بطيء ولكنه ثابت ، ومكسب الحظ أو النرد سريع ولكنه متقلب

وعلى حواشى هذه السلاسل جلست جماعات مختلفات في منهج السلوك ودرجة الثقافة ، فهؤلاء من رجال العمل يُدهى بعضهم بعضاً في مبايعة أو

مقاولة ، وأولئك من رجال العلم يتنازعون الحجج في مناقلة أو مجادلة
وفي مماشى القهوة أفراد من صعاليك الخلق يمشون وأبصارهم لا تقع إلا على
النعال أو على الأرض : أولئك هم ماسحوا الأحذية ولاقطوا الأعقاب ؛ وهم
يمثلون الذين رضوا بالهون والدون ، وجهلوا أن فوق الأرض سماء وأن مع
(البراطيش) طرابيش !

ولو أردنا لوجدنا لكل طبقة من طبقات المجتمع صورة من صور القهوة
نُشَقِّق عليها الحديث ونعمق فيها البحث ، ولكننا نقف اليوم عند صورة هذه
العيون المشدودة إلى الأرض ، أو المعقودة في النعال ، فإنها أولى بالتفكير
وأجدر بالثناء

هذه الصورة تمثل الفلاح ابن الأرض وعبد الأرض ؛ قصر نظره على
الأرض ليزرع ، كما قصرت البهيمة نظرها على الأرض لترعى ؛ فلا هو يطمح
أن يكون إنساناً يترقى ، ولا هى تطمح أن تكون طائراً يرتفع . حتى الصلاة
لا يعرف الفلاح منها غير الركوع والسجود ؛ أما دخوله فيها بالتكبير ،
وخروجه منها بالتسليم ، فمعنيان ميطان في نفسه ، لا يفهم من الأول صلته بالله ،
ولا من الآخر صلته بالناس . وإذا علمت أن هذا الفلاح في بعض الأمم
الدستورية الشرقية هو الكثرة الكاثرة والسواد السائد ، علمت كيف يُزَوَّر
فيها الرأي العام ، و يُزَيَّف النظام الديمقراطي !

كانت هذه الصورة في تلك الليلة مثاراً للحديث عن الفلاح وما يتحمله من
سوء الحالة وقبح الجهالة ؛ وكانت القهوة على ما تريد (الوقاية) مغلقة النوافذ
مرخاة الستائر لا تملك لضوضائها المكبوتة وأنفاسها المحبوسة متنفساً ولا فرجة ؛

وكان اصطكاك النرد وارتفاع الأصوات وضجة المذياع قد جعلتنا أشبه باليهود في برصة العقود ، فلم نكد نسمع الأستاذ عدلى وهو يلقي هذا السؤال على الأستاذ توحيد :

— إذا صح أن الشعور بالنقص مبدأ الكمال ، فماذا نعلل بقاءنا في هذا الدرك الأسفل من الحياة ونحن لا نكاد نسمع في كل مكان ومن كل إنسان غير الشكوى من اختلال النظام واعتلال الحسك وانحلال الخلق ؟

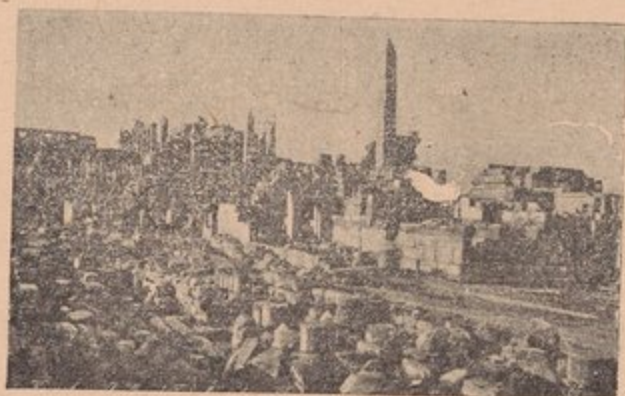
فقال الأستاذ توحيد : أما إجماع الناس على الشكوى من سوء الحال فما أظن الواقع يؤيده . وإذا كنت تعنى إجماع أهل رأى من رجال الثقافة والصحافة ، فإن شكوى هؤلاء لا تدل إلا على آلامهم هم . والقول بأن الأمة متمدنة لأن فيها قوماً يأكلون أكل الذوات ، ويلبسون لبس الخواجات ، وبأنها متعلمة لأن فيها جماعة يحملون شهادات من كل نوع ، ودرجات من كل قياس ؛ وبأنها طموحة ، لأن فيها طائفة من مرهفي الحس وعشاق الكمال يطمحون إلى خطير المساعي ويتشوفون إلى بعيد المطامع ؛ ذلك القول لا يسوغه إلا الغرور أو الهزل

صحيح أننا كنا نقول قبل اليوم : إن المصريين أصل الناس ، وإن مصر أم الدنيا ؛ فلما رقت الأغشية الكثيفة عن العيون كدنا تبصر موقعنا من البلاد وموضعنا من الأمم ، ولكن ذلك لا يعنى أننا شعرنا بالنقص ، ووقفنا على العلة ، وبرمنا بالجود ، ونزعنا إلى التكمل

إن الفلاحين وهم جمهور الأمة قدماء في نفوسهم — لسبب لا أدريه — ذلك القلق الروحى الذى يتحدى القدر ويخلق الطموح ويحقق التطور ، فإذا انبثق في صدورهم ذلك النور الإلهى اهتمدوا إلى الطريق الإنسانى

الذى أضلوه ، فلا يحتاجون إلى من يذنب لهم المراحيض في البيوت ،
أو يضع لهم النعال في الأرجل . وليس العلم شرطاً في حُبِّكَ النظافة وطلبك
الحق وإبائك الضيم ورعايتك الصحة ، فإن ذلك كله من مقتضيات الفطر
السليمة . والبدوى على عنجهيته وجهله لا يزال المثل المضروب في الاعتداد
بالنفس والاحتفاظ بالكرامة . وفي يقيني أن الواجب الأول على رجال الدين
وأقطاب الصحافة ورجال الإصلاح أن يقنعوا الفلاح بأنه إنسان . ذلك وحده
كفيل أن يعلمه كيف يعيش ، وأن يلهمه كيف يرقى !

وهنا قدح الأستاذ توحيد زِناده الفضى النادر ، وأشعل سيجاره
التسكاني الفاخر ؛ ولم يكذب طفئه ويستأنف الكلام حتى أغلقت مفاتيح
الأنوار ، وأطلقت صفارة الإنذار ، فخشعت الأصوات ، وسكنت الحركات ،
واستولى على الناس شعور من صريح القلق ورياء الصبر قاستحال الإصغاء وانقطع
الحديث !



لنقولوا أين الكتاب وقولوا أين القادة

[٢٤ نوفمبر سنة ١٩٤١]

أو كلما كظمت الأنفاسَ روائح الشر ، وكربت النفوس غواشي الفساد ،
ذهل الناس عن مرسل الریح ومثيری القَتام وقانوا أين الكتاب ؟ هل الكاتب
إلا نذیر ؟ وهل على الكتاب غیر البلاغ ؟ لقد كتبوا حتى أوشك المداد أن
ينفد ، وخطبوا حتى كاد الریق أن یجف ؛ ولكن أكثر العامة لا یقرأون ،
وأكثر الخاصة لا یفهمون . ومتی أغنی القول عن الفعل ، وجزى الرأى عن
العزیمه ؟

إن من أقبح ما یعاب علینا وعلى أمم الشرق أننا لم نعرف من أدوات
السیاسة ووسائل الإصلاح غیر الكلام والكتابة ؛ فسیاستنا خطب ، وإدارتنا
تقاریر ، ومناهجنا وعود . ولو كان الشعب قارئاً لرجونا من وراء الكتابة صلاح
النفس فی الفرد وسمو الروح فی الجماعة ؛ ولكن الأمیه لا تزال بفضل وزارة
المعارف حجاباً مستوراً بین عیون الناس ونور الحق . فماذا عسى یصنع الكتاب
ولیس لهم من الأمر شیء ؟ هل یصنعون إلا أن یفتحوا بأسنان أقلامهم أجفان
المتعلمین لتثب إلى عیونهم صور العیوب فیدرکوها ؟ وهم قد فعلوا ذلك ولم یألوا :
فعلوه فی السکتب والصحف ، وفی المدارس والمسارح ، حتی لم یبق فی هؤلاء
الذین تقسموا الحکم ، وتوزعوا السلطان ، وتنازعوا القیادة ، من لم یحفظ صور
الفساد ووجوه الصلاح عن ظهر قلب ! ولكن الله الذی آتی زعماءنا ملکه
الكلام لم یؤتهم ملکه العمل ! فهم یستطیعون أن یقولوا ما قال الكتاب ،

ولكنهم لا يستطيعون أن يفعلوا ما فعل القادة . ومصادق ذلك أنك تراهم في أندية الأحزاب ، وفوق مقاعد النواب ، وبين أعمدة الصحف ، يكشفون عن مواضع النقص ، ويشيرون إلى مواقع الكمال ، فيفتون في كل مسألة فتوى العالم ، ويدلون في كل معضلة برأى الخبير ، ويعترضون على كل أمر اعتراض اليقظ ؛ فإذا وليناهم الحكم وخلينا بينهم وبين العمل ، التاث عليهم الأمر ، وبرّح بهم التطبيق ، وأصبح جهدهم مصروفاً إلى مناقضة القول بالقول ، ومعارضة الرأى بالرأى ؛ كأنما تبوأوا مقاعد الحكم ليردوا وهم وزراء ورؤساء ، على ما انتقدوه وهم كتاب وخطباء !

من من الزعماء يجهل أن الأمة لا تزال متخلفة في الخلق والمعرفة والحضارة عن أدنى أمم الأرض المعدودة قرناً من الزمان ؛ فحياتها بدائية ، وأخلاقها همجية ، ونظمها ارتجالية ، ومعيشة الزراعة والصناع فيها أقرب إلى معيشة البهيم ، منها إلى معيشة الإنسان الكريم ؟ كلهم يعلمون ذلك وإن لم يقرأوه في مقال أو يسمعوه في خطبة ؛ ولكن اشتغالهم بسفساف الأمور ، صرف أكثرهم عن النظر في شؤون الناس وأحوال المجتمع ، فلا يذكرون الشعب إلا يوم يقوم الانتخاب ، وتصطرع الأحزاب ، ويحتاج كل طماع إلى سلام من أكتاف الساكنين يصعد فيها إلى النيابة والحكم

ومن من الأغنياء يجهل أن الفقر في مصر ضرب من الرق يذل النفوس ، ويقتل المواهب ، ويشكك المرزوء به في العدل والحق ؛ فهو يسكن ليستكين ، ولكنه قد يثور ليثأر ؟

كلهم يعلمون ذلك وإن لم يقرأوه في مقال أو يسمعوه في خطبة . وهم

مقتنعون بأن علة هذا الفقر هي أكلهم الحق الذي جعله الله في أموالهم للفقير ؛
ولكن العلم وحده لا يبسط الأنامل الكرزة ، ولا يهز النفوس الشحيحة !

ومن من العلماء يجهل أن دين الله صالح لكل جيل من الناس ولكل حين
من الدهر ؛ فهو ثابت بحقيقته ثبوت الخالق ، ولكنه متطورٌ بطبيعته تطور
المخلوق . كلهم يعلمون ذلك وإن لم يقرأوه في مقال أو يسمعوه في خطبة .
ولكنهم أغلقوا على عقولهم باب الاجتهاد فظلوا في دنيا الماضين ، يذهبون
ما ذهبوا ، ويقرأون ما كتبوا ، ويجذبون ركب الإنسانية إلى وراء ثلاثة عشر
قرناً ليأخذ من ساكني القبور جواز المرور !

ومن من الموظفين يجهل أن الأمة هي أسرته الكبرى ، وأن الوطن هو
بيته الأكبر ؛ فالعمل الذي يقوم به هو عمله ، والمال الذي يقوم عليه هو ماله ،
والرجل الذي يقف أمامه في شأن من الشؤون هو أخوه ؟ كلهم يعلمون ذلك
وإن لم يقرأوه في مقال أو يسمعوه في خطبة . ولكنهم في الكثير الغالب
يتجاهلون على ضمائرهم فيخضعونها لسلطان الكبر والأثرة ، فيرفعون أقدارهم
على أقدار الناس ، ويضعون المنفعة الخاصة فوق المنفعة العامة !

ومن من التجار يجهل أن الحرام لا يزكو ، وأن الغبن لا يحلّ ، وأن
الحسرة لا تجوز ؟ كلهم يعلمون ذلك وإن لم يقرأوه في مقال أو يسمعوه في
خطبة ؛ ولكنهم في سبيل الثراء الدنيّ يتعامون عن بؤس الفقير ، ويتصامون
عن صوت الضمير ، ويهتبلون فرص الحرب ليعصروا الذهب والفضة من دماء
القتلى ودموع الأيامي وعرق العمّلة !

الواقع الذى لا مِـرَية فيه أن أمم الشرق لا يعوزها إدراك النقص
ولا عرفان الواجب ؛ إنما يعوزها الرجل الذى يطبق علمها على العمل ، ويوحد
رأيها على الحق ، ويجرى خلقها على الرجولة ، ويجمع شتاتها على الطريق .
فهل لصديقي العشماوى بك أن يوافقنى على أن مصر اليوم لا تحتاج إلى « على »
بلسانه الحكيم ، وإنما تحتاج إلى « عمر » بذرته^(١) الحازمة ؟ !

(١) الدرة : عصا عمر بن الخطاب



بعض ذلك الامر في (مى)

[٨ ديسمبر سنة ١٩٤١]



وُلدت « مى » وعاشت ثم
ماتت كما يولد النهر من قطر
السماء ، فتربيه الطبيعة في الينابيع
الهادية الفسيحة ؛ ثم تبعته برسالة
الحياة إلى حوضه ، فيشق بالجد
والصبر طريقه الموحش في صخور
الجبل وقفار الأرض وأصول
الغاب ؛ ثم يُلقى على شاطئ الوادى
ما حُمِّل من فضل الله ، فيحيا
الموات ، وتتجمع الخيرات ، وتنشأ
الحضارات ، وتتألف الملاحم ،

ويتكلم التاريخ ؛ ثم يأخذ النهر مجراه بين الحقول الناضرة والمدن العامرة شادياً
بالمال والجمال والحب حتى يذهب في عباب البحر كما تذهب الروح الطيبة
في فضاء الانهائية !

لن تجد « لمى » في حياتها وموتها أقرب من هذا التشبيه . فقد كانت
في خلال ما غشى الشرق من الهمود والظلام قبساً من الحياة من يمسسه وهيجه
وسناه انتعش ما همد منه ، واستنار ما أظلم فيه

كانت « مَيَّ » في حياة القاهرة ظاهرة من الظواهر العجيبة ! والعجيب فيها أنها كانت كممدوح المتنبي واحدة من ناس دنياها وليست منهم : كانت جنساً من الخلق الجميل تميز بخصائص الجنسين ، فكان فيه أفضل ما في الرجل وخير ما في المرأة . فمن كان يسمعها خظيبة في محفل ، أو يشهدها محدثة في منزل ، كان يحسبها — وقد استدارت على رأسها الأنيق هلة من السحر والفتنة — « قلوب » إحدى بنات « چوپتير » التسع ، وإلهات الفنون التسعة ، قد سرقت من أخواتها أسرار فنونهن ثم هبطت من فوق جبل « البرناس » إلى ضفاف النيل

تجدد في الناس آى المسيح تميمت القنوط وتحي الأمل
ومن يستطيع أن يحسب « مَيَّ » غير هذا وهى فتاة قد نشأت في عهد
كانت المرأة فيه شيئاً من المتاع ، ترى ولا تعلم ، وتسمع ولا تفهم ؛ ثم تحذق
هى الكتابة والخطابة والشعر والفلسفة والتصوير والموسيقى ، وتتنقن العربية
والفرنسية والإنجليزية والإيطالية والألمانية والإسبانية ، وهى لم تولد في قصر ،
ولم تتخرج في جامعة ؟ !

أبصرت « مارى زيادة » الدنيا أول مرة في « الناصرة » بلد المسيح ،
ومن هنا استوحى أبواها اسمها الأول على ما أظن ؛ ثم أرسلت إلى منبت أسرتها
في قضاء كسروان ببلبنان ، فتفتت طفولتها قليلاً في « عين طورة » ؛ ثم هاجرت
إلى مصر مع والديها ، فتفتح صباها الغض على ماء النيل ، وتفتق ذهنها الصافي
على نسيم الوادى . وكان والدها إلياس يحترف الصحافة ويصدر (المحروسة) ؛
فكان لها من عمل أبيها ، ومن أصالة الملكة فيها ، حافز شديد التوجيه

إلى الأدب . ولكن أدبها على الرغم من نشوئه وبلوغه ونبوغه في القاهرة لم يتأثر بأدب مصر ، وإنما تأثر في شكله وموضوعه بأدب لبنان . لأن الأدب اللبناني كان وحده في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحاضر مظهر الحياة والجدة والتنوع في الأدب العربي الحديث . فبينما كان الأدب المصري يصدر عن الأزهر ، والأدب العراقي يصدر عن النجف ، والأدب السوري يجري على أسلوب هذين الأديين ، كان الأدب اللبناني يصدر عن مدارس تتسم بسمة الدين ، ولكنها تعترف بوجود الدنيا ؛ فهي تعلم العلوم الحديثة ، وتلقن اللغات الحية ، وتعتمد في أدب القلب على الإنجيل ، وفي أدب اللسان على القرآن ؛ فبيضت الكتب الصفراء^(١) ، ورتبت المعاجم المشوشة ، ونشرت الكتب المقبورة ، ولقحت الآداب العربية بالآداب الأوربية ؛ وكان من أثر هذا اللقاح النقد والترجمة والصحافة والتمثيل والقصص ؛ وكان من ثمر هذا اللقاح طلائع هذه النهضة من آل اليازجي والبستاني والشرتوني وزيدان وصروف وشميل والريحاني وجبران ومطران . وكان لا بد لمارى العربية أن تجنى ثمر الثقافة مما غرس الفرنسيون والأمريكان والمارون ، وأن تقبس نور العروبة من الضياء والهلال والمقتطف ، وأن تناجى عنادنا الفرد في رياض مصر وخمائل لبنان ومنازه الدنيا الجديدة ، وأن يحملها الاعتداد بجنسها ولغتها على أن تقتصر من اسمها الأعجمي على طرفيه ليكون منهما اسمها العربي (مى) . وعلى هذا المنهج بلغت مى غايتها من الأدب والعلم والفن ، فاستفاض ذكرها على الألسنة ، وعظمت مكاتبتها في الأفتدة ؛ ووصلت بينها وبين كثير من أولى الفكر والجاه أسباب من الروح ، فكان صالونها في أيام الثلاثاوات كصالون الولادة بنت المستكفي منتجع الصفوة من أقطاب السياسة وأعيان الأدب ، يعكفون على أصدق مثل

للأباقة واللباقة والذوق في فتاة بارعة الظرف ، تشارك في كل علم ، وتفيض في كل حديث ، وتختصر للجليل سعادة العمر كله في لفظة أو لفظة أو ابتسامة ! لقد كان لمي ولصالون مي في أدب العصر آثار وسمات : ألهمت صبري ، وأوهمت الرافي ، وألهبت جبران ؛ ثم أخرجت من سواد المداد صوراً مختلفة الألوان متنوعة الأفنان أضافت إلى ذخائر الفكر الإنساني ثروة ثم تقدم العصر وطوت (مي) أكثر مراحل الشباب ، فتنكر الدهر وتغير الناس . وورد أبواها متعاقبين حياض المنون فاستكانت للحزن ، وأخلدت إلى الوحدة ، فانفض السامر الأنيس ، وانطفأ السراج اللامع ، وانحدرت (مي) في طريق الوحشة والمرض والنسيان إلى نهايتها الأليمة !

أما بعد فقد قال بشار لبعض جلسائه ذات يوم : ما سمعت شعر امرأة قط إلا أحسست فيه الضعف ! فقليل له : أو كذلك الخنساء ؟ فقال في لهجة الفطن المحترس : تلك فوق الرجال ! ونحن نقول في مي ما قال بشار في الخنساء ، ونزيد عليه أن مي هي الأدبية الكاملة في تاريخ الأدب العربي كله ! أما إجمال هذا التفصيل فله مناسبة أخرى



على ذكرى عيد الميلاد

[٢٢ ديسمبر سنة ١٩٤١]

بعد ثلاثة أيام تتجدد ذكرى « مولد المسيح » فيقف أبناء « قابيل »
آلة الحرب ؛ ثم يخرون جاثين لله في الشكنات والمطارات والبوارج والخنادق
والخبايا والكنايس يرتلون حاسرين نشيد السلام المأثور :

« المجد لله في الأعلى ، وعلى الأرض السلام ! »

فإذا أصبحوا انقلبوا سراعاً إلى آلات القناء فأرسلوا منها الصواعق على
إخوانهم الذين هتفوا معهم بالمجد لله في السماء ، وبالدوام للسلام على الأرض ،
فسحقوهم أو أحرقوهم على رمال لوبيا ، وفوق ثلوج روسيا ، وبين أطباق
الهواء ، وتحت أعماق الماء ؛ كأنما اختلت الدنيا ، واختبئت الناس ، وانقلبت
المعاني ، فصار الدين معناه الكفر ، والسلام معناه الخصام ، والمفاوضة معناه
الختل ، والمعاهدة معناها الغدر ، والأخوة معناها العداوة ؛ وأصبح هذا
الكوكب بقاراته ومحيطاته وسكانه كرة من النار تتقاذفها الأرجل الحديدية
بين فريق هتلر وموسوليني والميكادو ، وفريق تشرشل وروزفلت وستالين .
ولا يدري إلا الله من سيقذفها في (الجول) ؛ وما الجول هنا إلا عبودية الأبد ،
أو حرية الأبد !

كان العالم المسيحي في مختلف أقطاره يجدد بعيد الميلاد ما انطمس في نفسه
من معاني المودة والرحمة والأسرة والطفولة ، فيصل بالتزاور ما انقطع من أسباب
القرباة ، ويؤكد بالتهادي ما وهى من عرى الصداقة ؛ وكان الميكادو على
وثنيته يقوم بدور الشيخ الطيب « نويل » ، فيحمل اللعب من اليابان بأبخس

الأثمان إلى كل بيت فيه طفل ؛ فلما صُلِبَت المسيحية في أوربا على صليب النازية المعقوف انتكست الطباع ، وانعكست الأوضاع ، وانكفأ بعض الشعوب إلى البربرية الأولى ، يغالبون بعصبية الجنس ، ويسودون ببأس الحديد . وجامل الميكادو في الشر كما جامل في الخير ، فترك دور الشيخ « نويل » وقام بدور الأب « فويتار^(١) » ، فاستبدل بلعب الأطفال من صور الدبابات والطائرات والسباحات ، قطعاً كالجبال من الحديد والبارود تلك مدائن البر ، وتبتلع جزائر البحر ، وتشعل النار فيما بقي من أطراف الأرض ، حتى أوشك أن يجاوز الصواب قول الفلاسكين إنها كوكب مظلم !

بعد ثلاثة أيام تعاود الناس ذكرى ليلة الميلاد وهم من تفاعل المذاهب والقرون في رجفة من الصراع المالحق توشك أن تقيم عليهم القيامة . وسيدكر الشباب المجندون لمجادة الحق أو مجاهدة الباطل أنهم كانوا في مثل هذه الليلة أمام المواعد وحول المواعد قررة عيون وزينة بيوت ، وأنهم في هذا اليوم يستقبلون عيد الحياة وهم مشردون في مجاهل الأرض ومساقط الموت لا يعرفون متى يصرعون ولا أين يقبرون . ثم يقول هذا الشباب الرقيق الريان لنفسه : أبعد التريب والتهديب والعيش الناعم والأمل الباسم والغد المرجو نصير طحيناً لهذه الرحا الهائلة من غير سبب موجب إلا نزوة من نزوات الطيش ، في رأس رجل من طلاب العيش !؟

(١) يعتقد أطفال المسيحيين أن بابا نويل يزور البيوت ليلة عيد الميلاد ومعه الأب فويتار فيوزع هو على عقلائهم اللعب والحلوى ، ويترك الأب فويتار لخبثائهم حزماً من العصي الصغيرة اللينة

أما الستة الذين يحاولون أن يقرروا مصير العالم على مشيئة الله أو على هوى
الشیطان ، فسيذكرون بمولد المسيح أشياء أخر: سيذكر هتار بيلاطس وديقليانوس ،
والدثشي يهوذا ونيرون . وسيذكر رزفلات بولس ، وتشرشل قسطنطين ؛ أما
ستالين إن ذكر فسيذكر لوثر ؛ وأما الميكادو فلا يذكره العيد معنى من حياة
المسيح ، ولا مغزى من تاريخ المسيحية ؛ إنما يذكره تلك اللعب التي كان
يقدمها إلى لهُو الأطفال ليربح من ورائها القروش ، فأصبح اليوم يقدمها إلى قتل
الرجال ليربح من ورائها العروش !

سبحانك ربّ السموات والأرض ! ما كان لنفس مؤمنة أن تحسبك
تركت أمر هذا العالم لهؤلاء الحق من خَلَقَكَ
لا جرم أن لك من هذه القارعة الصغرى حكمة تدق على بصيرة ابن آدم .
إن مع القيامة نشوراً أكمل وحياة أفضل . كل نظام سنّه ابن العاصي
سيتغير ، وكل قانون نزع فيه الشيطان سيلغى ، لن يبقى يا مولاي غير شرعك ،
ولن يدوم غير دينك
وكَلَّتْ ابن آدم إلى نفسه فخر ب قواه كلها في تدبير أمره وتسخير غيره ،
فما أنتج غير الاضطراب والحرب والفوضى

تبجح بعلمه وتشريعه وفلسفته ؛ وزعم أنه هيمن على الغريزة بقوة
الخالق ، وسيطر على الطبيعة بسلطان العلم ، وتوهم أنه يستطيع بما كشف من
الأسرار وذل من القوى أن يصنع مفاتيح الغيب ويقتحم أبواب القدر ؛ فلما
ابتليته بتحقيق زعمه وتطبيق فهمه ، تحرك في طبعه الطين الراسب ، وتيقظ
في نفسه الحيوان الرائد ، وتألّبت الأهواء على رأيه فاضطرب وتفرق ، وتعلبت

المطامع على جمعه فتنازع وتمزق !

رباه إنا مؤمنون ، وإنا مطمئنون ! فأدم علينا نعمة الهداية ، واكفنا شر هذه الغواية ، واجعلنا الأدلاء على طريقك ، والأمناء على حقك ، حتى تنجلى هذه الغمة عن الدنيا ، فيرجع إليك الغوى ، ويخضع لك القوى ، ويلوذ بك الضعيف !



مشكلة الرغبة

[١٩ يناير سنة ١٩٤٢]

وكيف لا يكون للرغبة مشكلة ، والمشكلات منذ هبط الإنسان الأرض إنما تتناسل من أب واحد هو الرغبة ، ومن أم واحدة هي المرأة ؟

سمّ الرغبة وسيلة حفظ الحياة ، وسمّ المرأة وسيلة حفظ النوع ؛ ثم حاول أن تنسب بشيء من التحليل الدقيق جميع ما سجل التاريخ من خصومات وأزمات وثورات إلى هاتين الوسميلتين ، أو هاتين الغريزتين ، فلن تجد في نسبة البنات إلى أبويهن غموضاً ولا مشقة

كانت المرأة في بدء الخليقة هي حواء ، وكان الرغبة في حياة الجنة هو الشجرة ، وكانت الأثرة والطمع والحسد هي إبليس ، وكانت الضحية لهؤلاء جميعاً هي سعادة آدم

ثم مضى الرغبة والمرأة وإبليس يعملون في دنيا الأرض ما يشاء القدر : يصلحون هذا ويفسدون ذاك ، ويعمرون هنا ويخربون هناك ، ويخلقون التنافس لتنشط عناصر الحياة ، ويوجدون الخلاف لتتفق عوامل الموت ، وينزعون الملك من يد إلى يد ، وينقلون الحكم من دولة إلى دولة ، حتى قال ابن أبي الحديد بحق : « لم تسَلَّ السيوف إلا لوجه أصبح من وجه ، ولقمة أسوغ من لقمة »

ولو كان الملائكة يأكلون الرغبة ويخالطون المرأة لكانوا أناساً كالناس ، ولكن الملائكة الأعلى كالملكوت الأدنى ، ولكن الله لم يشأ أن يجعل

النور كالظلام ، ولا أن تكون السماء كالأرض !

على أن الرغبة ، لاكتنان سر الحياة فيه ، كان أشد الثلاثة إيقاداً
للخصومة !

كان مالك بن أنس يذكر عثمان وعلياً وطلحة والزبير فيقول : « والله
ما اقتتلوا إلا على الثريد الأعفر »

وأنت إذا ذكرت في تاريخنا ، العدنانية والقحطانية ، والقيسية واليمانية ،
والمهاجرين والأنصار ، والهاشمية والأموية ، والعباسية والعلوية ، والعروبة
والشعوبية ، والتركية والفارسية ، والهلالية والصليبية ، والإسلامية
والقبطية ، والسعدية والعدلية ، والفُلانية والعِلّانية ، لما قلت إلا ما قال أنس
ابن مالك

كذلك إذا ذكرت في تاريخ الناس الشرقية والغربية ، والديمقراطية
والدكتاتورية ، والرأسمالية والشيوعية ، لما وجدت لهذه الأسماء معنى ولا مغزى
إلا ما قاله كثير بن شهاب لعلامة وقد طلب منه الطعام يوماً فقال ما عندي
إلا خبز وبقل : « ويحك ! وهل اقتتل فارس والروم إلا على الخبز
والبقل ؟ »

لذلك كله عاج الدين مشكلة الرغبة بتنظيم المعاملات ، وفرض الصدقات ،
وكفكفة النفوس الشرهة بالقناعة والعفة والحدود ؛ واتقت الدول جرائر الرغبة
بالعلم والنظام والإصلاح والاستعمار ؛ فإذا غلب الكفر أو طغت الأثرة ، شبت
الثورة أو نشبت الحرب . ذلك أن الفرد أو الشعب يصاب في حريته فيصبر ،
ويؤذى في كرامته فيستكين ، ويُفتن عن عقيدته فيرضى ؛ ولكنه إذا حرم

الرجيف انقلب ضارياً كالوحش ، أو جارفاً كالبركان ، لا يذر من شيء
أتى عليه إلا جعله كالريم

هذه مصر هبة النيل وجنة الشرق وملقى البحرين والبرين طالما عركتها
الخطوب فاستكانت للقدر ، واستعانت بالصبر ، ومضت على حسن ظنها بالله
تتربص الدوائر بالمغير ، وترجو الغوائل للظالم ، حتى إذا أخذت هذه الحرب
الأكل تنازعها الرجيف ، أصبحت كلها لساناً واحداً يتضاغى مخافة انقطاعه ،
فلا تجد في الأمة ولا في الحكومة إلا سائلاً عنه ، أو شاكياً منه ، أو باحثاً فيه ،
أو ساعياً له ؛ وكأنما اختزلت لغات الناس فأصبحت لا تعدو ألفاظ التخزين
والتكوين ، والإحصاء والاستيلاء ، والاستيراد والاستكثار ، والمطاحن والمخازن ،
وما يدخل في هالة الرجيف النورية من مادة وأدب . فليت شعري إلام تؤول
الحال إذا تأزم الأمر ، وضائق موارد الرزق ، فلا أرض تغل ما يكفي ، ولا بحر
يسد ما ينقص ؟ !

تمثيل الحال في الخيال مرعب ، فما بالك بتقرير الحس وتصوير الواقع ؟
الأمر جد لا مساغ للعبث فيه ، والخطر بادٍ فلا مناص من الاعتراف به ،
والتقصير ثابت فلا سبيل إلى التنصل منه . وإذا فاتنا الاستبصار للمستقبل ،
فلن يفوتنا الاعتبار بالحاضر . وإذا عجزت السياسة أن تحل مشكلة الرجيف
فلا أزعم أن يحلها الأدب . وكل ما يستطيع الأديب أن يقوله للسياسي إن
مشكلة التكوين لا يحلها أن يكون لها وزارة ، ولا أن تُقصر على أمورها السياسة
والإدارة ؛ إنما يحلها أداء الحاكم للواجب ، وقضاء المحكوم للحق . وأقسم بالله
جهّد القسم لو أن القائمين على شؤون الناس بسطوا لها الأيدي التنظيمية ، وتحروا

فيها الأوجه الصالحة ، ثم ساووا بين العامة والخاصة في القسمة ، وعدلوا بين
الأقوياء والضعفاء في التكليف ، وأيقظوا العيون لحمايا الحيل ، وأنضجوا الآراء
لمشبهات الأمور ؛ ثم عاونهم الشعب بفضائله ، فلا يطمع المنتج ، ولا يدخر
المستهلك ، ولا يحتكر التاجر ، ولا يشح الغني ، ولا يجزع الفقير ، لما كان
للرغيف في مصر مشكلة ، ولا كان للتموين في الحكومة وزارة . ولكن مشكلة
المشكلات هي أن مكارم الأخلاق لا تباع ولا تُعار ولا تكسب في الزمن
القليل ، إنما هي تهذيب الدين الصحيح وصقال الدهر الطويل



صحة الفقير وثروة الغنى

[٢ فبراير سنة ١٩٤٢]

في هذه الأيام العجاف يكثر الكلام في الغنى والفقر . والكلام في الغنى والفقر وما يتصل بهما يوشك أن يكون الوظيفة الطبيعية للسان الإنسان ؛ ففي الرخاء يكون تعبيراً عن سحق مكظوم ، وفي الشدة يكون تبريراً لسخط منفجر . فإذا وجدت في الفقراء من لا يسخط على الأغنياء فتق أنه من أتباع الفلسفة التي تؤمن بمبدأ التعويض في قانون الطبيعة وتقول : « إذا لم يكن للفقراء الأرض فلهم السماء ، وإذا لم يُرزقوا المال فقد رُزقوا الصحة ؛ والآخرة خير وأبقى من الدنيا ، والعافية أعلى وأغلى من الثروة » .

من هؤلاء الذين جعلوا القناعة فلسفة رجل من القراء المنكرى الصوت لا يملك في أكثر أوقاته غير قوت يومه ، ولكنه مع ذلك موفور الحظ من السلامة ؛ لا يتسخط ولا يتبرم ، ولا يجد في جسمه ما يشكوه ، ولا في نفسه ما يرجوه ، ولا في غده ما يخافه . رآني بالأمس جالساً في مكان ضاح من القهوة أتقع في أشعة الشمس الفاترة جسدي المرقور وعلى من ثياب الشتاء لفائف فوق لفائف ، فأقبل إليّ يظفر ظفور الطي بين المناضد المصفوفة وليس على جسمه غير غلالة بيضاء من التيل ، وعباءة سوداء من الصوف ، قد رفع ذيلها إلى عاتقه ؛ ثم جلس متهلل الوجه متماسك البدن مكتنز اللحم رفاف البشرة يكاد إهابه من فرط الرى وسورة المرح ينشق . فلما تكلم وجدته على ما عهدته من فراغ البال وسلامة الصدر وقلة المبالاة فلم أتمالك أن بدهته بهذا السؤال : أي هذه

السن وفي هذه الأيام لا أرى للخبز المخلوط أثراً على وجهك ، ولا أسمع للمجاعة المتوقعة ذكراً على لسانك ؟

قال الشيخ منصور بلهجة الخليّ وضحكته : والله يا سيدى ما أكلت الخبز نقياً من قبل حتى أشكو خلطه اليوم . ومن تعود أن يأكل الخبز مخلوطاً بالحصى والتراب ، لا يصعب عليه أن يأكله مخلوطاً بالذرة والرز . أما المجاعة التى يتوقعها الناس فلا تختلف عما أنا فيه . وإذا جاز لى أن أشكو شكوت إلى الله طغيان الصحة ؛ فإن للصحة الطاغية تكاليف أقلها النهم والقرم وتحلب الريق وسُعار الجوف وسرعة الهضم . وتحقيق الشبع الدائم للشهوة الدائمة لا يمكن إلا بخزائن عاشور ومخازن عمرو . إني أسأم الصحة كما يسأم غيرى المرض . وفي ساعة من ساعات الشره يقوم فى نفسي أن الله قد منح الفقراء الصحة ليزيد ألهم من الحرمان ؛ ولكننى حين أسكن أطيط أمعائى بفطيرة من الذرة وطبق من المش ورأس من البصل وحزمة من السريس ، ينمى ماصوره الخيال فى ذهنى من أطيب الآكال وأعذب الأشربة ؛ ثم تنتشر على بدنى حرارة العافية فأرى الجمال فى كل منظر ، والنعم فى كل شئ ، واللذة فى كل عمل ؛ وأدرك بمشاعرى السليمة القوية ما انبثّ فى عالم الحس من كل متاع . وينخيل إلى من فرط الشعور وفيض السرور أن الهواء الذى أنشقه هو مدد من الروح الخالق يبعث فى جسمى النشاط وفى نفسى الغبطة

أوكد لك يا سيدى أن الغنى يجوع مثل جوعى ، ولكنه لا يشبع مثل شعبى . أنا إن أصبت شعب بطنى بأى لون من ألوان الطعام بدا على من دلائل الراحة والسعادة ما وصفته لك . أما الغنى فإنه إذا جرؤ على معدته المترفة بالشبع قضى وقت هضمه العسر الطويل وهو فاقد الشعور بالدنيا أشدة ما يلقى من حزة

الحموضة وثقل الطعام وضيق النفس وضربان القلب . وهو في الكثير الغالب مفعول أو مفعول أو مكبود أو ممرور أو مصاب بالملح أو بالسكر ، فلا بد له من الجرعات المختلفة التي تذيب الألم أو تكافح الداء أو تؤخر الخطر . وقد ينتهي به الأمر في الزمن القريب أو البعيد إلى الإمساك عن الطعام إلا ما يمسك الرمق كان لي عند الباشا ثمن أربعين مقطفاً ضفرتها لدائرتها ، فلما جثته أقتضيه الثمن أكبره وأنكره ، وتهدم على بالكلام العنيف وقال محتجاً بأسبابه واعتصابه : « إن ضفر الخوص عمل العاجز ، وإن رجلاً في مثل صحتك وقوتك لا يجدر بيديه غير الفأس والكريك » فقلت له في مثل هذا الهدوء الذي أحدثك به : « يا باشا إن نصيحتك إياي على نفاستها وقداستها لا تبرر أكلك لحق . ومن اليسير على أن أنزل لك عن هذه القروش ثم لا أنقص شيئاً ؛ ولكنك قد تزيد شيئاً ؛ وكلما زاد مالك ساء حالك . إنك قد بلغت أرذل الغنى ، ثم انحدرت إلى أسفل الفقر ؛ فأنا وأنت يا باشا سواء : أنا فقير لأنني مصاب في جيبى ، وأنت فقير لأنك مصاب في معدتك ؛ فأنا أشتهى ولا أجد ، وأنت تجد ولا تشتهى ؛ ولكن حرمانى مؤقت وحرمانك مؤبد ، ونقصى يسده الرضى ونقصك يزيد السخط ، وجيبى المفتوق يرتقه الرفاء بقرش ، ومعدتك البالية لا يجددها الطبيب بمليون »

وكنت لا أزال أرسل الكلام على هيئة وحذر مخافة أن ينفجر في وجهي على عادته مع الناس ؛ ولكن المعجزة التي ظهرت على يده أو على يدي — لا أدري — هي أن الرجل استرخى وتلين ، وبدأ على وجهه الأبكم سمات التفكير لأول مرة . ثم قال في لهجة لا تزال فيها بقية حائلة من الشموخ : « أيتك تداني على ما قتل عضلك وشد عصبك ودقق فيك هذا الدم الفوار

الحار النقي ، فليس ذلك من عمل طاهٍ ولا طيب . فقلت له في شيء من السمات : ذلك يا باشا تعويض الفقر من الغنى ، وهو صنع الله ولا حيلة في صنعه . أما الطاهي فهو الذي يقدم للغنى خيوط الكفن وهو يذسجه بأضراسه ؛ وأما الطبيب فلا يعرفه من لا يشبع . وقد قال أبو جعفر المنصور لأعرابي : « أما عندكم في البادية طبيب ؟ » فقال « يا أمير المؤمنين ، حُمُر الوحش لا تحتاج إلى بيطار » . والشبه بين حالنا وحال البدو في الخضوع لقانون الطبيعة واضح ...

قطعت الحديث على الشيخ منصور بهذا السؤال : أتكره أن تكون في مكانه وهو في مكانك ؟ فأجاب الخبيث : لا أقبل ثروة قارون إذ لم أحتفظ بمعدة منصور ، ولا أرفض وزارة المالية إذا أسندوا إلى معها وزارة الصحة !



كيف عالج الإسلام الفقر

[٩ فبراير سنة ١٩٤٢]

ألق عن عينيك هذا المنظار السحري الذى صنعه الأدب والفن ، ثم انظر إلى الحياة فى شتى مظاهرها تجدها معركة هائلة على القوت لا تنقطع ولا تفتر . وهذه المعركة التى لا ندرك لها طويلاً فى الدهر ، ولا عرضاً فى الكون ، لا تنفك رحاها تلفظ على جنباتها قتلى وجرحى ؛ وأولئك هم الذين خذلهم الضعف فماتوا شهداء ، أو عاشوا فقراء . أما الموت فلا حيلة لأحد فيه ؛ وأما الفقر فهو الداء العياء الذى خامر الإنسانية منذ طبعها الله على القدرة والعجز ، وبرأها على السكال والنقص . وهذا الداء كان وما زال موضوع الطب الاجتماعى يخفف برحاه بالمرقد ، ويكفكف غلواه بالتأمم ؛ ولكن دواءه الناجع ظل من وراء إمكانه حتى وصفه الله فى دينه ، وطبقه فى شرعه ، فأنحست العدوى وانكشفت البلوى وبرئت العلة . فإذا رأيت فى وطن الإسلام طرائد للفقر وفرائس للجوع فصدق الله وكذب نفسك . إن ما ترى لم يعد ذلك الوطن الذى أشرق بنور الله وتعطر بريح الجنة ، إنما هو طلل ترحل عنه أهله ، ومريض فرط فيه أساته ، ومسلمون انطمست فيهم معانى القرآن فتعبدوا بأفاظه ، وحاكون أعضائهم أصول الحكم فاكثفوا بصوره . فلو كان الإسلام رأى فى الحكومة وسلطان على الأمة لكان الوطن كله أسرة ، والناس جميعهم إخوة ، تجد فيهم الفقير ولا تجد المحروم ، وترى بينهم الضعيف ولا ترى المظلوم ؛ لأن شريعة الله جعلت بين الغنى والفقير سبباً هو البر ، وأنشأت بين القوى والضعيف نسباً

عالم الإسلام الفقير علاج من يعلم أنه أصل كل داء ومصدر كل شر . وقد أوشك هذا العلاج أن يكون بعد توحيد الله أرفع أركان الإسلام شأنًا ، وأكثر أواصره ذكرًا ، وأوفر مقاصده عناية . ولو ذهبت تستقصى ما نزل من الآيات وورد من الأحاديث في الصدقات والبر ، لحسبت أن رسالة الإسلام لم يبعث بها الله محمدًا آخر الدهر إلا لتنقذ الإنسانية من غوائل الفقر وجرائر الجوع . وحسبك أن تعلم أن آى الصيام في الكتاب أربع ، وآى الحج بضع عشرة ، وآى الصلاة لا تبلغ الثلاثين ؛ أما آى الزكاة والصدقات فإنها تربي على التحسين

كأنما اختار الله لكفاح الفقر أشح البلاد طبيعة وأشد الأمم فقرًا ليصرعه في أمنع حصونه وأوسع ميادينه ! فإن الفقر إذا انهزم في قفار الحجاز كانت هزيمته في ريف مصر وسواد العراق أسرع وأسهل . ثم اختار الله رسوله فقيرًا ليكون أظهر لقوته ، كما اختاره أميًا ليكون أبلغ لحجته

كانت جزيرة العرب إبان الدعوة العظمى مثلاً محزنًا لما يجنيه الفقر على بني الإنسان من تضرية الغرائز ، وتمزيق العلائق ، ومعاناة الغزو ، ومكابدة الحرمان ، وقتل الأولاد ، وفش الربا ، وأكل السحت ، وتطفيف الكيل ، وعنت الكبراء ، وأثرة الأغنياء ، وققد الأمن ، وانحطاط المرء إلى الدرك الأسفل من حياة البهيم . فلما أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق كانت معجزته الكبرى هذا الكتاب المحكم الذي جعل هذه الأشلاء الدامية جسمًا شديد الأسر عارم القوة ، ونسخ هذه النظم الفاسدة بدستور متين القواعد خالد الحكمة ؛

ثم كانت بؤادر الإصلاح الإلهي أن قلم أظفار الفقر ، وأسا كلوم الفقراء ،
 وقع جرائر البؤس ، فألف بين القلوب ، وآخى بين الناس ، وساوى بين
 الأجناس ، وعصم النفوس من القتل الحرام ، وطهر الأموال من الربا الفاحش ؛
 ثم عالج الداء الأزلى نفسه بما لو أخذ به المصلحون لوقاهم شرور هذه الحروب التي
 أمضت حياة الناس ، وكفاهم أخطاء هذه المذاهب التي قوضت بناء المجتمع :
 عالجه بالسفارة بين الغنى والعقير على أساس الاعتراف بحق التملك ، والاحتفاظ
 بحرية التصرف ، فلا يُدفع مالك عن ملكه ، ولا يعارض حري إرادته . إنما
 جعل للفقير في مال الغنى حقاً معلوماً لا يكمل دينه إلا بأدائه ! ذلك الحق هو
 الركن الثالث من الأركان الخمسة التي بُنى عليها الإسلام ، فلا هو فرع ولا نافلة
 ولا فضلة . وليست الزكاة بالقدر الذي يخفى أثره في حياة الفقير ؛ فهي ربع العشر في
 المال وما يُقدَّر بنحو ذلك وغيره . فإذا جبيت الزكاة بالأمانة على حسابها المقدَّر ،
 ووُزعت بالعدالة على نظامها المفروض ، شفت النفوس من الحقد ، وأنقذت
 المجتمع من البؤس ، فلا تجد سائلاً في شارع ، ولا جائعاً في بيت ، ولا
 جاهلاً في عمل

ولم يقف الإسلام في علاج الفقر عند فرض الزكاة ، وإنما شرع للبر
 في العبادات والمعاملات موارد لا يأسن لها معين ولا ينقطع عنها رافد :
 يحنث الرجل في يمينه فيكفر بإطعام عشرة مساكين من أوسط ما يطعم
 أهله ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة
 ويقسم ألا يفعل شيئاً ، ثم يرى أن فعله خير من تركه ، فيكفر بإطعام
 المساكين ثم يفعله .
 ويظاهر من زوجه ثم يبدو له أن يعود ، فيطعم ستين مسكيناً أو

ويرمى فيقتل نفساً عن غير عمد ، فيطعم أو يعتق فضلاً عن أداء الدية
 ويعجز عن صوم رمضان لسقم أو هرام ، فيفطر ويطعم كل يوم مسكيناً .
 ويفطر عامداً في رمضان من غير علة ، فيطعم ستين فقيراً أو يفك رقبة .
 ويخل الحاج بشرط من شروط الحج فيكفر عنه بذبح يقدمه للمساكين .
 ويتجرد عن الخيط فإذا لبس شيئاً منه لزمته الفدية
 ويرزق الرجل غلاماً فيعق عنه بذبيحة يطعمها الفقراء يوم أسبوعه
 ويقبل عيد الصوم أو عيد الحج فيجب على الأغنياء أن يرفهوا عن الفقراء
 بركة الفطر . أو بلحوم الأضاحي
 وينذر المسلم لله نذراً فيوجب الدين عليه أن ينفي به برّاً بالفقراء وعوناً
 للمساكين .

ويعجز الرجل عن تكاليف العيش فيوجب الدين على من يرثه بعد موته
 أن ينفق عليه ! فينفق الابن على الأب ، والأب على الابن ، والأخ على الأخ ،
 والزوج على الزوج ، عملاً بالقاعدة الإسلامية الحكيمة : (التَّوْبَةُ بِالْغَنَمِ) . ولقد
 رأى الفاروق عمر بن الخطاب يهودياً لا يقدر على شيء ، فوقف به ثم قال له :
 ما أنصفناك أيها الذمي ! أخذنا منك الجزية في قوتك ، فيجب ألا نضيعك في
 ضعفك . ثم أجرى عليه من بيت المال ما يمسك نفسه

وجاءت الشريعة بالوصية لمن حضره الموت : يوصي بثالث ماله لوجوه البر
 فضلاً عن الوصية للوالدين والأقربين

ونوهت السنة بالصدقة الجارية ، فكانت بركة من بركات الرسول الكريم

على المرضى والزَّمنى وذوى الخصاصة وأبناء السبيل وطلاب العلم وحجاج البيت ،
 بما وقف عليهم أولو الفضل والسعة من المستشفيات والملاجئ والخانات والزوايا
 والأربطة والمدارس والمساجد والمكاتب . وكفى شهيداً على أثر (الصدقة
 الجارية) فى علاج الفقر وإشاعة البر ، أن تحصى الأوقاف فى الأقطار الإسلامية ؛
 ثم تنظر فيما حُبست عليه من وسائل الإصلاح ووجوه الخير ؛ ثم تحكم على
 ما قدمت لذوى الحاجات والعاهات من إحسان لا يغب وإسعاف لا يغيب

كل أولئك إلى ما جاء فى كتاب الله وفى سنة رسوله من الحث على
 الإنفاق فى سبيل الله ، والترغيب فيما عند الله من حسن المثوبة ، بفنون من
 القول الرائع والتشبيه المحكم

كذلك عالج الإسلام الفقر من طريق آخر غير طريق الزكاة والصدقات
 والكفارة : عالجه من طريق الكسر من حدة الشهوة ، والكف من سورة
 الطموح ، والغض من إشراف الطمع ؛ فرغّب الغنى فى الزهد ، وأمر الواجد
 بالقناعة ، ومدح الفقير بالتعفف .

ذلك ما عالج به الإسلام داء الفقر الذى أعايا الإنسانية منذ الدهر الأول .
 وهو على إحاطته وبساطته ونجوعه ينهض وحده دليلاً على أفن الذين يقولون إن
 دستور القرآن لا يأتلف مع المدنية ، وشريعة نابليون أصلح للناس من شريعة الله ،
 ونظام مرسى كس أجدى على العالم من نظام محمد
 فلو أن كل مسلم أدى حق الله فى ماله ، ثم استقاد لأريحية طبعه

وكرم نفسه ، فأعطى من فضل ، وواسى من كفاف ، وآثر من قلة ؛ ثم
 قيض الله لهذا كله من ولاة الأمر من يجمعه على أكمل حال ، ويديره
 على أفضل وجه ، ويوزعه على أعدل قسمة ، لكان ذلك عَسِيًّا أن يُقر
 السلام في الأرض ، ويُشيع الوثام في الناس ، فتهدأ ضلوع الحاقد ، وترقأ دموع
 البائس ، ويسكن جوف الفقير ، ويذهب خوف الغنى ، ويتذوق الناس في ظلال
 الرخاء ، سعادة الأرض ونعيم السماء !



على المصطبة

[٢ مارس سنة ١٩٤٢]

على المصطبة الغبراء وفوق حصيرها الخشن جلس (البك) وفي عينيه نظرة يكسر من طولها الخجل ، وعلى شفثيه بـمة يمد في عرضها الملق ، وفي يمناه مسبحة يقطر من حباتها الرياء ، وفي يسراه صحيفة لا تزال على طية البريد ، وتحت قدميه بقية من وحل الشتاء تهدد حذاءه اللامع ، وبين يديه وعن يمينه وعن شماله جلس الفلاحون يسارق بعضهم بعضاً نظراً المستفهم عن سر هذا التواضع الغريب ، وسبب هذا التنازل المعاجيء ، ورب الدار يذهب ويحییء في ربكة تبدو دلائلها على حركاته المضطربة ، وكلماته المتقطعة ، وتحياته المتكررة

صحيح أن صاحب المصطبة رفيع الصوت في القرية ، نافذ الرأي في الناس ؛ ولكنه منذ أيام قلائل كان في دائرة (البك) فريسة لغضبة هوجاء من غضباته أخذته بالشم والطم والسخرية ، لأنه جرؤ على أن يسأل (السكاتب) عما له من حساب الإجارة ، وأن يعترض على (الناظر) فيما عليه من نفقات الإدارة . ومن العسير على المنطق المحض أن يستخرج هذه النتيجة من تلك المقدمة

كان البك المالك يرد التحيات الساذجة بالانحناء والإيماء والتحنى ؛ فكأنما انقلب جانباً معطفه الأسود جناحين رءومين يرفرف بهما على بنيه ! وكان أكبر القرية قد تسامعوا بمقدم (مالکهم) على حال من التظامن والتبسط لم يألوها منه ، فأقبلوا على المجلس الذي شرفته سيارته بالوقوف عنده .

ومهما يكن البك عي اللسان قليل الذهن فلا بد أن يتكلم ايكشف عن سر قدومه . وقد استأذنت الشيخ منصورا راوى هذا الحديث أن أترجمه بلغة الناس فأذن

قال البك : لم أزركم منذ خمس سنوات لأن أعمال مجلس النواب لم تدع لى وقتاً يتسع للاهتمام بأسرتى ، ولا للتفكير فى معدتى ، فكنت فى أغلب الأحيان لا آنس بأهلى ولا أهنأ بطعامى

فقال الشيخ منصور مقاطعاً : ولكننا يا صاحب السعادة لم نقرأ لك كلمة واحدة فى محضر من محاضر المجلس

فقال البك : ذلك لأن فى المجلس فريقاً يتكلمون وفريقاً يعملون ؛ وأنا من هذا الفريق

فقال الشيخ منصور بلهجة المستدرك الخبيث : ولكم لم تفارق العزبة فى أكثر الأيام التى ينعقد فيها المجلس !

فقال البك : ذلك لأن الكلام يكون فى داخل المجلس ؛ وأما العمل ف يكون فى خارجه

واندلق مالك القرية فى الكلام لياخذ على الشيخ منصور سبيل الرد فقال : وقد أخذت الحكومة برأى فى كثير من مشكلات التموين وأزمات الحكم ، واستفاد النواب من اقتراحاتى واعتراضاتى فى (بوفيه) المجلس وفى لجانه ، ولكنى إذا انتخبت هذه المرة فساوزع مواهبى وجهودى بالعدل بين الحكومة والأمة ، وبين القرية (والدائرة) . سأنظر بعين الرحمة إلى ما يكابده إخواننا الفلاحون من الغلاء المرهق ، والعناء المعنى ، والمرض المضى ، والجهل المطبق ، والعيش الحسيس ؛ فأخفض الإيجار ، وأردم البرك ، وأرم المسجد ،

وأعيد المدرسة ، وأحمل الحكومة على أن تمدكم بالماء النقي والنور الكهربائي ،
 وأن تخصصكم بوحدة طبية أقل ما يكون فيها صيدلية وطبيب
 ولعلي بذلك أكون قد أوفيت لكم بدمتي ، وقضيت للوطن واجب
 خدمتي ، وأدبت لله زكاة قدرتي وثروتي
 وكانت عين البك لا تنفك تراقب وجه الشيخ منصور ، فلما رآه يتحفز
 لا كلام بادره بقوله :

— وأنت يا شيخ منصور ! ما هذا الحديث الذي قرأته لك في (الرسالة) ؟

— أى حديث تعنى يا بك ؟

— حديثك عن صحة الفقير وثروة الغني

— لقد قلت شيئاً كهذا ولكني لم أنشره

— زرنى غداً في العزبة فأريك عدد الرسالة وأسر إليك بعض الحديث

قال البك ذلك ونهض فودع الناس ثم ركب سيارته الفخمة وذهب

يعيد هذه الأسطوانة نفسها في قرية أخرى !

وأقبل القوم بعضهم على بعض يتساءلون : لماذا يُعنى البك نفسه هذا

العناء ، ويستخذى للناس هذا الاستخذاء ، وهو بحمد الله ضخم الثروة

فلا يحتاج إلى مكافأة البرلمان ، زَمِنُ المروءة فلا يصلح بطبعه لخدمة إنسان ؟

فقال الشيخ منصور : إن في أربعين جنياً لمُضرباً ، وإن في مزايا النيابة

لطماعية . وإن الله الذى فطر بعض النفوس على الأثرة والشح جعل من خصائصها

الوضاعة إذا تسامى المطلب ، والضراعة إذا تجافى المظمع . وقد رأيتم هذا الرجل

المتكبر المترفع الكز كيف طامن من كبره ، وردَّ من جماحه ، وبسط من

يده ، لتعظوه أصواتكم في الانتخاب ، حتى إذا انتخب عاد إلى معاملتكم بالسفه ، ومحاسبتكم بالدناءة ، واستغلالكم بالشره ، ومقاطعتكم بالأنفة . إنه هو وأمثاله لا يرون للفلاح قيمة ولا كرامة إلا في أيام الانتخاب . وقد كنا أحرى أن نعطي أصواتنا إلا من يعيش عيشنا ويشعر شعورنا ويتألم ألماً ؛ فإن منطق الطبع يقول إن خصمك لا يدافع عنك ، وسيدك لا يحب حريتك فصاح أحد الحضور : ولم لا ترشح نفسك ونحن نضمن لك أصوات القرية ؟

فقال الشيخ منصور : إني — وأسفاه — لا أحرص من النصاب قيراطاً ولا أملك من التأمين بارة ! والنصاب والتأمين عقبتان وضعهما قانون الانتخاب في سبيل الكفايات الفقيرة ؛ كأن المال شرط في صدق الجهاد للوطن وإخلاص النيابة عن الأمة . وإن مثلك في ضمان أصوات القرية واستسهال ما بعدها كمثل السائح الذي لقي في بعض طريقه نعل حصان واحدة فالتقطها ثم ضمها إلى صدره وقال :

آه ! وافرحته ! بقي ثلاث كهذه وحصان ثم أركب !



بين ناخب ونائب

[١٦ مارس ١٩٤٢]

بين غداة وعشية أمسى غنينا الطافح عضواً بالتزكية في مجلس النواب .
والفوز بالتزكية هنا معناه امتناع المنافس لا انقطاع النظر ، وخلو الميدان لا بطولة
الفارس . ومع ذلك نصب البك السراق ، وقدم الحلوى ، وتقبل التهنئات ،
وسمع بأذنيه الطويلتين القصائد العور والخطب البتر في الإشادة بالكفاية العالية
فيه ، والثقة الغالية به ، والخير المرجو منه . وللريف شعراء وخطباء كمصافير
الحصاد : تقع في الجرن ولا تقع في الروض ، وترقزق للحنة ولا ترقزق للزهرة ،
وتكرر أغرودتها الواحدة ولا تقصد بها معنى غير فرحها هي بسعة البيدر
وضخامة العرمة !

ولكن البك وحده هو الذي صدق هذه التفاعيل العروضية فانتفش
انتفاش الديك ، وراح يَعدُّ ويُمَنِّي ، ويعدُّ ويَمَنِّ ، ويفخر ويفيش ، ويزعم
أنه باجتهاده وجهاده سيجعل المجلس يبسط الأرزاق ، ويطيل الأعمار ، ويضمن
لكل ناخب في دائرته قصرأ في الدنيا وقصرأ في الجنة . كان الرجل يتنفخ
والناس يجاملون بالإصغاء ، ويتجملون بالصبر ، إلا صديقنا الشيخ منصوراً فقد
قال في شيء من حدة الصراحة وشدة الحجاج :

— ذلك يا بك كلام من لغة التحيات والمجاملات تردده الألسن بحكم
العادة ولا تريد به شيئاً . هو أشبه بقولي : (أهنئك بالفوز) وما كنت أريد
انتخابك ، أو قول اللص : (السلام عليك) وهو يريد انتهابك . ولو كانت

الوعود البرلمانية في آخر الانتخاب ، والبرامج الوزارية في أول الدورة ، من الكلام الذي يقصد به معناه ، لما بقي في صحارى مصر شبر يشكو الظمأ ، ولا في مساكن مصر فرد يشكو الجوع ! لقد قلم كثيراً ولم تفعلوا ، فحاولوا هذه المرة أن تفعلوا ولا تقولوا !

— أنت يا شيخ منصور كاضرس الخالف في دولاب الساقية ! لا يجري كلامك مع الكلام ، ولا يقف رأيك مع الآراء ! ماذا تريد أن يفعل النائب أكثر من أن يمثل الأمة ، ويشرع القوانين ، ويبحث الميزانية ، ويراقب الحكومة ؟

— ذلك هو المفروض يا بك ! أما الواقع فهو أن بعضكم متى دخل البرلمان لا يمثل إلا نفسه ، ولا يقضى إلا حاجته ، ولا يراقب إلا عدوه . ويصوت على القانون في قاعة المجلس بالإقرار ، ثم يكون هو أول من يطلب خرقه في ديوان الحكومة بالوساطة !

إن ما يُطلب من الحكومة والبرلمان في شؤوننا العامة ، لا يزيد كثيراً على ما يُطلب من صاحب العزبة في شؤونته الخاصة : استصلاح الأرض والانتفاع بكل ما فيها ، ثم تدير القوت والصحة والمعرفة لكل من يقوم عليها . ليس لنا مستعمرات تقتضى إدارتها النشاط والحكمة ، ولا أسواق تجارية تطلب مراقبتها الذكاء والخبرة ، ولا سياسة خارجية تحتاج معالجتها الدهاء والقوة . ها هي ذى عشرون سنة مرت على مصر ولها استقلال وفيها برلمان ، فهل تستطيع أن تقول إن المصرى الآن ، أصبح خيراً مما كان ؟ إن هذه العشرين سنة غيرتُ نظماً وخلقت أُمماً وقلبت الدنيا كلها رأساً على عقب ؛ ولكنها مرت على النائمى في الكهف مرور الحلم المزعج ، حرك الأجسام بعض الحركة ، وترك

المشاعر ساكنة كل السكون

— ما هذه الفلسفة يا شيخ منصور ؟ هل تستطيع أن تقول لى أنت متى تركوا الحكومة تستقر ، وخلقوا البرلمان يعمل ؟ إن الدستور فى الأمة كالمصباح فى الصحراء ، لا ينشر ضوءه إلا إذا تركته الرياح آمناً

— لو تفلسفت يا بك كما أتفلسف لتبينت أن استقرار الحكومة واستمرار البرلمان لا يكونان مع سياسة الكلام ، فإن سياسة الكلام هى سياسة الفراغ ، وإذا شغلها شاغل فهو المراء والمكابرة والمهاترة والخصومة . وكلما علا صوت على صوت ، وظهرت دعاية على دعاية ، انقلبت الأوضاع ، وتغيرت المكاتب ، وتبدلت المناصب ، وتعطلت المواهب ، وتقوض المبنى ، وانتكث المفتول ، وتوقف السائر . أما سياسة العمل فتهيئ لكل ذهن ما يشغله ، ولكل يد ما تعمله . وإذا اشتغلت الأذهان وعملت الأيدي ، عيئت الألسنة فلا تجادل ، وائتلفت القلوب فلا تختلف ، وانقطع دابر القوالين فلا تعود الحزبية تجارة ولا السياسة حرفة

— إن الدلائل يا شيخ منصور تبشر بصلاح الحال . وما دام الأمر فى يد أهله فانظر إلى المستقبل نظر المتفائل الآمل

— لا تكننى إلى المستقبل يا بك . إن من يضيع يومه لا يجد غده . ومن يفرط فى عاجل الشهادة طمعاً فى آجل الغيب كان حقيقاً ألا يدرك شيئاً

— وماذا تريد أن أصنع لك الآن ؟

— أريد أن تنزل عن مكافأته البرلمانية لداثرتك الانتخابية . إنك والحمد لله ضخم الثراء رفيع العيش ، فلا أقول إنك طلبت النيابة كما يطلب الناس الوظيفة . وإن أربعين جنيهاً فى كل شهر تقسم على ثمانى قرى لا تدع

فيها أُمِّيًّا واحداً قبل انقضاء الدورة . ولا أعتقد أنك تؤدي إلى أمتك في طول نيابتك عملاً أرفع ولا أنفع من هذا العمل .

— ولكنك تطلب ما لا يطلبه أحد في أمة من الأمم

— وهل تجد في أمة من الأمم فقراء في مثل فقرنا يعطون ، وأغنياء في مثل غناكم يأخذون ؟ إن النيابة عندهم بذل وتكليف ، ولكنها عندنا ربح وتشريف . وإن أكثركم ليسخرو بالآلاف في سبيل الدعاية لها والظهور بها ؛ فهل يضيركم أن تنزلوا لنا عن هذه العشرات فتحفظوا مهجاً من النلف وعقولا من الجهالة ؟

— كلامك يا شيخ منصور سديد ورأيك أسد . وإني أعدك ألا أعارض إذا قبل الآخرون

— أي آخرين تريد يا بك ؟ ولم لا تسن أنت هذه السنة الحسنة فيكون لك أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم يحل المجلس ؟

— يحل المجلس ؟ قل إلى يوم تنتهي الدورة يا شيخ ! قال الله ولا فالك ! لقد شغلنا بثر ترك عن تحية الناس . ثم أشاح البك عن الشيخ وأقبل على المهنيين يوزع عليهم تحياته الشريفة ! فلما أعدناها على ترتيبه خرجت لحسن حظ الأدب منظومة في هذا البيت :

أهلاً وسهلاً ، طيبون ، وحشيتنا سلمات ، إزَّيك ، وكيف الحال ؟



ربيع و ربيع

ترجمة ص. ورة



هذا ربيعكما يا فتاتي الفاتنة ويا طفلي الجميلة : صفاء من
سلام النفس يفيض بشراً في العين وطلاقة في الوجه ،
ورواء من ألق الشباب يشعُّ نوراً في السماء وسروراً في الأرض ،
ورخاء من نعيم الطبيعة ينتشر عطوراً في الجو وزهوراً في
الروض ، وانتشاء من رحيق العيش يشيع لذة في الحس وبهجة
في القلب ، وهدودة على أرجوحة الحب تذهب مع الأمل
الباسم وترجع مع الرضى السعيد

هذا ربيعكما يا فتاتي الفاتنة ويا طفلي الجميلة : استغراق في
أمان الله ، وإطلاق لمتاع الحياة ، واتساق ربيع العمر مع
ربيع العام ، واتحاد الجمال البشري بالجمال الإلهي الماثل في وِشاء
الحقول وأفواف الخائل وأعطار النسيم وألحان الطير وأنفاس
الأحبة . فأين — بالله ربكما — أجد الفرق بينكما وبين ملكين
يعتنقان في نشوة الخلد ، ويأتلقان في وضاعة الفردوس ؟ أفي
النظرة الساهمة ، أم في البسمة الحاملة ، أم في الفتنة النائمة ،
أم في الخلو الحقيق بالظهر ، أم في الحنو الخليق بالأمومة ، أم في
الذهول الغريق في اللذة ، أم في الصبي الذي يضوع بريح
الجنة ، أم في الحلم الذي يصل باللانهاية ؟

هذا ربيعكما يا فتاتي الفاتنة ويا طفلي الجميلة ؛ وما كان
أحرى الناس أن يكون لكل امرئ ربيع مثله ! ولكن

النفوس إذا عاث فيها الشر أجذبت فلا ترتبع ، واضطربت
فلا تطمئن !

هذا ربيعنا يا زهرتيّ النضيرتين يلفح بالسموم ويطفح
بالموم ويضطرم بالعداوة ! كأنما استخلف الله الشياطين على
حكم الأرض ؛ ففي كل دولة إبليس ، وفي كل أمة جهنم . ومن
طباع الأباليس كراهة الفراديس . فهم لا يريدون سلاماً في
وطن ، ولا يحبون ربيعاً في زمن ، ولا يدعون آدم في جنة .
هذا مفيسـتو فولس النازي وشمهورش الفاشي أصابهما الله بنمو
القرون فجأة ، فتأبها وتألها ونازعاه ملكوت الأرض ، فأحدهما
يريد أن يعبد الغرب ، والآخر يريد أن يعبد الشرق ؛
وهما لذلك يحشدان كل ما في الجحيم من سموم ونيران ومُحم
ليدمرا في أيام معدودات سكان الدنيا وحضارة الدهر ! والعالم
كله قد وقف أمام الشيطانين موقف الدفاع ، لا تنتج معاملته غير
الخراب ، ولا تخرج مصانعه غير الموت ، ولا تحرك دوله غير
الجيوش ، ولا يفكر ناسه إلا في الحصون والخنادق والأسلحة
والخبايا والأقنعة !

فكيف يكون لربيعنا في هذا الجذب ازدهار ، ولنفسنا
على هذا الفرع استقرار ، ولحضارتنا مع هذا البلاء استمرار ،
ولحياتنا على هذه الحال الحزنة جمال ولذة ؟ !

لعن الله يا ابنتي حواء شياطين الإنس وشياطين الجن ، فإنهم
لو لم يخلقوا لكانت الأرض كلها جنة ، والناس كلهم ملائكة ! ...

لأبد للإسلام من مؤمن

[٣٠ مارس سنة ١٩٤٢]

جلست ذات أمسية إلى المذياع أتقبل فيه بسمعي المرهف بين برلين وباري ولندن وموسكو وطوكيو وباريس وأنقرة ، وكلها تذيع باللغة العربية ، وتوجه الكلام إلى الأمة العربية . فقلت في نفسي : سبحان الله ! ما هذه العناية اليقظة بنا ، والاهتمام البالغ بلغتنا وأدبنا ، كأننا لا نزال نملك زمام الدنيا ونصرف عنان القدر ! ثم أعلن المذيعون أنباء الحرب في ميادينها المختلفة ، فإذا هم يذكرهم : أفريقية الشمالية ، ومصر ، وفلسطين ، وسورية ، والعراق ، وإيران ، والهند ، والصين ، والملايو ، وسنغافورة ، وجزر الهند الشرقية ؛ وكلها مواطن الأم الإسلامية ، ومسارح الثقافة العربية ، وليس من أهلها المغير ولا المدافع ؛ وإنما هم كثرة الأرض وعروض التجارة خسارة للمغلوب وربح للغالب . فعدت أقول لنفسي : ما أشبه تلك الإذاعات اللينة العطوف بالرقي الساحرة ، يسلطها المفترس على أعصاب الفريسة لتخدر وتنام فلا تنشب في حلقه ولا تضطرب في جوفه ! وما أعجب ألا تشب الحرب الاستعمارية ، وتضارع الدول القوية ، إلا حيث يملك العرب ويعيش المسلمون ، كأنما أصبحوا سلباً لكل غاز ونهباً لكل غاصب !

ألم يكن هؤلاء الناس أعقاب أولئك الفاتحين الذين نزل على حكمهم الدهر ودخل في ملكهم العالم بضعة قرون ؟
أليس هذا الإسلام الذين يؤمنون به اليوم هو إسلام ذلك الخليفة العباسي

الذى نظر ذات يوم إلى السعائب أُلجئون تزجيتها الرياح الرُّعن إلى أقاصى الأرض ، فقال فى لهجة تم على العزة والجلالة والشكر : « أمطرى يا سحائب حيث شئت فإن خراجك لى ! »

بلى ، هؤلاء أعقاب أولئك ، ولكن الدين الذى يعتقدونه لم يعد دين ذلك الخليفة ؛ إنما هو بقية من الإسلام الأول حالت ثم آلت إلى صوفية بلهاء لا يفريق المسوسُ بها من الغفلة ، ولا ينشط من الخمود ، ولا يبالى أن يبلغ ساحل الحياة مركوباً على ظهره أو مسحوباً على وجهه ! والدين والعلم مآلها فى النفوس الضعيفة والعقول الخفيفة إلى الترهات والأباطيل : فأيلولة السكيميااء إلى البحث عن حجر الفلاسفة ، وعلم الملك إلى التنجيم والسحر ، كأيلولة الإسلام إلى هذه العقيدة الملفقة التى زُيف فيها الإيمان بالقدر حتى أهمل الناس التوقى استسلاماً للقضاء ، وتركوا السعى اعتماداً على (القسمة) . و « إن الله لا يسيّر ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال »

وإئن سألتنى بعد ذلك : هل بلغ العلماء رسالة الله لأقولن لك : « لا » مغلظة مكبرة مكررة ! وأكبر الظن أنهم لا يؤمنون بأن لهم رسالة وأن عليهم تبعة

رجال السياسة يعملون بحق أو بباطل ، ورجال الحكم يتصرفون بعدل أو بظلم ؛ أما رجال الدين فى ممالك الوطن الإسلامى كله فقد قنعوا باللقب والزى ، واكتفوا بالشعب والرى ، ورضوا أن يكونوا متوناً لذوى الطمع ، وحواشى لأولى النعمة ، وهوامش على صفحة الحياة !

على أن سلطان الدين أكمل وأشمل من سلطان السياسة وسلطان الحكم ؛

فإن هذين لا يتجاوزان بقعة من الأرض ولا أمة من الناس ؛ ولكن ذاك
ينبسط على كل مكان فيه لله ذكر ، ويهيمن على كل إنسان له في الإسلام
فكر . وعلماء الدين هم الطوائف التي نفرت من كل فرقة ليتفقهوا في الدين
ولينذروا قومهم ؛ فإذا تفقهوا ولم ينذروا ، أنكروا ما خلَقوا له ، وعصوا
ما أمروا به . وليس الإنذار أن يلهجوا بذكر الحساب والعذاب ، وإنما الإنذار
أن ينهوا الخطيئة ، ويوجهوا الحائر ، ويرشدوا الغوى ، وينصبوا في مجاهل
الأرض أعلام الطريق

لو كان علماء الإسلام يعملون لكان لهم مثل ما للبشرين والمستعمرين
والمستشرقين من المؤتمرات التي تعقد العام بعد العام ، في الدولة بعد الدولة . والله
قد فرض على المسلمين أمثال هذه المؤتمرات العامة بالحج . وإذا كان وفود
العلماء من الأقطار المختلفة إلى إحدى المدن تعوقه الأهواء والظنون ، فإن وفودهم
إلى مكة لا يعوقه غير الشيطان ، ورجال الدين والحمد لله في عصمة منه

لا بد للإسلام من مؤتمر يجمع زعماء الرأي في أهله ليجددوا ما درس منه ،
ويوضحوا ما التبس فيه ، وينفوا عنه ما غشيه من أساطير القرون وأضاليل النحل ،
ويجלוه للناس كما كان صالحاً للحياة ، كافلاً للفوز ، ضامناً للسعادة

لا نطمح أن يجتمع هذا المؤتمر اليوم ، فإن الزلزلة التي لا تنفك آخذة
بأقطار الأرض وأفكار الناس تجعل العقاب^(١) والسدود من دونه ، ولكنا نطمح
أن يفكر أولو الأمر فيه ويهيئوا الأسباب له ؛ حتى إذا عادت السلم وتحلق زعماء
الأمم حول الموائد الخضر لإقرار السلام الدائم واختيار النظام الملائم ، اجتمع
كذلك علماء الإسلام ليعرضوا على العقول الحائرة والأجسام الخائرة نظام الله

خالصاً كما أوحاه ، صافياً كما أنزله . نعم لا بد للإسلام من مؤتمر يقيم بين
البهرج والصحيح حداً من نور الحق يجتمع عليه القطيع الشارد ، ويهتدى
إليه الركب المضلل . ولكن ليت شعري من الذى يفكر فى هذا المؤتمر ويعمل له
ويدعو إليه ؟

لقد عقدنا الآمال بالأزهر فى كل ذلك ، فهل عقدناها بلعاب الشمس؟^(١)
كانت (جماعة كبار العلماء) معقد الرجاء ومناطق الثقة ؛ وكانت هذه
الجماعة فى نظامها الجديد عسيرة أن تدعو إلى هذا المؤتمر بعد الحرب فى العيد
الألنى للقاهرة ؛ وكان الظن ببرنامج الإصلاح الذى اقترحه شبابها المصلحون ،
وأقره أقطابها المخلصون ، أن يكون نواة الإصلاح ونقطة التحول ؛ ولكن
جندياً باسلاً من جنود الإصلاح الدينى كتب إلينا يقول : إن برنامج الإصلاح
أدركته أزمة رجعية توشك أن تحنقه فى درج المشيخة . فإن عضواً من الجماعة
يوجس منه شراً ، فهو ينسج حوله الشكوك ويؤلب عليه القوى ، وقد نجح
فى ذلك !

فهل يجوز فى ظن امرئ أن يكون فى كبار العلماء من يشتبه عليه الحق
والباطل والخير والشر والصالح والفساد ؟ ذلك ما لا نصدقه ، ولا نود أن تجرى
الأمور بما يحققه

(١) لعاب الشمس : شئ، كأنه ينحدر من السماء إذا قام قائم الظهيرة تراه مثل نسج
العنكبوت ، ويقال له مخاط الشيطان أيضاً



أرواح وأشباح

[١٣ إبريل سنة ١٩٤٢]

على الضفة الشجراء من مصيف المنصورة عرفت «على محمود طه» ، وعلى هذه الضفة الخضراء من مرّبعها قرأت «أرواح وأشباح» وكان بين اللقمة الأولى للصديق وبين القراءة الأخيرة للشاعر إحدى وعشرون سنة

كان حين عرفته في إبان شبابه ، وكنت حين عرفني في عنفوان شبابي ؛ وابن آدم في هذه السن ربيعٌ من أربعة الفردوس لا يُدرك بمحدود الشعور ، ولا يوصف بلغة الشعر ؛ فهو منصور الخلق ، مسجور العاطفة ، مسحور الخيلة ، لا ينشد غير الحب ، ولا يبصر غير الجمال ، ولا يطلب غير اللذة ، ولا يحسب الوجود إلا قصيدة من الغزل السماوي يُنشدها الدهر ويرقص عليها الفلك وعلى ذلك كفا أيام تعارفنا وتآلفنا : هو على حال عجيب من مواسٍ الهوى وما لا بسها من ألوان وصور ، وأنا على عهد قريب من ترجمة (آلام قرتز) وما سايرها من أحلام وذِكر !

قال لي صديقي «حسين» ونحن عائدان من نزهتنا اليومية في الشقة الخلوية من شارع البحر :

« مل بنا إلى قهوة (متيو) أعرفك بشاب من ذوى قرابتي يرضيك خلقه ، ويظربك حديثه ، وقد يعجبك شعره »

وكان شارع البحر كما هو اليوم متنزه المدينة ؛ وكان نصفه الغربي لا يزال يومئذ مخطوطاً بين النيل والحقول ، فلا ترى على جانبيه غير مماصٍ القصب ،

ومشارب الكازوزة ، وعريشة من عرائش الكرم وألفاف الشجر تتفياها
هذه القهوة

دخلنا القهوة فوجدنا في باحتها بعض الإغريق وعلى إحدى مناضدها
المنعزلة فتى رقيق البدن شاحب الوجه فاطر الطرف ، ينظر في سكون ويقرأ في
صمت . فلما رأنا هشاً بقرابه ورفاً لى ، ثم كان التعارف . وطارحناه طرفاً من
الحديث ثم طلب إليه صديقي أن ينشدنا بعض شعره ، فنشط لهذا الطلب
وارتاح كأنما نفسنا من كربه ، أو خففنا من عبئه ؛ ثم قال في سداجة الربي
ووداعة الطفل : « نشرت لى جريدة (السفور) هذه القصيدة وقدمتها بهذه
الكلمة » . ثم أدى المقدمة عن ظهر الغيب وهمَّ بإنشاد القصيدة . وكنت حين
ذكر السفور قد أصغيتُ سمعى وجمعتُ بالى ، فلم يكديفرغ من سرد المقدمة
حتى صحت به :

— أنت صاحب هذه القصيدة ؟

— نعم

— وأنا صاحب هذه المقدمة

عجيب !!

كان ذلك في سنة ١٩١٨ ؛ وكانت جريدة السفور يحررها يومئذ الأعضاء
الأصدقاء من لجنة التأليف والترجمة والنشر ؛ وكان النظر فيما يرد على الجريدة
من الشعر موكولاً لصديقي الأستاذ الجليل الشيخ مصطفى عبد الرازق ، ولى ؛
فالتقى إلينا البريد فيما ألقى هذه القصيدة عُفلاً من الإمضاء ، فقرأناها للاختيار ،
ثم قرأناها للاختبار ، فوجدنا قوة الشاعر الموهوب تطغى على ضعف الناشئ البادى ،
فضننا بها على السُّل ، وصححنا ما فيها من الخطأ ، وقدمت لها ببضعة أسطر تنبأت

فيها بنبوغ الشاعر ، ونصحت له أن يرفد قريحته السخية بمادة الالفة وآلة الفن ، وأخذت عليه أن يكره قيثاره المرح على النغم الحزين والالحن الباكي وهو لا يزال في روق الشبيبة كما يقول شعره

ثم تتبعت بعد ذلك علياً : تعقبت آثاره ، وتعرفت أطواره ، وتقصيت أشعاره ، فإذا الفراشة الهائمة في أرباض المنصورة ورياض النيل ، تُصبح « الملاح التائه » في خضم الحياة ، و « الأرواح الشاردة » في آفاق الوجود ، و « الأرواح والأشباح » في أطباق اللانهاية ! وإذا الناشئ الذي كان يختشب^(١) الشعر ويتسمح فيه ، يغدو الشاعر المخلق بجناح الملك أو بجناح الشيطان ، يشق الغيب ، ويقتحم الأثير ، ويصل السماء بالأرض ، ويجمع الملائكة بالناس ، ويقضى بين حواء وآدم !

« أرواح وأشباح » هي ملخمة الرجل والمرأة ، وقصة الفن والوحي ، وحوار الجسد والروح ، وأنشودة الشباب والحب . سما فيها الأستاذ « على طه » إلى غاية من الفن قل أن بلغها شاعر

هي حادث جديد في حياة الشعر المصري لا يزكو بالنقد الأدبي أن يهمل الاحتفال بتسجيلها في تاريخ الأدب . وهي قصيدة من النمط العالي لا تحك في أية حلقة من سلسلتها إلا ثبتت على الحك ؛ فهي في الصياغة مشرقة البيان منتقاة اللفظ ، وفي التفكير واضحة المنهج سديدة المنطق ، وفي التخيل بعيدة الغاية قريبة المأخذ . وأشهد أني قليل الاهتزاز لأكثر الشعر وأكثر الغناء ؛ ولكن « أرواح وأشباح » هزت نفسي هزاً شديداً ، فكنت أطيل الوقوف عند كل رباعية ، وأديم النظر في كل بيت ، أذوق جمال صياغته برفق ، وأستجلى سر بلاغته في أناته . وإن « الحية الخالدة » و « الفنان الأول »

(١) اختشب الشعر : قاله من غير تنوق ولا تعمل له

و « حواء » لمن الروائع التى تطول على مقاييس النقد وتدخل فى منتخبات الخلود على أن أسلوب هذه الملحمة ليس بدعاً من أسلوب على طه ؛ فإن الصفات الغالبة على أسلوبه كله هى الوضوح والأناقة والسهولة والسلامة . ومرجع ذلك فيه إلى ثقافته الرياضية . وليس كالعقل الرياضى شكيمةً للخيال الجروح يُسلس بها ويُصحب^(١) . وما دام الخيال فى قيادة المنطق طار بالفكرة فى جِواء مشرقة لا سحاب فيها ولا ضباب ، فتميز الألوان وتحدد الخطوط وتبين الصور . أما الخيال الشعري الجامح ، فهو كالحب الصوفى الجامح ، لا يجد اللفظ الذى يُسفر ، ولا العبارة التى تُبين ؛ إنما هى « شطحات » وراء الفكر لم تتضح فى الشعور ولم تستقم فى الذهن ، يحاول الشاعر أن يعبر عنها بالمجازات البعيدة والرموز الخفية ، فيغرب ولا يُعرب ، ويشير ولا يدل

إن من عادتي فى هذا المكان من (الرسالة) ألا أجامل فى سياسة ولا أدب . وربما كان من الخير فى هذه المرة أن أدافع الظنون عن هذه العادة بذكر الحكم مؤيداً بأسبابه ، وكان ذلك يقتضى تحليل القصيدة إلى عواملها البلاغية ، ولكن الكتاب فى أيدي القراء ، والتنبيه على مواضع الجمال فيه اتهام للأدباء !

(١) أسلس وأصحب : انقاد



وهذا كتاب

[١١ مايو سنة ١٩٤٢]

قال لي صديق منذ شهرين : إن العقاد يخرج كتاباً عن محمد . فقلت له : ذلك ما تمناه الناس وتوقعناه نحن منذ أخذ العقاد يعالج بعض هذا الموضوع في « الرسالة » . وامل هذا الكتاب يكون الأول في بابهِ ؛ لأن العقاد صاحب جد وصراحة ؛ فهو لا يتكلف ما لا يحسن ، ولا يحسن ما لا يعتقد ، ولا يعتقد ما لا يسوغ في المنطق . وإذا كان الذين كتبوا عن محمد إنما كتبوا للدين أو للدنيا أو للأدب أو للهوى ، فإن العقاد ان يكتب إلا للعقل . وإذا استراب أكثر الناس بأكثر هذه الكتب ، لأن صاحب الدين موافق ، وصاحب الدنيا منافق ، وصاحب الأدب خداع ، وصاحب الهوى متعصب ، فإن القراء على اختلاف ثقافتهم ودياناتهم سيُخلدون بثقتهم إلى العقاد ، لأنه سيكتب غير ما كتب هؤلاء جميعاً

ثم قدّرت في نفسى النواحي البكر التى سيطرّقتها العقاد من هذا العالم الأعظم فكأنما قدّرت عن تلقين الغيب : قدّرت أنه لن يكتب ترجمة ولا سيرة ولا قصة ، لأن الناس فى القديم والحديث ، وفى الشرق والغرب ، لم يكتبوا غير ذلك ؛ وذلك الذى كتبوه إنما كان مداره على الوحي والرسالة والمعجزة والدعوة ، وإدراك العظمة أو العبقرية فى هذه الأمور موقوف على الإيمان بها ؛ فلو أن امرأ غير مسلم حاول أن يستشف من خلال ما ينكر من هذه الصور الإسلامية صورة محمد فى نفسه ، لما وجد فيما بقى على الهامش أو علق بالإطار

ما يقنعه بأن محمداً لو لم يكن أعظم الرسل بدينه ، لكان أعظم الأبطال بخلقه
فصورة محمد في نفسه هي الناحية التي طوّف حولها الرّواد ولم يدخلوا ،
وحوّم فوقها الرّواد ولم ينزلوا ؛ وهي التي قدّرتها على التخمين في خطة العقاد ،
ثم قرأتها على اليقين في « عبقرية محمد » . وأشهد الله أني لو مضيت على الخيّـل
فيما أكتب عن هذا الكتاب لما كذبتني الظن ، ولا أخطأتني الصواب .
ذلك لأن العقاد كاتب مؤمن بالعقل والرجولة ؛ فإذا درسته أو قرأته على ضوء
هذا الإيمان تكشف لك عن منطق فحل لا يتناقض في الرأي ولا يتعثر
في الأداء ولا يتكبر باللغو ، ولا ينزل عن طبقته حتى في المقاصد المبتذلة
والمعاني المطروقة . وإيمانه بالعقل والرجولة هو الذي بعثه على أن يكتب كتابين
في أدب ابن الرومي وفي سياسة سعد زغلول على كثرة الأدباء والسياسة . فإذا
كتب عن محمد فإنما يكتب بوحى هذا الإيمان عن عبقريته « بالمقدار الذي
يدين به كل إنسان ولا يدين به المسلم وكفى ، وبالحق الذي يثبت له الحب
في قلب كل إنسان وليس في قلب المسلم وكفى » ، « وبالقياس الذي يفهمه
المعاصرون ، ويتساوى في إقراره المسلمون وغير المسلمين » « ليقم البرهان على أن
محمداً عظيم في كل ميزان : عظيم في ميزان الدين ، وعظيم في ميزان العلم ،
وعظيم في ميدان الشعور ، وعظيم عند من يختلفون في العقائد ولا يسعهم أن
يختلفوا في الطبائع الآدمية »^(١)

والحق الذي لا تجوز فيه أن كتاب « عبقرية محمد » هو التفسير الملهم المحكم
لقول الله تعالى لنبيه الكريم : « وإنا لك لعلی خلق عظیم » . ولا يدهشك

أن أقول إن شهادة الله لرسوله بعظمة الخلق ظلت مجهولة الغور والمدى والدلالة في التفسير والتاريخ حتى جاء العقاد فصورها بأبعادها وحدودها وألوانها وسماتها كأطلق ما يكون المثال وأصدق ما تكون الحجة . هل تجد معنى من معاني الأخلاق فنى في شرحه وتشريحه من الريق والمداد على طول القرون ما فنى في معنى الصداقة والصديق ؟ ومع ذلك تقرأه في فصل (محمد الصديق) من كتاب العقاد فتجده معنى من معاني العظمة لم يتمثل في ذهن كاتب من قبل على هذه الصورة . إقرأ قوله على سبيل المثال : « . . . وهنا أيضاً قد تمت لمحمد معجزته التي لم يضارعه فيها أحد من ذوى الصداقات النادرة . فأحدثت به نخبة من ذوى لأقدار تجمع بين عظمة الحسب وعظمة الثروة وعظمة الرأى وعظمة الهمة ؛ وكل منهم ذو شأن في عظمته تقوم عليه دولة وتهض به أمة — كما أثبت التاريخ من سير أبى بكر وعمر وخالد وأسامة وابن العاص والزبير وطلحة وسائر الصحابة الأولين — وربما عظم الرجل في مزية من المزايا فأحاط به الأصدقاء والمريدون من النابغين في تلك المزية ، كما أحاط الحكماء بسقراط والقادة بنابليون . بل ربما أحاط الصالحون بالنبي العظيم كما أحاط الحواريون بالمسيح عليه السلام وكلهم من معدن واحد وبيئة متقاربة . أما عظمة العظمت فهي تلك التي تجذب إليها الأصحاب النابغين من كل معدن ومن كل طراز ؛ وهي التي يتقابل في حبها رجال بينهم من التفاوت مثل ما بين أبى بكر وعلى ، وبين عمر وعثمان ، وبين خالد ومعاذ ، وبين أسامة وابن العاص : كلهم عظيم ، وكلهم مع ذلك مخالف في وصف العظمة لسواه

تلك هي العظمة التي اتسعت آفاقها وتعددت نواحيها حتى أصبحت فيها ناحية مقابلة لكل خلق ، وأصبح فيها قطب جاذب لكل معدن ، وأصبحت

تجمع إليها البأس والحلم ، والحيلة والصراحة ، والألمعية والاجتهاد ، وحنكة السن
وحمة الشباب

تلك هي بلا ريب عظمة العظمت ، ومعجزة الإعجاز في باب الصداقات «
ذلك سمو العقاد في المطروق المبتذل ، فما ظنك به حين يعالج الأحرار
الأبكار من معاني العبقرية المحمدية في السياسة والإدارة والرياسة والبلاغة ؟
أما تحليله البراعات الخلقية والنفسية في محمد الزوج والأب والسيد والعايد ،
ودفعه الشبهات المريضة عن دعوة الرسول وعظمته في تحكيم السيف وتحليل
الرق وتعدد الزوجات ، فغاية الغايات في دقة الفهم وشدة الحُجاج وقوة الأسلوب .
ولو لا أن العقاد أدركه نسيان الإنسان فأراد غار ثور وكتب غار حراء ، لقلت
إن كتابه قبس من الوحي نزل عليه من السماء !



مثل المصرية الحديثة

[٢٢ يونية سنة ١٩٤٢]

— ١ —

لا تزال السيدة و... على العهد بها طاهرة القلب حاضرة اللب ساحرة الحديث حرة الفكر ، لا تختلف وهي عقيمة تدبر البيت وتدير المزرعة ، عنها حين كانت معلمة تسوس الفصل وترأس المدرسة . ولا يزال بهوها الجميل يستقبل في مساء الخميس من كل أسبوع نفراً من خليط الخاصة ، فيهم الأديب والطبيب والمحامي والجندي والفلاح والواعظ وكلهم إما قريب أو صديق أو صهر

والسيدة و... مثل صادق المصرية الحديثة حين تراها في ثوبها الأنيق ، المحكم على قدها الرشيق ، تتخذ من البهو مكان القلب ، فترسل الدم بالحياة والنشاط والرغبة والبهجة إلى كل عضو من أعضاء المجلس

جمال السيدة فاتن ؛ ولكن جلال الحشمة فيه يكف عنه النظر الشهوان فيقف على حد الإعجاب به

وأدب السيدة رائع ؛ ولكن روعته آتية من قوة الذكاء لا من سعة الاطلاع ؛ فهي ترى الرأي في بعض معاني الأدب فتحسبه من التماع الذهن فيه على النمط ، وهو في حدود الوسط

وعلم السيدة دون الكفاية ؛ ولكنها ترفده بقليل من الدعوى المقبولة ، فترفعه المبالغة منها والمجاملة منك إلى المستوى اللائق بالمرأة المثقفة

وذوق السيدة رفيع ؛ ولكنه ذوق الأنوثة الموهوب لا ذوق الحضارة المكتسب ؛ أرهفته بالقراءة ، وصقلته بالمران ، حتى أوشك أن يكون من خلالها الأصلية يصدر عنه ما يصدر عن الطبع السليم من حسن الاختيار وجمال التنسيق وصحة المواءمة

وزوج السيدة طبيب ؛ ولكنه يعمل في عيادته عمل المنهوم بالعلم والمال فهو لا ينفك طول يومه بين تفريق (التذاكر) وجمع النقود ، ثم لا يعلم من دنياه شيئاً بعد ذلك . فهي التي تدبر المنزل وتدير العزبة وتربى الأولاد وتنمى الثروة وتراجع البنك وتعامل الناس ، ثم تجعل من بيتها ومكتبها وحديقها جنة يسكن إليها زوجها المكدود وولدها المجهود وقرينها المكتئب وزائرها المتطلع قد يكون لمزاوتها التعليم في شباب العمر بعض الأثر في تكوينها على هذه الشيمة من حسن الإدارة وحب النظام وبراعة الحيلة ولطف المداخلة ؛ ولكن المرأة المصرية على الجملة تبذ الرجل في هذه الخلال متى سلمت فطرة الله فيها من بطر النعمة وزيف التربية وسوء المحاكاة

زيت نديها في يومها المختار فوجدته حافلاً بمن يندون إليه في العادة من الأقارب الأذنين والأصدقاء الخللص . وكانت هي حين أخذت مجلسي تناقل المحامي حديث السياسة ، وزوجها يساجل الواعظ حديث الدين . وكان الضابط البطين والفلاح البدين يلقيان السمع إلى هذين مرة ، وإلى ذينك أخرى ، تبعاً لارتفاع الصوت واشتداد الجدل . وكان محضر السيدة في الصالون ، ورشاقها في الإشارة ، ولباقتها في الحديث ، وتجلي ذوقها وروحها في طراز الأثاث ، وطرافة ألوانه ، وانسجام قطعه ، وحسن توزيعه ، كان كل أولئك قد غمر

الجالسين بشعور من السمو لم يألوه ، فرقت الأصوات ، واثَّادت الحركات ،
واتزنت الكلمات ، وسما كل شيء في كل نفس . وللزى الذى ترتديه ، وللمكان
الذى تجلس فيه ، وللرجل الذى تتحدث إليه ، أثر في نفسك يصدر عنه الفعل
مطابقاً للحال التى أحدثته

قالت لى السيدة وقد ترمى بنا الحديث إلى أثر المرأة في الإصلاح ومكانها
في الأدب :

— ما بال فلان وفلان يحب أن يُذكر بمعادة المرأة وما أظنها وقعت في
حياتيهما موقع العائق عن إنتاج أو إصلاح أو سعادة ؟
فقلت لها : ذلك في رأيي ضرب من الحب ونمط من الغزل ! أما دعوة
أحدهما إلى استعبادها فلا أنه شقي في الحصول عليها ، فهو ينتقم منها انتقام الصائد
الأرعن من الطائر المسحور . وأما دعوة الآخر إلى استعبادها فلا أنه يئس من
الوصول إليها ، فهو يزهد فيها زهد الفأر الأبر في قدرة السمن . والمثلان
معروفان !

فقالت : إذن لو كان نصيبهما من المرأة خيراً مما كان لأصبحت حواء خيراً
من آدم ، ولكانت المرأة المصرية خيراً من المرأة الأوربية ! وهنا ابتدرني
الواعظ إلى الكلام فقال :

— لا يجوز في الدين ولا في العقل أن تكون حواء خيراً من آدم . ذلك
أنها خلقت من ضلع أعوج ، فمن طبيعتها ألا تستقيم . وما لا يستقيم لا يصدر
عنه استقامة ولا عدل . ولو أن الله أراد لها غير ذلك لخلقها من رأس آدم
فهيمنت عليه ، أو من إحدى جوارحه فسعت معه

فقالت السيدة : ولم لا يكون لخلقها من ضلع آدم حكمة أخرى يا أستاذ ؟

أليس في خلقها من أحناء صدره تعيين لوظيفتها وتوجيه لرسالتها ؟ إن حنوها على الزوج والولد ، كحنو الضلوع على القلب والكبد . والأسرة التي تشبل عليها المرأة هي العضو الرئيسى في جسم الأمة ، كما أن الأجزاء التي تشبل عليها الضلوع هي الأعضاء الرئيسية في جسم الإنسان

قال الطبيب : معنى ذلك أن عمل المرأة لا يتعدى المنزل

فقلت السيدة : وهل ذلك يسير ؟ إن المنزل عالم أصغر ينطوى فيه العالم الأكبر . وإذا كانت الأمة هي الأسرة مكررة . والوطن هو الدار مكبرة ، فإن المرأة القائمة على شؤونهما لتحتاج من الثقافة والحصافة ما يحتاجه رجل الدولة . إن في البيت حجرة طعام ، وغرفة نوم ، وبهو استقبال ، وقاعة مكتبة ، وحديقة زهر ، ولكل مكان من هذه الأمكنة ثقافة خاصة لا بد للمرأة الصالحة أن تحذقها جميعاً

ومضت السيدة في حديثها العذب تفصل هذا الإجمال ، والطبيب والمحامى يصغيان إصغاء الإعجاب ، والضابط والفلاح ينظران نظر العجب ؛ أما الشيخ فقد كان همه كله من هذا الحديث ، أن يرقب اتفاقه أو اختلافه مع القرآن والحديث



قالت السيدة (و...) تفصل ما أجملت من رأيها في معنى افظ البيت الجدير بأن يكون بيت أسرة ، وفي حقيقة معنى المرأة الجديرة بأن تكون ربة بيت :
قد تكون الزوجة أبصر النساء بفنون الطبخ وشؤون المطبخ وأصول المائدة ، ولكنها تكون أجهلن بما يجب لمهد الطفل وسرير الزوج ومدفأة الأسرة وبهو الضيوف ، وإذن لا تعدو أن تكون طاهية

وقد تكون الزوجة أقوم على رعاية الطفل والزوج ، وأضبط لحساب الدخل والخرج ، وأحزم في سياسة العمال والخدم ، ولكنها تكون عامية الفكر خشنة الجانب مبتذلة الهندام فلا تعدو أن تكون قهرمانة^(١)

وقد تكون الزوجة بطبيعتها ولوداً فتتوزعها الآلام والأسقام والشواغل في الحمل والوضع والرضاع والفظام والتربيب والتهديب والتمريض فلا يبقى من جهدها طاقة للبيت ، ولا من وقتها ساعة للناس ، ولا في قلبها مكانة للزوج ، فلا تعدو أن تكون والدة

وقد تكون الزوجة أجب أنوثة من كليو بطرة ، وأعذب حديثاً من شهرزاد ، وأقن رشاقة من بنات هليوود ، ولكنها تكون خرقاء لا تجيد العمل ، حمقاء لا تحسن التدبير ، فلا تعدو أن تكون خلية

وقد يقتصر مدلول البيت في ذهن السيدة على غرفة الزينة وقاعة المطالعة وصالون الاستقبال ، فهي ترقب الحديث من الثياب ، وتقرأ الجديد من الكتب ،

(١) القهرمانة : مديرة البيت (gouvernante)

وتناقش الطريف من الآراء ، ولكنها تعيش على هامش الأسرة عيش الترف والظهور والخذلقة ، فلا تعدو أن تكون أديبة .

ولمست المرأة الصالحة للملكوت البيت واحدة من أولئك ، إنما هي هن جميعاً : هي مخلوقة من نواذر الخلق ركبها الله من مجموع ما تشتت من الفضائل في هؤلاء النسوة ، كما ركب الإغريق « فينوس » من جملة ما تفرق من الجمال في مختلف الحسان

قال الطبيب الزوج : كأنك يا عزيزتي تنقلين عن نفسك صورة هذه المرأة . وأقسم لقد تعلمت في بعض بلاد أوربا وتقلبت في بعضها الآخر فلم أر صاحبة بيت تفوقك فيما سردت من مزايا الزوجة الصالحة

فقلت الزوجة : قد يكون في شهادة الزوج لزوجته بعض الهوى الذي يميل ميزان الحكم ، أو بعض الرضا الذي يزيع بصر الناقد

قال المحامي : ربما كان الهوى والرضا من شوائب الحكم في غير الزوج ! فإن الغالب أن يُتهم الزوجان بعد طول العشرة ، ودوام الخبرة ، وسأم الخلاط ، بقسوة العدل أو برقة الظلم في حكم أحدهما على الآخر . على أن صديقنا الدكتور لم يعد ما في نفوسنا جميعاً . وإنما المسألة الصريحة التي تطلب الجواب الصريح هي أنني عرفت من النساء من هن أوسع ثقافة وأرفع بيئة وأضخم ثروة وأكرم أسرة ، ولكنني لم أجد فيهن ما وجدت فيك من خلال الزوجة المرجوة التي تجمع حنان الأم وإخلاص الزوجة وبراعة القهرمان ومهارة الطاهية وأناقة الحبيبة وثقافة الأديبة . فإذا لم تكن الثقافة أو البيئة أو الثروة أو الأسرة هي التي تكون الفتاة على هذه المزايا فمن تربنه يكون ؟

فقلت السيدة : إن الأغلب في هذا الضرب من النساء أن يكون وليد

الفطرة وربيب الطبيعة . وهو يكثر حيث يشتد التماسك ويقوى التضامن في الأسرة ، لذلك تراه في القرى أكثر منه في المدن ، وبين العامة أظهر منه بين الخاصة . وما دامت القسمة الطبيعية قائمة بين الشريكين الدائمين على أن يكون للزوجة البيت وللزوج ما وراءه ، فإن هذه الخصائص الفطرية تنشأ في المرأة بحكم الضرورة ، وتقوى بفعل المران ، وتحكم بسلطان العادة . وليس التعليم والتبدين إلا ثقافا وصقلا لهذه الخصائص يقومانها ويرفعانها إلى المستوى الذى بلغه المجتمع . فإذا وجدت امرأة تجردت من هذه الشوائل كلها أو بعضها فلا تشك في أن طبيعة الأنوثة فيها قد فسدت لسبب من الأسباب فغدت من شواذ الخلق كالجلجل المستنوق أو الناقة المستجملة

قال الفلاح : لقد كنت أتمثل في ذهني المرأة القروية حينما كنت تصفين ربة البيت . ولكني لم أستطع إقحامها في الحديث لأنها في رأي الجمهور عنوان الجمالة حتى سمعتك تقررين أن الزوجة الصالحة تسكن في القرية . والحق الذى يؤيده العيان أن الفلاحة تقوم على شؤون البيت ، وتنهض بأمور الأسرة ، على المنهج الأعلى الذى رسمته في قولك واتبعت في فعلك . والفرق بين القروية والمدنية هو الفرق بين بيت وبيت ، وبيئة وبيئة ، وحياة وحياة . وتجانس العقلية في المجتمع القروى يجعل مكان المرأة فيه أرفع ، وسلطانها عليه أوسع ، لتمييزها على الرجل في قوة النشاط ولطف الحيلة وبقظة الرأى

فقلت السيدة : ذلك يؤيد ما قلت من أن ربة البيت هي من صنع الضرورة والطبيعة ، لا من صنع المدرسة والبيئة ؛ والضرورة هي وجود البيت ، والطبيعة هي توزيع العمل على حسب الاستعداد والقدرة . ولا أعنى بالبيت المسكن ، وإنما أعنى به الأسرة . وللأسرة في النظام الاجتماعى مفهوم قلما يتضح في أكثر

النفوس ؛ فلا تظنوا أن قصور الخاصة بيوت تسكنها أسر ، إنما هي فنادق ينزلها أفراد . فللزوجين والأولاد غرف لا يدخلونها إلا وقت النوم ، ومائدة لا يرونها إلا ساعة الأكل ، وصالون لا يزورونه إلا يوم الاستقبال ، ومرافق لا يعرفونها إلا عند الحاجة . أما القصر وما فيه ومن فيه ففي ذمة القهارة والخدم . ومن المحال أن ينشأ في مثل هذه الجماعة المنتثرة سيدة تصلح ابنت ، أو آنسة تصلح تزوج . وفي اعتقاد أن الكتّاب الذين يعادون المرأة المصرية بين رجلين : رجل أحبها ويريد بعدائها أن تتحدث عنه فهو خادع ، ورجل كرهها لأنه عرفها في البيئات الممسوخة فهو مخدوع .



غراب وطفل

[٢٠ يولية سنة ١٩٤٢]

حادثان وقعا فى نهار يوم وليله ، لها بهما من لها ، وتفكر فيهما من تفكر ؛
رويات أثرها الباقي يعمل فى نفسى وفى رأسى ما يعمل الهم إذا جاش ، والألم إذا
برّح ، حتى أصبحت فإذا بى لا أجد فى ذهنى ما أكتبه إليك ، غير أن أقص
نبأ هذين الحادثين عليك

نشبت جناح أحد الغربان فى مشبك الغصون من أعلى (الكافورة) ،
وجهد الطائر الأسير أن يخلص جناحه بالاضطراب والاجتذاب والخفق
فما استطاع . وكان قد حط بالقرب منه غراب ، فهبَّ ينبع ينبع المستغيث ،
ثم حاول أن يجتذب بمنقاره الجناح الناشب فأعياه ذلك ، فارتد يثب من حوله
صاعداً هابطاً وهو ينبع ، حتى أقبل على صوت الاستغاثة غرابان ، خوفاً
هنيهة فوق أخيهما المصاب ، ثم أطلقا فى الفضاء نعيقهما المندر . فلم تكن غير
لحظات حتى تتابعت الغربان فكان منها على ذوائب الدوحة الفيئانة عصابة ،
وعقدت هذه العصابة مناحة ، وظلت هذه المناحة بقية النهار لا ينقطع لها صوت ،
ولا تفتربها حركة . وكأنما كانت الغربان تضرع إلى الناس أن يسعفوا أخاها
المسكين بحيلهم البشرية ؛ ولكن الناس كانوا قد تجمعوا على طوارىء الشارع
تجمع البله ، لينظروا إلى الحادث العجيب نظر الفضول ! وقلما تجد بين البله
والفضول مكاناً للمروءة !

فلما دنا الليل واستيأست الغربان انصرف بعضها وبقي بعضها الآخر .

ولم تقصّر الأعربة الباقية في مواساته والترفيه عنه ، حتى لقد زعم بعض أصحابنا أنه رأى غراباً يزقه بالحلب والماء . وانصرفنا نحن كذلك عن القهوة بعد موهن من الليل ، وليس في نفسى غير هذا المظهر الأخوى الرائع في نوع من الطير لم يرسل إليه رسول ، ولم تُنشأ لتربيته جامعة ؛ وما كنت رأيت ولا قرأت ولا سمعت من قبل ما يشبه ذلك في عالم الحيوان

لم أكد أسكت المذياع بعد إعلانه الأنباء الأخيرة حتى سمعنا صراخ طفل حديث الولادة ينبعث في سكون الشارع على حال غير مألوفة . فاطلمت من النافذة فإذا الصراخ يتتابع من ركن مظلم أمام حانوت جارنا النجار . فظننت أول الأمر أن إحدى الوالدات جلست تسترغه من التعب ، أو تستندى أكف المارة . وكانت امرأة من سواد الناس تمر في تلك اللحظة فعاجت بحكم غريزتها على الطفل الباكي ، وجعلت تجسه بعينها ويدها ، ثم صاحت تقول في ارتياح وحسرة :
الله يلعبها في كل كتاب ! زني وقتل ! ؟

ثم اندفعت المرأة في طريقها تهرول وتدمدم كأنما تريد أن تنجو بنفسها عن موطن الشبهة !

ووقف بعدها على الوليد المنبوذ كل سائر . وكان كل واقف يشعل ثقاباً وينظر إلى محيا الطفل البريء ثم يحوقل وينصرف

وكان الطفل على ما فهمت من وصف الواصفين من الواقفين أزهر اللون جميل الصورة قد وضعته أمه (الحنون) في قفة جديدة من الخوص ملفوفاً في خرقة بالية من قماش مهلهل النسيج لا نقش عليه ولا خيط فيه ! ولعلها خشيت ، إذا هي ألبسته بعض الثياب أن يستدل الشرط بها عليها ! والاحتياط لسلامة

الخدر المصون من سوء السماع ومض الملام فوق كل اعتبار !

كان المارة يتجمعون على جوانب المهد الخشن والطفل يضطرب فيه يديه ورجليه ، ثم يتفارقون ولا يجروُ أحد منهم أن يسبل غطاءه عليه ، أو يمد يده إليه ، كأنما هو في ذاته لعنة مجسدة تعلق بمن يمسه وتلحق بمن يقربها ! والواقع أن اللقطاء أو أبناء السكك والدهاليز كما يسميهم الشرفاء ، أشقياء بالولادة . وقد تشتمل الرحم الفاجرة على الشقي والشقاء في وقت معاً . فاللقيط وهو جنين يكون خطراً لا ينفك مهدداً بالعار إذا استمسك ، وبالموت إذا سقط . فإذا سلم على طعن البطن باليد ، وتسميم الرحم بالعقاقير ، وُلد في الخفاء ، وغمر بالظلام ، وأُحيط بالسكون ، وأصبح في حجر أمه جريمة مولودة تطفئ نور البصر ، وتذوى شباب القلب ، وتقطع خيط الرجاء ، فتحاول أن تتصل من هذه الجريمة الواحدة ، باقتراف جرائم متعددة ! فإذا عاش على سوء الولادة وجفاء المهد وقسوة المهجر ، عاش موسوماً بالخزي ، موصوفاً بالمهانة ، لا يرتفع به بيت ، ولا يشرف به منصب

يا حسرتا على اللقيط من بنى آدم ! يمر الإنسان بالمتروك أو الضال من جرّاء السكبة ، أو خنايص الخنزيرة^(١) ، أو حملان النعجة ، أو فراريح الدجاجة ، فيؤوبه إليه حتى يجد صاحبه ؛ ثم يمر بالمتروك من جنسه فيشيع بوجهه وينأى بجانبه ؛ لأنه إذا ضمه إليه اتهمته زوجته ، وإذا أظهر العطف عليه اتهمه الناس . ومن ينكره أهله لا يعرفه أحد ! ومن ضاق ذرعه بابنه لا يتسع صدره لمبتناه . لذلك كان الناس يمرون بالقفة المتروكة ، وفيها ثمرة الحب يتضور ويبكي ، فلا يجودون عليه إلا بنظرة حنان ، أو كلمة رثاء ، أو إشارة إعجاب ، أو لعنة انتقام . وخفت أن يبيت الطفل على قارعة الطريق فدعوت من حمله إلى مركز البوليس

(١) الجراء : جمع جرو لولد السكبة . والخنايص : جمع خنوص لولد الخنزير

وأصبح الصباح فقيض الله للغراب من عاجل جناحه بعود طويل من الخشب حتى خلص ، وانطلق الأسير في رفاقه الأوفياء يرفه عن الجناح العليل في العش الناعم والقضاء الحر والإخاء الوثيق . وذهب صديقنا (على) يسأل رجال الشرطة عن مصير الطفل ؛ فقبل له : منحناه اسماً من الأسماء ، ونحelnه أباً من الآباء ، وسجلناه مجهول الأب والأم ؛ ثم أرسلناه إلى الملجأ ليعيش عمره الطويل أو القصير من غير أسرة ولا كرامة ولا ثروة ولا رجاء !

أما بعد فذلك غراب وهذا طفل ! أما الغراب فلم يتركه قومه حتى أنقذوه وأخذوه ؛ وأما الطفل فقد تركه أبوه لأمه ، وتركته أمه للناس ، وتركه الناس للقدر ! فمن ذا الذى يقول بعد ذلك إن ابن آدم خير من ابن آوى ، وإن بنت حواء أفضل من بنت اللبون ؟ إن جد هذا الغراب هو الذى علم قابيل جد هذا الطفل أن يوارى الدفن سوءة أخيه المقتول ! وهل تجد أبلغ فى تسجيل العجز على الإنسان من قول قابيل حين رأى الطائر يبحث فى التراب :
« يا ويلتا ! أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب ؟ »



من عجائب للناس

[٢٨ سبتمبر سنة ١٩٤٢]

لعل ابن آدم هو الخلق الوحيد الذي يرى الشيء الواحد بعينه الاثنتين
أبيض تارة وأسود أخرى على حسب الصبغ الذي يلونه به الهوى ! فقد يتحد
الشيء في ذاته وصفاته ، ولكنه يختلف واعجابه في نظره أو في رأيه ، فيكون
حسناً وقبيحاً ، أو خيراً وشرّاً ، أو حلالاً وحراماً ، أو نافعاً وضاراً ، لا باعتبار
حقيقته في نفسه ، ولكن باعتبار ما تقتضيه الحاجة أو الأثرة أو الرياء أو المحابة .
وبفضل هذه الميزة العجيبة في الإنسان تعددت مقاييسه ، وتضاربت أهواؤه ،
وتناقضت أحكامه ، وتباينت عقائده ، وتفرقت سبله

ذلك كلام لا نكير فيه ولا لبس فلا أحل ولا أعلل ، وبحسبي أن أدع
الحوادث تحدث والأمثلة تمثل

أذاع راديو (باري) منذ ليلتين أن فريقاً من الطلاب الهنود تظاهروا
في بمباي فاعترضتهم فئة من الشرط الإنجليز فتفرقوا في شوارع المدينة أباديد
بعد أن أصيب نفر منهم بجروح . ثم عقب المذيع على هذا الخبر بأن الاعتداء
على المتظاهرين بالضرب ينافي المدنية ، ويحافى الخلق ، ويصم الذين ارتكبوه
بالقسوة الوحشية والبربرية الأثيمة . وفي هذه الإذاعة نفسها أعلن هذا المذيع
نفسه أن مليوناً من جنود المحور قد اقتحموا بالدبابات الثقيلة والطائرات المنقضة
والسيارات المدرعة منازل « ستالينجراد » على الروس وفيهم النساء والأطفال
والشيوخ والمرضى ، فدكوا كل بناء ، وسحقوا كل حي ، وركوا أشلاء القتلى

في الحجرات والطرقات على صورة لم يرها الرءاون ولم يرَوها الراوون . ثم أخذ هذا البوق البشري يهذى بفضل هذا النصر على المدنية ، وينوه بعظيم أثره في مستقبل الإنسانية !

كان لسكاتب من كبار المصلحين حصة مأكولة في وقف أهلى ، فظل يكتب في وجوب حل هذا النوع من الوقف حتى نصب مداده ، ويخطب في جشع النظارة وإهمال الوزارة حتى جف ريقه . وتداول الناس مما كتب وخطب جملةً من البراهين الملزمة والنصوص الصريحة والوقائع الثابتة لا تدع لوجود الوقف الأهلى مبرراً ولا للدفاع عنه حجة ، فما هو إلا أن آلت النظارة على هذا الوقف إليه حتى بلع لسانه فلم يخطب ، وكسر قلمه فلم يكتب ، وفرغ لاستغلال الوقف والاستبداد بريئعه فلم يقبل رقيباً عليه ، ولم يقابل مستحقاً فيه !! ذكرت بهذا السكاتب المصلح ذلك الاشتراكى المفلس الذى كان يرى الرأسمالية وبالأعلى على المجتمع ، والرأسماليين كلاً على الناس . وكان يسوِّغ في سبيل اشتراكيته الإرهاب والإضراب والمصادرة والقتل ، حتى ورث عن أحد أقربائه الأبعد قطعة من الأرض ، فنصب على كل جهة من جهاتها الأربع لوحة كتب عليها بالخط العريض : « ممنوع المرور » !

وكان خطيب من خطباء المساجد عليه سمات التقى والزهد لا ينفك يقرع آذان المصلين بالعظات الزاجرة عن احتكار السلع وإفخاش الأسعار وإرهاق الناس في هذه السنين العجاف . فإذا فرغ من الوعظ وخرج من المسجد جلس في حانوته الصغير يسبح لله ويقسم لطالب السكر أو الزيت أو الرز أن دكانه

من كل أولئك خلاء . فإذا وجد الضعيف المضطر أعطاه بالسعر المضعف والكيل
المطفف بعض ما يطلب ! وهيئات أن تنفذ إليه عيون الحكومة من وراء
الحجب الأربعة التي ضربها عليه من وظيفته وعمامته ولحيته ومسبحته !
هذا الشيخ يحسب أن حدود الدين لا تتعدى حدود المسجد ، فإذا عالج
شؤون الدنيا عالجها على المنهج الذي سنه الشيطان لأوليائه ؛ فهو كالتلميذ الذي
يحسب أن قواعد النحو لا تتعدى « حصّة » اللغة العربية ، فإذا كتب في التاريخ
أو في الكيمياء كان مطلق الحرية في إنشائه . ذلك أحسن الفروض ، فإذا
كان يعتقد أن الدين طعم الدنيا وشرك المال ، كان كذلك الصوفي الهرم الذي
زعموا أنه كان يركب الترام كل صباح إلى ضريح الشافعي ، فكما أقبل عليه
« الكساري » يطلب أجرة الركوب أدبر عنه وشغل لسانه بالذكر ويده
بالتسبيح حتى ينصرف إلى غيره . ففي ذات يوم ألح المحصل على تغافل الشيخ
وسأله عن (التذكرة) فلم ير بداً من أن يدفع هذه المرة ويقول في هيئة المفجوء
ولهجة الذاهل : « معذرة يا بني ! فقد شُغلت بالله عن كل شيء »

كبير من الكبراء له في الصوم مذهب جديد ؛ فهو يصوم الصوم (الصحي)
الذي يفيد الجسد ولا يفيد الروح : يتعاطى كل ساعتين كوباً كبيراً من عصير
العنب أو الليمون أو المانجو ، ثم يمسك عن التبغ في النهار وعن الخمر في الليل ،
ويصر على أن تُساقط أصابعه الثلاث حبات المسبحة منذ أذان العصر ، وأن يفطر
على أشربة رمضان وآ كاله عند أذان المغرب . فإذا بلغه أن أحد مرءوسيه غفل
عن آداب الصيام ، في النظر أو في الكلام ، أخذه أخذاً شديداً (بتعليمات الوزارة)

أستاذ من أساتذة الأدب لا يحاضر إلا في الدين ولا يجادل إلا في الخلق ،
 له في الحرية الشخصية مذهب فضفاض يسحب أطرافه السابغة على كل معروف
 من الدين والخلق . ثم لا يعوزه أن يجد لكل رغبة من رغائب نفسه الشهوانة
 سنداً مما يسميه هو الدين والخلق . فمثله كمثل ذلك الفقيه الثقة الذي تبحر
 في القانون وتقصّى في الإفتاء حتى لا تند عن ذهنه مسألة ، ولا تعزب عن براعته
 حيلة . فلما تولى أمور الناس وجد لكل مأزق من مآزق الضمير مخرجاً
 من مخارج الرأي لا يضيق عن أمر من الأمور في أى غرض من الأغراض !

هذه أمثلة من الواقع المشهود تؤيد شقاء الإنسانية بين العقل والهوى .
 ولو طاوعت القلم لسردت عليك ما هو أعجب ؛ ولكن ...
 قالت الضفدع قولاً ردّته الحكماء :
 في فمي ماء وهل ينطق من في فيه ماء ؟



الرسالة في عامها الحادي عشر

[٤ يناير سنة ١٩٤٣]

أقبل العام الميلادي تسعى بين يديه الشمس ؛ ومن ورائه يقبل العام الهجري يسعى بين يديه القمر ؛ وبين هذين النيرين الإلهين تبلغ « الرسالة » مرحلتها الحادية عشرة في سبيلها الشاقة ، إلى غايتها الحاقة ، ومنهما معرفتها ورشادها ، وفيهما تضحيتها وجهادها . ومن نور القمرين نور الدنيا ، ومن هدى التاريخين هدى الناس ؛ فإذا تعسر الخطو وتعثر الخطاة فذلك لأن النور الإلهي احتجب ، والبصر الإنساني كل . على نور الهدى تدركه البصائر لا الأبصار ؛ فإذا عميت القلوب تخبط الناس في ظلام جهنمي تموج فيه تهاويل الشر ، فأفسدوا كل صالح ، وبددوا كل منتظم ، وهددوا كل حي . وما محنة العالم اليوم إلا ضلال عن الطريق . والضال إذا لم يهتد هالك لا محالة . ومن يهد الله فهو المهتد ، ومن يضل فلن تجد له ولياً مرشداً

كلما عاد عيد الهجرة أو عيد الميلاد صاح بالضالين المتفانين شيخ الإسلام أو حبر النصرانية : أن تعالوا إلى الطريق ! ولكن كلا الدليلين - وأسفاه ! - يقف على رأس الجادة المهجورة داعياً ولا سميع ، وراعياً ولا قطع !
فمتى يا إله الناس تنحسر عن العيون السادرة أغشية الضلالة فيعود الجائر إلى القصد ، ويرجع الشارد إلى الحظيرة ؟

لقد ظفئ الفناء على الكون ، وأرسل على ملكوت الله سمانه السود تعصف في كل مكان بالخوف والجوع والدمار والموت لا تكف ولا تخف

حتى لا يدري الممسي كيف يصبح ، ولا الغادى كيف يروح !

هذا هو الشتاء الرابع يقبل على هذه الرجفة الآدمية العالمية وهي راعدة لا ينقطع لها دوى ولا حم ولا نار ولا ضحايا ؛ وبنو آدم المتمدنون لا يفتأون يستخرون العلم الذليل الخاضع في تاريث براكينها المزججة ، فتقذف الردى شهياً في السماء ، وتصبه حمياً في الماء ، وتشعله جحياً في الأرض ، وأولادهم هم أشلاء هذه المقتلة ، وحضارتهم هي أنقاض هذه الزلزلة . وكل أولئك في سبيل الرغيف . ورزق الله موفور ميسور ما دامت السماء تمطر والأرض تنبت ؛ ولكن الإنسان مهما تعلم وتقدم لا يزال في سياسة معدته على الفطرة الأولى من حب الاستئثار والاحتكار ، فلا يعرف القناعة في الرزق ، ولا يقبل العدالة في القسمة ، ولا يحسم الخلاف على القوت إلا بالقوة إذا تأسد ، وبالمرأوة إذا تشلب . وقد تتفانى الدول وتبقى الأرض ، كما يتفانى الأسود وتبقى الفريسة

والخاسرون في معركة الحياة هم عبيد الطمع من الأفراد والأمم . يبذلون دماءهم في سبيل الحياة لا لينعموا بها ، ولكن ليحافظوا عليها . وهم مادة الغذاء في يد الطبيعة : ترعاهم ليأمنوا ، وتدر عليهم ليسمنوا ؛ فإذا ما تسكاثروا وامتلاؤا قدمتهم إلى الحياة العامة فكانوا سماء الزرع ليخصب ، وقلامة الشجر ليغلف !

كان الشأن في الحرب القديمة أن يخرس اللسان والقلم إذا نطق السيف والرمح . وكانت نيرانها المحصورة لا يصلها إلا المتحاربون ، رجلاً لرجل ، أو فئة لفئة ؛ ولكن هذه الحرب الجديدة في خططها وعُددها ، قد جندت كل قوة وأوعدت كل حياة : جندت العلم والأدب والفن والصحافة والإذاعة والتمثيل والسينما ، وعبأت الزراع والصناع والتجار والمدنيين والعسكريين والحايدين

والحار بين والأطفال والشيوخ ، فلم تدع أحداً في العالم كله يفكر إلا فيها ، ولا يشعل إلا بها ، ولا يعمل إلا لها ، ولا يألم إلا منها ؛ فكأنها أصبحت المحرك الأول لآلة العيش ، استولت عليه الشياطين فانتجوا به من أداة الشر ما لم يقع في سماع التاريخ ولم يخطر ببال الناس ليهلكوا ما ادخرته القرون ، ويهدموا ما شاده الله !

لذلك نما وطأ كل ما يمت إلى هذه الحرب بسبب من الإنتاج المادى والفكرى ، وذبل وضؤل منهما ما لا يحارب ولا يدعو . والأدب في الحرب القديمة كان تشجيعاً ، ولكنه في هذه الحرب أصبح دعاية . وقد نفق هذا النوع من الأدب نفوقاً عجيبيّاً في كل أمة ، لأن الحكومات على اختلافها وائتلافها تتلقه وتتعده وتنفق عليه . والأدب كالحرب عصبه المال : بفضلته يخصب ويزدهر ، وبحوله يتسع وينتشر . أما الأدب الذى لا يحارب ولا يدعو ، فقد ظل كالشعب الحامد ، يعانى الحرمان ولا يد له فيه ، ويقاسى الغلاء ولا ربح له منه

والصحافة الأدبية من هذا النوع ، ألحّ عليها فحش الغلاء وحرمان العوز حتى نحل بدنّها وشحب لونها ، وكادت تنبث من فرط الضنى في وسط الطريق أصبحت لا تجد الورق إذا وجدت المال ، ولا تملك زيادة العرض إذا ملكت زيادة الطلب ، ولا تضمن بقاء الغد إذا اطمأنت على بقاء اليوم . فإذا قدر الله لها أن تخرج من محنة هذه الحرب وفيها حُشاشة نفس ، كانت حرية بعد ذلك أن تستهين بكل صعب ، وتثبت على كل خطب . ورجاء الرسالة في الله أن يرزقها من الجلد ما تتماسك به على عرك هذه الشدائد . وحسبها من صدق الأمانى أن تعيش حتى ترى الطريق قد استبصر ، والسلام قد استقر ،

والأمر قد استقام . ويومئذ يتسع لها المجال فتشارك جاهدة مخلصه في رَأْب ما تصدع وتجديد ما تهدم

وإذا كان للرسالة في مستهل هذا العام ما تغتبط به من فوز جهادها ونجاح دعوتها ، فذلك توفيقها في معالجة الإصلاح الاجتماعى توفيقاً لمست أثره في منهاج وزارة الشؤون الاجتماعية في عهد وزيرها القائم بأمرها اليوم . فلقد آتاه الله حزم الحكماء وعزم المصلحين فطوى فؤاده الشهم على نية الإصلاح بالفعل لا بالقول ، فرفع شأن العربية في دواوين الحكومة ، ومهد السبل المؤدية إلى تنظيم الإحسان وجباية الزكاة ومحاربة الأمية ومطاردة الفقر على نحو يشبه ما نحتة الرسالة في معالجة هذه الشؤون

وأمنية أخرى طالما تمنيتها ورددتها الرسالة وتوشك أن تكون من مقاصد الحكم في هذا العهد : تلك الأمنية هي الاتحاد العربى على أى صورة يكون . وفى كلام الزعماء ومنطق الحوادث ما يعزز الرجاء فى تحقيق هذا الأمل ؛ وفى توفيق الله وجهاد الصادقين ما يحقق النفع المرجو من هذا العمل



نهاية أستاذ

[١٦ أغسطس سنة ١٩٤٣]

مئات من المدرسين وآلاف من الطلاب يعرفون الأستاذ أحمد عثمان المهدي مدرس الفرير المثابر خمسا وثلاثين سنة . ولكن معرفتي إياه رفيقاً في الدراسة ، وزميلاً في التدريس ، تجعلني أقدر من عرفوه جميعاً على حكاية مأساته ، وكشف ما خفي من أسرار حياته ومماته

عرفته سنتين طالباً في الأزهر يُعنى بتجويد الخط ، ويحاكي « أبناء البلد » في الرواء والسّمت . ومن كان ربيب أسرة المهدي^(١) المترفة كان خليقاً أن ينشأ على حب الجمال في الزي والمنظر

وزاملته سبع سنين مدرساً في كلية الفرير بالخرنفس يُعلم العلوم العربية في فصولها المختلفة ، وينسخ « الأخ بلاج » المفتش أصول (مؤلفاته^(٢)) في النحو والبلاغة والأدب . وما كان أحذق المتنبيين ليستطيع حينئذ أن يتنبأ لهذه النفس الراضية والطبع المرح والثغر الضحك واللسان الداعب ، بهذه الكهولة الأليمة والعاقبة المحزنة . نعم كان المتفطن المستبصر يخشى أن تكون له في بعض الأزمان زوجة وأولاد ؛ فقد كان يعيش عيش السمك في الماء ، لا يكاد يعرف له مستقراً ولا غداً ولا غاية . كان يقضى فراغه كله في المقاهي بين زمرة

(١) كان أبوه من ممالك الشيخ المهدي ومن هنا كانت نسبته

(٢) من الانصاف للحقيقة والتاريخ أن أقول بهذه المناسبة أن الذي ألف كتاب (سفينة النحاة) و (سفينة البلقاء) هو الشيخ سيد الشايب ؛ وأن الذي حرر كتاب (بحر الآداب) في أجزائه الخمسة ووضع نثره ونظمه في هذا الأسلوب الأخير هو الشيخ أحمد حسن الزيت

من الشباب المملق المملق ؛ وكان العرق التركي الذى فيه لا يزال يضرب عليه بالشموخ والأبهة ، فلا يسمح لأحد من الجلاس أن يدخل يده فى جيبه . وكان فضلاً عن ذلك مخروق الكف والكيس فلا يمسكان على ما يكسب ، ولا يبقيان على ما يملك . كان لا يسأله أحد إلا أعطاه ، ولا يُعرض عليه شئ إلا اشتراه . وكان أكثر ما يشتريه لا يحتاج إليه ، كأداة المطبخ وليس له بيت ، أو حاجة المرأة وليست له زوجة . إنما كان مولعاً بمساومة الباعة الجوالين ، ويسره أن يعلموا أنه خبير بالصنف فلا يغش ، عليم بالثمن فلا يغبن . وقد فطن الخبثاء إلى هواه فكانوا يتغالبون له ويتشاكرون منه ، وهو يشتري ويشتري ثم يودع ما اشتراه صاحب القهوة ولا يطلبه !

وكان لحبه الخير والشهامة يتمدح بما فعل وما لم يفعل منهما . وخلياله انخصب فى هذا الباب حوادث وأحاديث يكون هو فيها البطل المرموق . وكان يكفى أن تحسن الاستماع وتظهر الاقتناع لتسلبه الإرادة وتقوده إلى حيث تريد . وضعف إرادته إنما كان يظهر فى نواحي المروءة والرحمة ، أو فى أمور المال والمعيشة . فكان لا بد له من قيم يدبر ماله وينظم أمره ، ولكنه مع ذلك كان يعيش أرغد العيش ، وينعم أطيب النعمة ، لأنه كان يُخلف ما يتلف . كان يكسب من الدروس الخصوصية لليهود أضعاف ما يأخذ على عمله اليومى فى المدرسة . وكان من الجائز أن يقضى العمر فى ظلال هذا العيش الغرير لولا أن وقع المحذور وتنبهت عيون الحوادث . تزوج المسكين ! وكانت زوجته لسوء حظه صورة مؤنثة منه . بل زادت عليه أنها من قوم فقراء يحبون الرغد والمعونة . وكانت كما شاء القضاء ولوداً ، فلم يأت على زواجهما بضع سنين حتى كانا فى بضعة أولاد . وتظاهر ضعف الزوجين وإسرافهما الشديد ونزاعهما المتصل

على حياة هذه الأسرة البائسة فلم تنعم بهدوء ولم تظفر بتربية . وأصبح كدح الرجل قليلاً على تسعة أفواه لا تحسن غير الخضم والهضم ؛ فكان يكد ويحتال ويتصرف ويقترض . ولكن الأمر كان فوق طاقته . ومن الحال أن يتعادل دخل المبذر وخرجه . والماء مهما زخر وارتفع لا يبقى إذا ما انتهى إلى بالوعة ! وتسابقت الأحداث إلى المسكين فقدحه الدين ، وركبه الهم ، وغاضت بشاشة وجهه ، وذهبت أناقة هندامه . وقسا عليه الدهر ذات مساء فانتحر ابنه البكر تحت الترام وهو معه ينظر إلى أشلائه المبددة ، ويستمتع إلى أناته المرددة ! ثم جاءت هذه الحرب بما نعرف من بلائها وغلائها ، وكانت عوارض الوهن والانحلال قد ظهرت على المعلم المكدود فاضطرب تفكيره وفتقر نشاطه . وصعب على « الفرير » خدام الدين والعلم أن يمشوه عظاماً كما نهشوه لحمًا ، فأخرجوه بعد أربع وثلاثين سنة قضاها معهم في جهاد العجمة واللاكنة لا يدخر جهداً ولا يبالي مشقة ، أخرجوه وكل ما في يده مائة وخمسون جنياً كافأوه بها على ما أفنى من صحته وشبابه . وكانت هذه المكافأة طعام أشهر معدودة كان في أصباحها وأمسائها يطرق الباب بعد الباب عسى أن يجد السبيل إلى رزقه الهارب ، أو الوسيلة إلى عيشه المفقود . وتصام أكثر الأصدقاء فلم يستجيبوا لطرق الأنامل النحيلة على الأبواب الصقيلة ... فباع الرجل فضول المتاع ثم باع حاجاته . وكادت الأسرة الشريفة تجوع وتعزى لولا أن قيض الله له صديقاً من ذوى الجاه والفضل فرشحه للتدريس في المدرسة الملكية بالمنصورة . ولهذا المدرسة شهرة بحب الجمع وكرهه القسمة ، فرتبت له ثمانية جنيهاً في الشهر . وحاول البائس المضطر أن يسد بهذا المرتب أجرة مسكنه ونفقة عياله فاستحال ذلك عليه إلا أن يسكنوا نصف السكن ، ويأكلوا بعض الأكل ،

ويخلصوا من عقابيل السرف القديم . فكان يقترض من المدرسة سبعة جنيهات
 في كل شهر على حساب الأشهر المقبلة ، حتى جاء شهر مارس الماضي وايس له
 من مرتب العام كله غير خمسة جنيهات ! نعم خمسة جنيهات هي كل ما بقي
 لسبعة الأشهر الباقية ! إذن ماذا يصنع ؟ لم يبق في المنزل ما يباع ، ولا في الناس
 من يمين ، ولا في الغد ما يُرجى !

وها هو ذا بعد أن تيف على الخمسين في خدمة اللغة والأدب يجد نفسه على
 شفا الهاوية ممنوع الرزق مقطوع الرجاء ، لا منصب يُظل ، ولا ثروة تُغل ،
 ولا ولد يعول ، ولا عشيرة تؤوى ، ولا أمة تساعد !

وفي هوادى ليلة سوداء من ليالى مارس انفرده به الهم الملازم في ركن منعزل
 من البيت النائم ، وكان مستقبله القريب الداهم قد تمثل في ذهنه وبرز في عينيه
 حجاباً من الظلام الكثيف يتدجى بالخوف واليأس ، فلم يستطع أن يتبين
 من خلاله غير صفيحة من البترول صبها عليه ، وغير ثقاب من الكبريت
 أشعله فيه ! فلما شاعت النار في جسده خرج يعدو إلى الشارع وهو يستغيث
 بأبنائه واحداً بعد واحد فما أصاحت أذن ولا تنهت عين . وسقط المسكين
 صريعاً أمام كنيسة المارون في الحسينية ، وكان الصراخ الهالع قد أيقظ قسيسها
 فخرج يستطلع الخبر . وانحنى القسيس على المحترق يتأمله ، ورفع المحترق نظره
 إلى المنحنى يتبينه ، فإذا كلاهما يعرف الآخر ، وإذا القسيس تلميذ من تلاميذ
 الأستاذ القدماء !

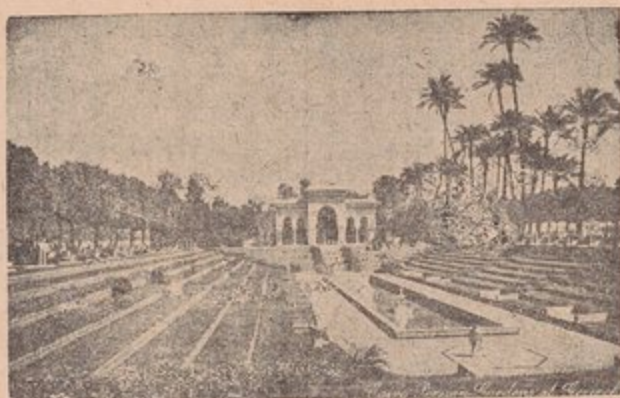
— ماذا صنعت بنفسك يا شيخ عثمان ؟

— تلك مشيئة الله !

وقلت المحتضر عربة الإسعاف إلى المستشفى ليلفظ آخر أنفاسه حين تنفس

صباح الجمعة . وأبطأت إجراءات النيابة والصحة حتى دخلت ليلة السبت . ولم يكن حاضر أمره غير ناظر المدرسة ووكيله . فاقترح الوكيل أن يبقى في المستشفى إلى الصباح ليشيعه زملاؤه وتلاميذه ؛ وصمم الناظر أن يُقبر في الليل ، لأن النهار يقتضى قماشاً وفراشاً وقهوة !

وشيعت في ظلام الليل وسكون الناس جنازة جندي باسل من جنود الأدب المجاهدين ، وليس أمامه إلا الناظر والوكيل ، وليس وراءه إلا أولاده وزوجه !



الرسالة في عامها الثاني عشر

في بصيص من الأمل يلعب في دياجى الآفاق استهل عامنا الوليد !! وهذا
البصيص قد لاح من الشرق أيضاً : لاح فى أفق « العالمين » من صحراء لوبيا !
ولصحارى الشرق أسرار ييوح بها القدر كلما قضى الله أن يخرج العالم من ظلمة
إلى نور ! ولرب السموات والأرض نظام يدبره على مقتضى أمره . فلا الزلازل
ولا الإعصار ، ولا الحديد ولا النار ، ولا الدمار والموتان ، ولا الجبروت والطغيان ،
ولا النارية النازية ، ولا الفاشية الفاشية ، تستطيع وإن تظاهرت أن
تُعقّب على حكمه ، ولا أن تبدل ما سبق فى علمه

كان العالم كله فى النصف الأول من العام الذاهب يتيه فى بيد قواتم الأعماق
من مجاهل الأرض ، نجومها رجوم ، وآفاقها غيوم ، ورياحها سموم ، ومسالكها
لغوم ، وهواتفها جنة ؛ وكانت الوحوش النازية تزار فى جنباتها السود ، فتردد زئيرها
الرعود ، وتنزل بوعيدها الصواعق . ثم أراد مالك الملك ألا يشركه فى ملكه
أحد ، فبدا فى غياهب « العالمين » ودياجى « ستالنجراد » شعاع من نوره ،
فإذا الظلام يشف والطريق يستبين ، وإذا اليأس يتحول رجاء ، والزئير ينقلب
عواء ، والمارد الجبار يعود إلى القمم ، والتنين الخرافى يرتد مشخناً بالجراح إلى
قفصه الهائل ، وقد شرع مخالفه الكثيرة بين قضبانه الطوال الغلاظ ليعوق
القدر الهاجم ويؤخر الأجل المحتوم !

فى هذا الشعاع الإلهى الذى هدى المجوس ليلة ميلاد المسيح ، وضلل
المشركين يوم هجرة محمد ، ثم عاد فبين للإنسانية نسم الطريق فى معامى هذه

الحرب ، تستقبل « الرسالة » عامها الثاني عشر ، وهى باعتبارها لساناً من ألسن الإصلاح الإنسانى تجد بهذا التحول الحربى والسياسى رَوْحاً وغبطة : ترتاح لأن تباشير النصر تكاد تنبئ عن سلام رضى يرد الوثام على الناس ويعيد النظام إلى الدنيا ؛ وتغتبط بعقبى هذه الحرب التى لا نعت لها فى لغات الناس إذا استطاعت نارها التى لم تحب ساعة فى أربع سنين أن تنفى خبث الغرائز عن العنصر السامى فى ابن آدم المسكين . وما أسعد الإنسانية جمعاء إذا عوضها الله من ملايين الأنفس التى أزهقت ، ومن قناطر الذهب التى أنفقت ، ومن آلاف المدن التى أحرقت ، تلك الأمانى العذاب التى اشتمل عليها ميثاق الأطلسى ، وعبرت عنها حريات رزفت !

لقد ظلت هذه المنى دعوة الدين ورسالة الحكمة منذ هبطت هذه الأرض آدم ؛ فكانت تُقص كالأحلام ، وتُسمع كالأنغام ، فتهدد الغرائز العارمة ساعة الشبع والغفوة ، فإذا انتبه الإنسان على وخز الحاجة كشر عن الثاب وشم عن الخلب ، ثم يفعل ما يفعل كل حيوان من كل جنس . فلما جاءت المدنية لم ترد على أن جعلت للثاب غطاء من الذهب الوهاج ، وللظفر غشاء من الصبغ القانى ! فهل آن لعقول الناس أن تفهم عن وحي الله ، وللخلاق المكسوبة بالتهذيب أن تتغلب على الغرائز الموروثة بالفطرة ؟ لا نظن ذلك . إنما هى القوة التى تحولت بتأثير الكثرة والثروة إلى تهديد مستمر ؛ وهى الحرب التى تطورت بتسخير العلم والفن إلى فناء عام ! فإذا فكر قادة الإنسانية اليوم أن يحسموا أسباب الحرب فيمابقى من عمر الدنيا ، فذلك لأن الحرب المقبلة معناها انفطار السماء وانفجار الأرض وقيام الساعة . والنزاع الدولى مهما اختلفت دواعيه نزاع على مادة الحياة . فإذا كان يؤدى إلى الفناء المطلق ، وجد فى أصل الفطرة

الإنسانية ما يمنعه ، والأصل في طبيعة الحرب أن تُنتج النصر من قوة وضعف ،
 فإذا تكافأت القوى بطل عملها أو تفتانت . وكل دولة من الدول التي تمتاز اليوم
 بكثرة الأرقام في عدد الأنفس والأموال ومعاهد العلم ودور الصناعة ، تستطيع
 أن تعي الجيوش وتهيئ الأسلحة ، ولكنها لا تستطيع أن تضمن القلب ؛ فلا
 مناص إذن من تحالف دولتين أو ثلاث منها لتبطل التكافؤ وتثقل الكفة ،
 ولا يدوم هذا التحالف الحتمي بين الدول المختارة لحفظ السلم إلا إذا انقذت
 نفوسها عن الطمع والأثرة ، لذلك كنا متفائلين بنتائج هذه الحرب إذا دارت
 دوائرها على المحور ؛ فإن جنوح الأحلاف إلى تحكيم العقل المسلح في النزاع ،
 وتوخي العدل الممكن في القسمة ، وإيثار التبادل الحر في المعاملة ، هو حلم الأمم
 الضعيفة بطبعها في العدد والعُدَّة

على أن سلطان العقل والعدل وإن قوى أثره في نظام العالم المرجو لا يضمن
 وحده سلامة شعب اجتمعت على أهله القلة والذلة والفرقة والجهالة ؛ فإن لهذه
 الصفات الخسيسة أثرها في تخفيف الموازين وتخفيض القيم . ولن تستطيع ولو
 حرصت أن تعدل بين متفاوتين في العقلية والحرية والمدنية والقوة . ولا يستوى
 في طلب الحق أو الدفاع عنه واحد وجماعة . والدول الصغيرة كالأحاد قوتها في
 أن تجمع . ودول البلطيق والبلقان والشرق الأدنى قوى متفرقة ؛ فلو تجمعت
 المتجاورات منها لكان لها في الحرب والسلم شأن غير هذا الشأن

اللهم رحماك ورضاك ! هذا خامس شتاء يقضيه عبادك في زمهرير جهنم !
 ونار الطاغين يا أعدل الحاكمين غير نارك ، يصلاحها البر والفاجر ! لم يبق في
 العالم المحروب صدر من غير بليلة ، ولا بلد من غير زلزلة . ولا أمة من غير أزمة !
 فاجعل اللهم هذا العام حداً لهذا البلاء الشامل !

عبقريّة الإسلام

[١٧ يناير سنة ١٩٤٤]

عبقريّة الإسلام^(١) عنوان وضعته لكتاب اشتغلت بإعداده منذ اشتغل العالم بهذه الحرب . وكان الذى وجه فكرى إلى هذا الموضوع ما وقع فيه الناس كافة من هذا التفانى الذريع لأسباب لا يصعب حسمها على العقل الأصيل . وبداهة الرأى أن نرجع إلى ما شرع فاطر الأرض وواهب الحياة ومنزل الوحي ، بعد أن عجز الذين طاولوه فى ملكه من دهاقين الحكم وأساطين العلم عن قسمة رزقه بين أشتات خلقه . وما كان لبشر سليم الفطرة ليرتاب فى أن الذى برأ الخلق على اختلاف فى القدرة والحيلة ، وأنشأ الغرائز على اتفاق فى الطمع والغيلة . هو أعلم بما سينشأ فى كونه من تصادم القوى وتعارض الأهواء ، فلا جرم أن يكون شرعه دستوراً كاملاً تصلح عليه شؤون الفرد وأحوال الجماعة من كل جنس وفى كل عصر وعلى كل أرض

ولقد كانت إدامتى النظر والفكر مدى هذه السنين الأربع فى مصادر الإسلام الصافية مصداقاً لهذه الفكرة ؛ فإن غير الله لا يملك أن يضع فى الإسلام هذه الأسس والقواعد التى تضمن نظام العالم وسلامه مهما اختلفت الأجيال وتطاول الأبد . وهل كان — لولا وحى الله — فى مقدور رجل أمى نشأ ربيب اليتيم والعُدم فى قرية جاهلة من قرى الحجاز الجديب أن يعلن فى أوائل القرن

(١) عارضت بهذا الكتاب العتيد أمير النثر الفرنسى شاتبريان فى كتابه القيم المتمع

السابع حقوق الإنسان وحرياته ، وهى التى أعلنت بعضها بالأمس فرنسا نتيجة لتلك الثورة ، وتمت بعضها اليوم أمريكا غاية لهذه الحرب ؟!

عبقريّة الإسلام هى ذلك الإشراق الإلهى الذى انبثق من غار حراء فكشف للرسول عن أطوار النفس البشرية فى طوايا الغيب فدعا دعوته الخالدة إلى تكريم الإنسان وتنظيم العمران وتعميم الخير وتحقيق السعادة ، من طريق التوحيد ، والمؤاخاة والمساواة ، والحرية ، والسلام . فالتوحيد سبيل القوة ، والمؤاخاة سبيل التعاون ، والمساواة سبيل العدل ، والحرية سبيل الكرامة ، والسلام سبيل الرخاء . وتلك هى الغايات التى ترجو الإنسانية بلوغها عن طريق العلم والمدنية فلا تتكشف أمانيتها بعد طول السرى وفرط اللغوب إلا عن سحاب خلب وسراب خادع

هذه المبادئ المثالية التى تضمنتها دعوة الإسلام معلومة من القرآن بالنصوص الصريحة ، فلا موضع فيها لتأويل أو تحميل أو تعسف . فالتوحيد ركن من أركان الدين وعنوان من عناوينه . وهو من الكلم الجوامع التى وعت جوهر الإصلاح وسر النجاح لكل مجتمع وأمة . هو توحيد الله ، وتوحيد العقيدة ، وتوحيد الغاية ، وتوحيد اللغة ، وتوحيد الحكم ، وتوحيد التشريع ، وتوحيد الدين والدنيا ، وشواهد التوحيد فى أشتات معانيه مذكورة فى كتاب الله لا يختلف فى مدلولها أحد

وفكرة الوحدة الإنسانية هى مزية الدعوة الحمديدية على كل دعوة . وفى سبيلها صدق الإسلام بكل دين أنزل ، وبكل نبى أرسل ، ودعا الذين

فرقوا دينهم وكانوا شيعاً إلى خطة واحدة وكلمة سواء . ثم وصل الدين بالدنيا وكانت اليهودية والنصرانية تفصل بينهما ؛ فالأولى كان هما الصفاق والاجترار ؛^(١) والأخرى كان سبيلها الرهبانية والتنسك . ولكن الإسلام جعل الدين للدنيا كالروح للجد ، فلا تعمل إلا بوحيه ، ولا تسير إلا بهديه . ثم آخى بين المؤمنين ليجتمعوا على صدق المودة ويتعاونوا على لأواء العيش ، فلا يبغى قوى ، ولا يبخل غنى ، ولا يظلم متسلط . بدأ ذلك بالتأليف بين الأوس والخزرج ، والمؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين ؛ ثم توثقت عرى الأخاء بين المجاهدين في سبيل الله ، حتى صار المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، وأصبح هؤلاء الإخوان للقلال الضعاف في بضع سنين أئمة للناس وورثة لكسرى وقيصر ! كذلك في سبيل الوحدة الإنسانية والأخوة الإسلامية فرض الإسلام الزكاة وشرع الحج ، وأمر بالإحسان والبر ، ثم سوى بين الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم في الحقوق والواجبات ، بمحو العصبية الوطنية ، وقتل النعرة الجنسية ، وجعل التقديم والتكريم للتقوى ، فقال الرسول الكريم في خطبة الوداع « إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد . كلكم لآدم وآدم من تراب . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى »

في هذه الأصول الإسلامية كما ترى أفضل ما في الديمقراطية ، وأعدل ما في الاشتراكية ، وأجل ما في المدنية . فهي حرية أن تصلح ما فسد من أمور الناس ، وتقيم ما اعوج من نظام الدنيا . ولقد كانت كذلك يوم كان لحماها دولة ولدعاتها صوت ولعقديها يقين . فلما دالت الدولة ، وخشع الصوت ، وأراب اليقين ، تمزق المسلمون قطعاناً في فدافد الأرض لا مرعى يجود ، ولا راع يزود ،

ولا حظيرة تؤوى ثم . كانوا بتخلفهم عن ركب الحياة حجة على الإسلام في
 رأى السفهاء من مرضى الهوى أو الجهل ، فصموا عن دعائه ، وعموا عن ضيائه .
 فليت شعري متى يُتاح لدعوة محمد من يجدد حبيلها ، وينشر فضلها ، ويقول
 لأولئك الذين يحاولون أن يرفعوا قواعد العالم على أساس جديد ؛ « قد جاءكم
 من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام
 ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم »



من مآسى هذه الحرب

[١٤ فبراير سنة ١٩٤٤]

أجل ، هى مأساة من مآسى هذه الحرب وإن وقعت فى قرية صغيرة لأسرة فقيرة . فلا تقل أين (منصور جراد)^(١) من (استالين جراد) ، ولا أين خمسة نفر أهلكهم الجوع من ملايين طحنتهم رحاً عَرَضَ شَقِيهَا كَعَرَضِ السَّمَاءِ والأَرْضِ ؛ فإن الموت فى معركة الدبابات ، كالموت فى معركة الزهور . والشقاء الذى يكرُب أنفاس أسرة ، هو بعينه الشقاء الذى يفدح كواهل أمة . والموت لا يقاس أثره باتساع ميدانه وانتشار مداه ما دامت الجماعة لا تحسه إلا إحساساً جزئياً فى كل فرد منها . والفرد مهما قوى شعوره لا يدرك من بحيرة السم غير القطرة التى تسرى فيه ، ولا من أطنان القنابل غير الشظية التى تفتك به

ما أظنك نسيت صديقنا الشيخ منصوراً ومواقفه الجريئة من أصحاب الضياع والألقاب ، أيام الانتخاب لمجلس النواب ؛ فقد كان فى جُرأة قلبه وعزة نفسه مثل الفلاح المؤمن بعظمة الله وكرامة الإنسان وحقارة الدنيا . وكان كما علمت من وصفى إياه قد تعاظمت فى نفسه الحرية حتى احتقر المالك ، وألحت على جسمه السلامة حتى سُم العافية ، ونفرت عن قلبه الهموم حتى ألف السعادة هذا الرجل الذى كان شخصه يتميز فى الزحام من بُعد ، قد استسرت على

(١) جراد معناها بالروسية بلد أو مدينة ؛ فاستالين جراد : مدينة الزعيم ستالين ، ومنصور جراد من باب المشاكلة بلد الشيخ منصور

معرفته وهو أمامي ! لقد ذوى ذلك الحياء النضر ، وتهدم ذلك الجسد الوثيق ،
وتحدد ذلك العضل المكتنز ، وتجرد ذلك الهيكل الريان ، حتى ليخفق جلبابه
على ألواح !

لقد انقطع علم ما بيني وبينه منذ دهر طويل ، وكان آخر العهد به لقاء
ضاحك في بعض قرى الريف وهو على حاله تلك من الوثاقة والطلاقة والصحة ؛
فلما علم أنني قدمت المنصورة في هذا الأسبوع جاء يزورني متحاملاً على نفسه .
فلما أقبل على أنكرته أول ما رأيته ، ثم لم ألبث أن عرفته بما بقي من سيماء
على وجهه . فصاخته وأحسن لقاءه ؛ ثم دعوته إلى الجلوس فسقط بجانبى على
الكرسى كما يسقط كيس من العظام على الأرض . وعقل الدهش لسانى فلم
أسأله عن أمره . وحدثنى هو ما يعتلج في نفسى من الخواطر فقال بصوت غير
صوته ، ولهجة غير لهجته :

— لعلك ظننتنى خارجاً من المستشفى ، أو بالحرى مبعوثاً من القبر ! ليت
ما بى كان المرض ، فقد يكون للمرض دواء ! وليت ما بى كان الموت ، فقد
ينحسم بالموت الداء ! إنما هو جسم يذوب في نار من الهم لا تحبو ، وروح
تزهر في حشرة من الكرب لا تنقطع !

— إذن أنت يا صديقى حزين ؟

— إذا كان لفظ الحزن يعبر عن هذا الذوبان الدائم وذلك الاحتضار
المتصل فأنا حزين

— هل فقدت عزيزاً عليك ؟

— لقد فقدت كل عزيز على !

وهنا خانه الجلد فلم يستطع المسكين أن يملك دمه . فلما هدأت نفسه

وراجعه صبره قال :

— أنا في حياتي ما شكوت ولا رجوت ، ولكن الخطوب التي قوضت ركني وسودت حياتي هي التي أكرهتني على أن أشكو وأرجو ؛ وذلك وحده
خطب الخطوب

كان ذلك في شتاء سنة ١٩٤٢ ، وكان لي عامئذ زوجة مخلصه وابنة
عزيزة وثلاثة شباب بررة . وكنا نحن الستة ، ومعنا بقرتنا العاملة الحلوب ،
وحمارنا الفاره الدوب ، وكلبنا الحارس الأمين ، لا نفترق ولا نختلف ، ولا نرى
الدنيا إلا في بيتنا وحقلنا ، ولا نجد اللذة إلا في لباسنا وأكلنا . فإذا جار المالك
علينا في القسمة ، عدل الله فينا بالعوض . وإن جرى القضاء علينا بما نكره ،
انتهى الصبر بنا إلى ما نحب . حتى أزمّت هذه الحرب الناس ، فضاقت الرزق ،
وامتنع الوارد ، وارتفعت البركة ، وفشا المرض ، وأعوز الداء ، واختزن الملاك
ما تنبت الأرض ، واحتكر التجار ما تجلب السوق ، ففحش الغلاء ، وطُفّف
السكر ، حتى أصبح الأجير يعمل الأسبوع كله ليشتري كيلة من الذرة إذا
وجدها . ثم قضت سياسة التموين أن تشتري الحكومة مقداراً من القمح
مفروضاً على كل زارع . وقضى الله الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويَقْدِرُ ألا
تزيد غلّة أرضي على حصة الحكومة عندي ، فنقلت على حماري ما في الجرن
إلى بنك التسليف ؛ وحجز المالك ثمن القمح استيفاء لبعض إيجاره ، فخرجت
صفر اليدين من النقد والحب ، فلا في الجيب ولا في الخزن . ولكننا يا سيدي
أحياء ؛ والحى لا مناص له أن يأكل . فقمت أنا وزوجتي وابنتي على زراعة
الأرض ورعى البقرة ، واشتغل بنى الثلاثة أجراً عند الناس ، فكنا نجتمع أجرهم
في كل ثلاثة أيام لنشتري بها كيلة واحدة . وماذا تصنع الكيلة من غير إدام

في ثلاثة أيام ستة أفواه ؟

على أن هذه الحال لم تدم ، وليتها دامت ! فقد نفدت الحبوب من القرية ،
 وحرم علي الناس نقلها من بلد إلى بلد ، فكنت أقبض أجرة أولادى في المساء ،
 ثم أذهب إلى المنصورة في الصباح ، فأشتري بها من الخبز المخلوط ما لا يسمن
 ولا يشبع . وعلى هذا النمط النبأى من سوء العيش قل الغذاء ، وكثر العمل ،
 وبلى الثوب ، واتسخ الجسد ، واعتلت الصحة . ووفدت على القرية حمى
 التيفوس فلم تجد مناعة في جسم ، ولا وقاية من نظافة ، فأودت بينى الأربعة
 واحداً بعد واحد . ونجت منها زوجتى لتندبهم في الثواكل حتى لا يترك أولادى
 الحياة من غير عرس ولا مأتم . ثم أمعن القدر في ابتلائه : فانتشر في الماشية
 وباء التسمم الدموى ، فنفقت البقرة ، وهلك الحمار ، وأصبحت الدار والحمد لله
 خلاء مما صأى وصمت ! أما بقية القصة فإنك تقرأها الآن في وجهى . وإذا
 جاز أن يكون لمثل بعد ذلك رجاء ، فإنى أرجو من الله الموت ومنك الكفن !...



أبو العلاء المعري بمناسبة عيد الفصح

[٢٧ مارس سنة ١٩٤٤]



في اليوم السابع
والعشرين من شهر
ربيع الأول عام
٣٦٣ ، والشمس في
الغروب ، والقمر في
الحاق^(١) ، والمعرة في
همود الكلال ،

والطبيعة في فتور الكرى ، وُلد الطفل النبيل الضئيل أحمد أبو العلاء !
كان في ظلام الرحم ، وولد في ظلام العشية ، ثم عاش في ظلام البصر ،
وانتهى إلى ظلام القبر ! ومن هذا الظلام المتصل^(٢) نسج القدر حياة أبي العلاء ،
وأنشأ عواطفه ، وسود فلسفته ، وأبهم عقيدته ، وأوحش نفسه !
ومن هذا الظلام أيضاً تفجّر النور كله على قلبه وعقله ، فكان آية من
آيات ربه الكبرى في ذكاء الفهم ولطافة الحس وقوة الحفظ ودقة التخيل .
وهو القائل :

(١) الحاق : ثلاث ليال من آخر الشهر لا يرى فيها القمر

(٢) لم يبصر أبو العلاء الدنيا إلا ثلاثة أعوام قبل أن يصاب بالجدرى كانت عليه ظلاماً

معنوياً لقلّة وعيه وضعف إدراكه

سواد العين زار سواد قلبي ايتفقاً على فهم الأمور

وإذا كان لكل عاهة من عاهات الحس تعويض من قوى الروح ، فإن لها كذلك أثراً شديداً في حياة المعوهِ ، ترسم له الطريق وتعين له الغاية . فعاه أبي العلاء فرضت عليه أن يجعل العلم شغل حياته ؛ واختارت له من العلم أنواعه النقلية والنظرية مما تغنى فيه الحافظة وتعين عليه الخيلة ، كاللغة والدين والشعر ، ووسائلها من الرواية والنحو والصرف والعروض ؛ فقضى عمره^(١) الأول بين أيدي الشيوخ في الشام وبغداد ، أو على مقاعد المكتبات في المساجد والأديرة ، يسمع ويصغي ، ويجمع ويستوعب ، حتى لم يدع كلمة في معاجم اللغة وكلام العرب إلا علقها ، ولا مسألة من مسائل العلوم الأدبية إلا حذقها . ثم قضى عمره الثاني معتكفاً في داره ، يُعَسِّلُ الشهدَ تعسيل النحل امتلأت بطونها رحيق الزهر المختلف ، ويُقَطِّرُ الزلالَ تقطير المرشح الضخم أفعم جوفه بماء السيل المشوب . ولغلبة الأدب على حافظته لم ينضح فؤاده إلا به ؛ وكتبه التي أملاها وهي تربي على المائتين لم تخرج عن فنون الأدب المختلفة . أما علمه بالفلسفة وسائر العلوم فقد كان علم الأديب ، يأخذ منها ولا يعطيها ، ويشارك فيها ولا يختص بها . وأروع مظاهر النبوغ في ثقافته الأدبية إحاطته بالغة إحاطة المستوعب ، حتى كانوا إذا عدوا من رزقوا السعادة في شيء لم يؤته الله غيرهم ، عدوا أبا العلاء ممن تفرد بالاطلاع الواسع على لسان العرب . ومن هنا طغى الغريب على نظمه ونثره ؛ إذ كان همه مصروفاً إلى تقييد الأوابد اللغوية مما جمع عليه وعاء قلبه . وما كان في نية أبي العلاء أن يكتب لدهاء الناس ، إنما كان يكتب لنفسه ولتلاميذه . فهو ينظم ليرتاض ، ويؤلف ليسجل ، ويعمل ليعلم . ومن قوله

(١) العمر أربعون سنة ، وناهز فلان العمرين إذا قارب الثمانين

في مقدمة سقط الزند : « لم أطرق مسامع الرؤساء بالنشيد ، ولا مدحت طلباً
للثواب ، وإنما كان ذلك على معنى الرياضة وامتحان السوس^(١) » ؛ فإذا كتب
للعمامة أشرق لفظه وسهل أسلوبه ، كما صنع في كتابه (سيف الخطيب) ، وهو
مجموعة من الخطب المنبرية ألفها على حروف من حروف المعجم ، ثم قال :
« وتركت الجيم والخاء وما يجري مجراها ، لأن الكلام المقول في الجماعات
ينبغي أن يكون سجعاً سهلاً »

وعاهة أبي العلاء هي التي جذبت إليه العيون وشغلت به الألسن ؛ لأن
الضرير الذي يجيد النرد والشطرنج ، ويدخل في كل باب من أبواب الجد
والهزل ، ويحفظ من مرة واحدة ما يرد على سمعه مما يفهم وما لا يفهم ، عجيبة
من العجائب التي يجب أن تُرى ، وتستحق أن تُروى . واكتظاظ مجلسه
بالناس سبيل إلى الفضول والتزيد منهم ، وإلى مقابلة الحال بالحال وموازنة
الحظ بالحظ منه . وأبو العلاء الذي خلق بحكم منبته الكريم عزيز النفس
رفيع الهوى ظاهر المزية ، كان يستشعر العجز والنقص بما يعلم من انطفاء بصره
ودمامة وجهه وضالة بدنه وقصر قامته ، فكان لذلك شديد التيقظ لحركات
الجالس وكلمات المتكلم . وربما أساء الظن بيريء ، وتوهم الإساءة من محسن .
وهو في طعامه وهندامه وسلامه وقيامه عرضة للخطأ ومظنة المؤاخذه ؛ فكان
لا ينفك متزايلاً^(٢) ضجيراً يديم الحذر ويؤثر العزلة

صاحب أبو العلاء الزمان ولا بس الناس وراود السعادة حتى استجار شبابه
فلم تزده الأيام إلا يقيناً بعجزه الطبيعي عن مجارة الأنداد في سباق الحياة ،
وعن مرضاة النفس بلذات العيش ، وعن منازلة الخصوم بسلاح الإفك ،

(١) السوس : الطبيعة ، تقول : الفصاحة من سوسه أي من طبعه (٢) متزايلاً : منقبضاً

فانقلب إلى داره نافضاً كفيه من دهر لا رجية له فيه ، وعالم لا صديق له به ،
ونعيم لا نصيب له منه . وساعد على إمضائه نية الاعتزال فجيئته في أمه وهي
الظل الذي يأوى إليه ، والسبب الذي يتعلق به ؛ فزهد في الدنيا وصدف عن
الناس ، وأخذ نفسه بالخشونة والحرمان خمساً وأربعين سنة لا يلبس غير القطن ،
ولا يفترش غير اللبد ، ولا يأكل غير العدس ، ولا يتفكه إلا بالتين . وهو في
أثناء ذلك الدهر الطويل منطو على نفسه ، متحامل على ذهنه ، يحوك القوافي
ويصوغ الأسجاع في التسبيح لله ، والتزهيد في العيش ، والترغيب عن الزواج ،
والزراية على أم دفر^(١) ، والتنديد بأبي البشر ، والتشنيع على رياء أهل الدين
وجور أصحاب الحكم ، والتشكيك في صلاح الأنظمة والشرائع .

كان أبو العلاء في شبابه نسيم رحمة ، ثم صار في كهولته عاصفة دمار !
ولعله لو كان بصيراً متفائلاً كالجاحظ ، أو ضريراً شهوان كبشار ، لتبدل حكمه
على الدنيا ، وتغير رأيه في الناس !

(١) أم دفر : هي الدنيا في شعر أبي العلاء .



دكتور محمد الطحطاوي
مستند بمسود طهطاوي
طهطاوي

طهطاوي

٢٧٥



DATE DUE



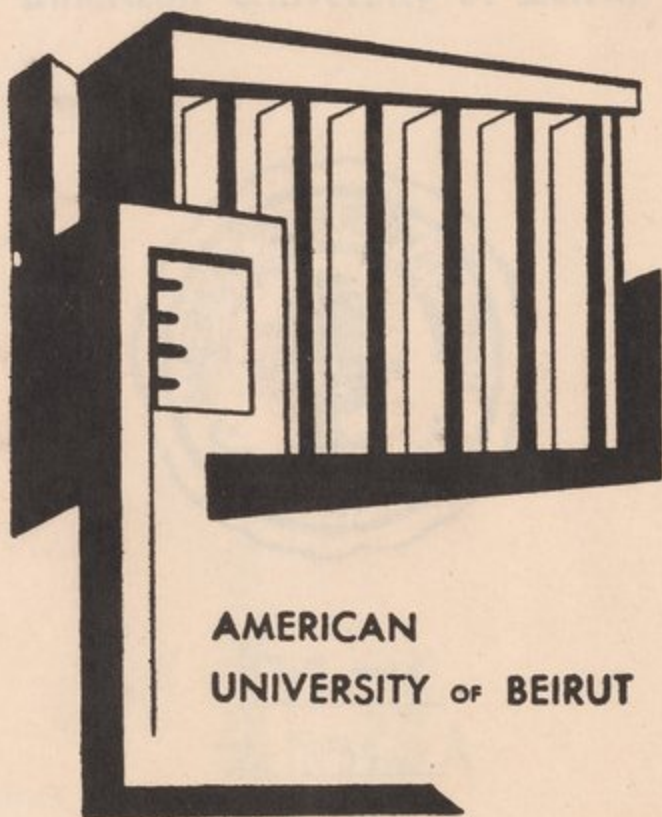
892.74:Z391A.v.2:c.1

الزيات، احمد حسن
وحي الرسالة: فصول في الادب والنقد

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



81041445



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

